المجلس الأعلى للثقافة

ترجمة

د. سامية أحمد أسعد



ناحية بيت سوان

تأليف

مارسيل بروست

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة الترجمة

ناحية بيت سوان

تأليف
مارسيل بروست

ترجمة
د. سامية أحمد أسعد

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٩٨٦

كنت لفترة طويلة أذهب إلى فراشى مبكراً ، وكنت أحياناً أغمض عينى بسرعة حالما أطفئ شمعتى ، بحيث لا أجد متسعاً من الوقت لكى أقول لنفسى : « سأنعس » . وبعد ذلك بنصف ساعة ، كان يوقظنى تفكيرى فى أن وقت البحث عن النوم قد حان . كنت أريد أن أضع الكتاب الذى ظننته بين يدى ، وأن أطفئ نور شمعتى . كنت وأنا نعسان لا أكف عن التفكير فيما قرأته توا ، لكن هذه الأفكار كانت قد أتخذت شكلا خاصاً إلى حد ما . كنت أتخيل أننى ، أنا نفسى ، ما يتحدث عنه الكتاب : كنيسة ، أو رباعى ، أو تنافس فرانسوا الأول وشارل الخامس. وكان هذا الإعتقاد يبقى بضع ثوان بعد استيقاظى ،ولا يصدم عقلى ،لكنه يثقل كالقشور على عينى ويمنعهما من أن تدركا أن الشمعدان الصغير لم يعد مشتعلا ، ثم أصبح غامضاً بالنسبة لى ، مثله مثل الأفكار الخاصة بالحياة السابقة ، بعد تناسخ الأرواح ، كان موضوع الكتاب ينفصل عنى ، وكنت حراً فى الاهتمام به أولا . وكنت أسترد فى الحال القدرة على الإبصار ، وأدهش كثيراً عندما أجد حولى ظلمة هادئة مريحة لعينى ، وربما كانت مريحة أكثر لفكرى الذى كانت تبدو له وكأنها شئ بلا سبب ، غير مفهوم ، شئ غامض حقاً . كنت أتساءل : كم الساعة الآن ؟ وأسمع صفير القطارات البعيد أو القريب ، كأنه غناء الطير فى الغابة ، يحصى المسافات ، ويصف لى مدى الحقول الخالية ، حيث يسرع المسافر متجهاً إلى المحطة القادمة . سيطبع الطريق الضيق الذى يسلكه فى ذاكرته ، ستطبعه الإثارة التى يدين بها للأماكن الجديدة والأفعال اللامعتادة والأحاديث الأخيرة ، ولحظات الوداع تحت المصباح الغريب الذى لا يزال يقتفى أثره فى صمت الليل ، وحلاوة العود القريب .

سندت وجنتى فى حنان على وجنتى الوسادة الجميلتين ، الممتلئتين ، النضرتين اللتان تشبهان وجنات طفولتنا . وأشعلت عوداً من الثقاب لأنظر إلى ساعتى . سينتصف الليل بعد قليل . إنها اللحظة التى ايقظت فيها الأزمة المريض الذى اضطر إلى السفر والنوم فى فندق مجهول ، اللحظة التى فرح فيها عندما لمح شريطاً من النور تحت الباب . ياللسعادة ! إنه الصباح : سيستيقظ الخدم بعد لحظة ، سيستطيع أن يدق الجرس ، وستأتى إليه النجدة . والأمل فى الراحة يعطيه الشجاعة التى تعينه على الألم خيل إليه بالذات أنه سمع وقع خطوات تقترب ، ثم تبتعد . وأختفى شريط النور الذى كان تحت بابه . إنه منتصف الليل . أطفئ المصباح توا ، وذهب آخر خادم ، ولابد من قضاء الليل كله مع الألم ، بلا دواء .

عاودت النوم . أحياناً ، كنت لا أستيقظ إلا لفترات قصيرة لا تتجاوز اللحظة التي تكفي لكي اسمع صرير خشب الجدران العضوى ، وأفتح العينين ، وأثبتهما على مشكال الظلام ، ولكي أتذوق ، بفضل ومضة موقتة من الوعى ، النوم الذى استغرقت فيه قطع الأثاث ، والغرفة ، واستغرق فيه كل شيء ، ولم أكن سوى جزءاً صغيراً منه ، وسرعان ما كنت أعود إلى الإتحاد ذاتياً مع عدم إحساسه . وأحياناً، كنت التقى بلا جهد ، وأنا نائم ، بشيء مضى إلى الأبد من حياتى الأولى ، وأعثر ثانية على مخاوف طفولتى ، كخوفى من أن يشدنى عمى الأكبر من خصلات شعرى ، وتبدد هذا الخوف — كان ذلك اليوم بداية عهد جديد بالنسبة لى — يوم أن قصوا لى شعرى . كنت قد نسيت هذا الحادث أثناء نومى ، لكنى وجدت ذكراه مرة أخرى، حالما توصلت إلى اليقظة لكى أفلت من يدى عمى الأكبر . وعلى سبيل الاحتياط ، كنت أخفى رأسى تماماً تحت الوسادة قبل أن أعود إلى عالم الأحلام .

وكما ولدت حواء من ضلع آدم ، كانت تولد أمرأة أحياناً ، أثناء نومى ، نتيجة لوضع خاطئ لفخذى . ولأنها كانت مكونة من اللذة التى أوشك أن أتذوقها ، كنت أتخيل أنها هى التى تمنح لى تلك اللذة . كان جسدى الذى يشعر بدفئه هو فى جسدها يريد أن يلتقى به . وعندما كنت أستيقظ ، كان باقى البشر يبدو لى بعيداً جداً وأنا بجوار هذه المرأة التى فارقتها من لحظات فقط . كانت وجنتى لا تزال تحمل دفء قبلتها ، وكان جسدى لا يزال مائلا تحت ثقل قامتها . وإذا اتخذت ، كما كان يحدث أحياناً ، ملامح إمرأة عرفتها فى الحياة ، وهبت نفسى كلية لهدف لقائها ، كؤلئك الذين يسافرون ليروا بأعينهم مدينة منشودة ، ويتخيلون أن المرء يستطيع أن يتذوق سحر الحلم ، فى عالم الواقع . لكن ذكرى تلك المرأة كانت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، وكنت أنسى فتاة أحلامى .

يحيط بالإنسان النائم كل من دائرة الساعات ، وترتيب السنين والعوالم . وهو ينظر إليهما غريزياً عندما يستيقظ ، ويجد فيهما فى لحظة المكان الذى يشغله من الأرض والوقت الذى انقضى حتى استيقاظه، إلا أن صفوفها قد تختلط أو تتفرق . وإذا فاجأه النعاس وهو يقرأ ، فى الصباح تقريباً ، بعد شيء من الأرق ، وهو فى وضع مختلف كل الإختلاف عن ذلك الذى ينام فيه عادة — يكفى أن يرفع ذراعه لكى يوقف الشمس ويحملها على التراجع — أدرك فى اللحظة الأولى من يقظته أنه لا يعرف الوقت وأنه لم ينم إلا منذ قليل . وإذا غلبه النعاس وهو فى وضع أكثر اختلافاً أو

خروجاً عن المألوف ، كأن يكون جالساً فى فوتيل بعد العشاء ، أصبح الاضطراب تاماً فى العوالم التى فقدت محورها وجعله الفوتيل السحرى يسافر بأقصى سرعة فى الزمان والمكان ، وظن فى اللحظة التى يفتح فيها عينيه أنه نام قبل ذلك ببضعة شهور فى بلد آخر.لكن ، كان يكفى أن أنام نوماً عميقاً فى سريرى ، وأن يرتاح ذهنى تماماً لكى يطلق هذا الأخير سراح المكان الذى نعست فيه.وعندما كنت أستيقظ فى وسط الليل ، كنت لا أعرف لأول وهلة من أنا ، لأننى أجهل أين أنا . كل ما هنالك أننى كنت أشعر شعوراً بسيطاً بالوجود . كذلك الذى ينبض فى أعماق الحيوان . كنت أكثر فقراً من أهل الكهف . عندئذ . كانت الذكرى — لا ذكرى المكان الذى أوجد فيه ، وإنما ذكرى بعض الأماكن التى سكنت فيها ويمكن أن أوجد فيها — تأتى إلى كالنجدة القادمة من أعلى لتخرجنى من العدم ، وما كان يمكن أن أخرج منه بمفردى . كنت أمر فى لحظة فوق قرون من الحضارة وكانت الصور الغامضة التى ألمحها ، صور مصابيح الغاز ، والقمصان ذات الياقات المقلوبة ، تعيد تدريجياً سمات ذاتى المبتكرة .

ربما كان ثبات الأشياء حولنا مفروضا عليها لتأكدنا من أنها هى هى،ولا أشياء أخرى ، ولتثبيت تفكيرنا أمامها . أيا كان الأمر ، عندما كنت أستيقظ على هذا النحو ويسعى ذهنى إلى معرفة المكان الذى أوجد فيه ولا ينجح فى مسعاه ، كنت أرى أن كل شئ يدور حولى فى الظلام ، الأشياء ، والبلاد ، والسنين . كان جسدى المخدر بحيث لا يستطيع الحركة ، يبحث ، حسب نوع تعبه ، عن وضع أطرافه ، ليستنتج منه إتجاه الحائط ، ومكان الأثاث، ويبنى من جديد المسكن الذى يوجد فيه ويسميه. وكانت ذاكرة جسدى ، ذاكرة ضلوعه ، وركبتيه ، وكتفيه ، تقدم له على التوالى عديداً من الغرف التى نام فيها ، بينما تغير الجدران التى لا ترى مكانها حسب شكل الغرفة المتخيلة ، وترسم دوامات فى الظلام . وقبل أن يتعرف فكرى المتردد عند عتبة الأزمنة والأشكال على المسكن ، بتقريبه بين الظروف ، كان جسدى يتذكر ، فيما يتعلق بكل مسكن ، نوع السرير ، ومكان الأبواب ، وضوء النوافذ ، ووجود أحد الممرات ، مع الفكرة التى خطرت لى وأنا نائم فيه ووجدتها عندما استيقظت . كان جنبى المخدر يبحث عن اتجاهه ، ويتخيل نفسه ، مثلا ، ممدداً أمام الحائط فى سرير كبير ذى قبة ، وكنت أقول لنفسى تواً : ماذا؟ لقد نمت فى نهاية الأمر ،مع أن أمى لم تحضر لتقول لى «مساء الخير ».كنت فى الريف عند جدى الذى مات من سنين ،

وكان جسدى والجنب الذى أرقد عليه حارسين أمينين لماض يجب ألا ينساه ذهنى أبداً ، ويذكرانى بشعلة المصباح المصنوع من زجاج بوهيميا ، وهو على شكل جرة معلقة فى السقف بسلاسل صغيرة ، والمدفأة المصنوعة من مرمر سيين فى غرفة نومى فى كومبريه ، عند جدى وجدتى ، يذكرانى بأيام بعيدة أخالها حالية فى هذه اللحظة بدون أن أحدد شكلها بالضبط . ولسوف أراها بعين أفضل بعد قليل ، عندما استيقظ تماماً .

ثم كانت تبعث ذكرى وضع جديد وكان الحائط يولى فى إتجاه آخر : كنت فى غرفتى عند مدام دى سان لو ، فى الريف. ياإلهى ! الساعة الآن العاشرة على الأقل، ولابد إنهم إنتهوا من تناول العشاء : لا شك أننى أطلت فترة الراحة التى أنعم بها كل مساء ، بعد عودتى من النزهة مع مدام دى سان لو ، قبل أن أرتدى بدلتى .مضت أيام طويلة على أيام كومبريه حيث كنت أرى على زجاج نافذتى إنعكاسات الغروب الحمراء، عندما كنا نعود متأخرين. والحياة فى تونسونفيل ، عند مدام دى سان لو ، حياة من نوع آخر يجد فيها المرء نوعا آخر من المتعة ، متعة الخروج فى الليل فقط ، والسير على ضوء القمر فى الطرقات التى كنت ألعب فيها فى الشمس فيما مضى. وألمح من بعيد الغرفة التى نمت فيها بدلا من أن أرتدى ملابسى للعشاء ، ألمحها عبر نيران المصباح عندما نعود ، وهى الفنار الوحيد فى الليل .

كانت هذه الذكريات الدوارة المبهمة لا تدوم إلا بضع ثوان . وكثيرا ما كان شكى لفترة قصيرة فى المكان الذى أوجد فيه لا يفرق بين مختلف الإفتراضات المكونة له ، كما لا نفرق ، عندما نرى جوادا يعدو ، بين الأوضاع المتتالية التى يقدمها لنا الكينتسكوب . لكنى رأيت تارةهذه الغرفة التى سكنتها فى حياتى، وتارة تلك، وكنت فى النهاية أتذكر كل الغرف فى الأحلام الطويلة التى تلى يقظتى : غرف شتوية يدس المرء فيها ، عندما ينام ، رأسه فى عش ينسجه من أكثر الأشياء تنافرا ، ركن من الوسادة ، أو الجزء العلوى من الأغطية ، أو طرف الشال ، أو حافة السرير أو عدد من جريدة « لى ديبا روز » ويلصق المرء بعض هذه الأشياء ببعضها الآخر وفقا لتكنيك الطيور ، ويستند إليها إلى مالا نهاية ، غرف يتذوق المرء فيها ، فى أيام الصقيع ،متعة الإحساس بالإنفصال عن الخارج (مثل خطاف البحر الذى يبنى عشه فى أعماق الأرض الدافئة) ، وتبقى النار مشتعلة فيها ، فى المدفأة ، طول الليل ، مما يجعل المرء

ينام فى معطف كبير من الهواء الحار المدخن ، تمر من خلاله ومضات الجمر المشتعلة كأنه مخدع غير محسوس ، أو مغارة دافئة محفورة داخل الغرفة ذاتها ،أو منطقة حارة متحركة داخل حدودها الحرارية . هواؤها أنفاس تنعش وجوهنا وتأتى من الزوايا أو الأجزاء المجاورة للنافذة ، أو البعيدة عن المدفأة التى عادت إليها البرودة — غرف صيفية يحب المرء أن يتحد فيها مع الليل الدافئ ، ويلقى فيها ضوء القمر المستند إلى « الشيش » المنفرج بسلمه المسحور حتى أسفل السرير ، وينام المرء فيها فى الهواء الطلق تقريبا ، كأنه قرقب تأرجحه النسمة فى طرف شعاع ، وأحيانا غرفة ترجع إلى عصر لويس السادس عشر ، مرحة المظهر بحيث لم أشعر فيها بالشقاء كثيرا : فى الليلة الأولى ، وكانت الأعمدة الصغيرة التى تسند السقف قليلا تنفرج فى سحر ودلال لتشير إلى مكان السرير وتحجزه له — وأحيانا ، على عكس ذلك ، غرفة صغيرة عالية السقف محفورة على شكل هرم فى إرتفاع طابقين ، يكسوها خشب الأكاجو جزئيا ، وخنقتنى فيها معنويا ، من أول لحظة ، رائحة النجيل الهندى المجهولة ، واقتنعت فيها بعداء الستائر البنفسجية ووقاحة الساعة التى لا تبالى ، وتثرثر بصوت عال ، وكأننى غير موجود ، وكانت مرآة غريبة لا ترحم ذات أرجل رباعية الزوايا تقطع بميل إحدى زوايا الغرفة وتحفر لنفسها فى إمتلاء حقلى البصرى المعتاد مكانا لم أتوقعه . كان فكرى الذى حاول على مدى ساعات عدة أن يتحلل ، ويمط نفسه إلى أعلى لكى يتخذ شكل الغرفة بالضبط ويتوصل إلى ملء قمعها العملاق إلى أعلاه ، قد تألم كثيرا فى الليالى القاسية ، بينما كنت ممددا على سريرى ، مرفوع العينين ، قلق الأذن ، جامح الأنف ، مضطرب القلب إلى أن غيرت العادة لون الستائر ، وأسكتت الساعة ، وعلمت المرآة المائلة القاسية الرحمة ، وأخفت ، إن لم تكن قد طردت تماما رائحة النجيل الهندى ، وقللت من إرتفاع السقف الظاهرى بالذات . العادة : العادة منظمة ماهرة ، لكنها بطيئة للغاية . فهى فى البداية تدع فكرنا يتألم أسابيع طويلة فى مكان مؤقت نسعد بالعثور عليه رغم كل شىء ، لأن الفكر ، إذا لم تصحبه العادة واقتصر على وسائله الخاصة وحدها ، قد يعجز عن إقناعنا بالسكن فى أى مكان .

طبعا ، كنت مستيقظا تماما الآن ، كان جسمى قد غير إتجاهه مرة أخيرة ، وكان ملاك اليقين قد أوقف كل شىء حولى ، ومددنى تحت أغطيتى فى غرفتى ، ووضع صوانى ، ومكتبى ، ومدفأتى ، والنافذة المطلة على الشارع والبابين فى مكانهم بالتقريب فى الظلمة . كانت ذاكرتى قد تحركت ، رغم أننى أعلم أننى لست فى المساكن التى أعطانى جهلى بها ، عندما إستيقظت فى لحظة ، صورة واضحة عنها ، أو أقنعنى على

الأقل باحتمال وجودها. كنت لا أحاول عادة أن أعاود النوم فى الحال ، بل أقضى الجزء الأكبر من الليل فى ذكر حياتنا الماضية فى كومبريه ، عند عمتى الكبرى ، وفى بلبيك ، وباريس ، ودونسير ، وفينيسيا ، وأماكن أخرى أيضا ، كنت أذكر الأماكن و الأشخاص الذين عرفتهم فيها ، وما بدر منهم ، وما قيل لى عنهم .

فى كومبريه ، كانت غرفة نومى تصبح مرة أخرى محور قلقى الثابت الأليم ، كل يوم ، فى آخر فترة بعد الظهر ، قبل أن تحين اللحظة التى يجب أن آوى فيها إلى فراشى بكثير ، وأبتعد فيها عن أمى وجدتى . وكانوا قد إخترعوا لتسليتى فى الليالى التى يرون فيها أننى فى غاية الشقاء ، فكرة إعطائى فانوس سحرى يوضع فوق مصباحى ، فى إنتظار ساعة العشاء . وعلى غرار المعماريين الأوائل وأساتذة رسم الزجاجيات فى العصر الغوطى ، كان الفانوس يستبدل ظل الجدران الكثيف بألوان غير محسوسة من ألوان قوس قزح ، ورؤى غريبة متعددة الألوان ، تصور أساطير مصورة على زجاجية موقتة مترنحة . لكن هذا كان يزيد من خوفى ، لأن مجرد تغيير الإضاءة كان يقضى على تعودى على غرفتى التى أصبحت محتملة فى نظرى بفضل هذه الإضاءة ، هذا فيما عدا عذاب النوم طبعا . والآن ، أصبحت لا أعرفها وأشعر فيها بالقلق ، وكأننى فى غرفة فندق أو شاليه وصلت إليه لأول مرة ، بعد نزولى من القطار .

خرج جولو ، وسار على وقع خطى جواده المسرعة ، ساعيا إلى غاية بغيضة خرج من الغابة المثلثة الصغيرة التى تكسو منحدر التل بلون أخضر قاتم . وتقدم وهو ينتفض نحو قصر جنفييف دى برابون المسكينة . وكان يقطع هذا القصر خط مائل لم يكن سوى حد قطعة زجاج بيضاوية فى الإطار من تلك القطع التى تمرر بين مزاليج المصباح . لم يكن القصر سوى قطعة من القصر ، وكان أمامه أرض براح تحلم فيها جنفييف وحول خصرها حزام أزرق . كان القصر والأرض البراح صفراوين ، ولم أنتظر رؤيتهما لأتبين لونهما ، لأن رنة إسم برابون الذهبية كانت قد أوضحته لى ، قبل أن يوضحه لى زجاج الإطار . توقف جولو لحظة ليستمع فى حزن إلى الكلام المنمق الذى تقرؤه عمتى الكبرى بصوت عال ، وفهمه جيدا فيما يبدو ، وكيف موقفه مع إرشادات النص ، بطاعة لا تخلو من شىء من الجلال . ما من شىء كان يمكن أن يوقف ركض جواده البطئ . إذا تحرك المصباح ، رأيت جواد جولو يواصل تقدمه على ستائر النافذة ، وينتفخ ثناياها ، ويهبط إلى فتحاتها . وكان جسد جولو ذاته من مادة خارقة

للطبيعة كالجواد الذى يمتطى صهوته، كان يتخطى أى عقبة مادية أو أى شئ يعوق سبيله باتخاذه إياه هيكلا وجعله شيئا داخليا بالنسبة له ، حتى لو كان ذلك الشئ مقبض الباب الذى يتكيف معه فى الحال ، ويسبح فوقه ثوبه الأحمر أو وجهه الشاحب الذى يحتفظ دائما بنبله وحزنه ، ولا يبدى أى إضطراب إزاء تحلل الظلال على هذا النحو .

كانت هذه العروض البراقة المنبثقة من ماضى ميروفنجيانى ، فيما يبدو ، تسحرنى بطبيعة الحال ، وتسير حولى إنعكاسات تاريخ قديم للغاية . لكنى لا أستطيع أن أقول أى ضيق كان يسببه لى دخول الغموض والجمال بهذه الطريقة المفاجئة إلى غرفة إنتهيت إلى ملئها بذاتى ، لدرجة أننى لم أعد ألتفت إليها أو إلى ذاتى . وبعد أن توقف تأثير العادة المخدر ، كنت آخذ فى التفكير والإحساس ، وهى أمور محزنة للغاية . مقبض باب حجرتى هذا ، المختلف فى نظرى عن كل مقابض أبواب العالم ، لأنه كان يفتح تلقائيا فيما يبدو بدون أن أحتاج إلى الضغط عليه ، لأن إمساكى به كان قد أصبح لا شعوريا ، قد أصبح جسما نجميا لجولو ، وحالما كان يدق جرس العشاء ، كنت أتعجل الذهاب إلى غرفة الطعام ، حيث لا يعرف المصباح الكبير المعلق جولو وذى اللحية الزرقاء ، بل يعرف والدى وطبق اللحم ، ويشيع نوره ككل مساء ، وأتعجل الارتماء بين ذراعى أمى ، التى تضاعف مآسى جنفييف دى برابون من حبى لها ، بينما تحملنى جرائم جولو على محاسبة نفسى بمزيد من الشدة .

للأسف ، كنت أضطر إلى الإفتراق عن والدتى بعد تناول العشاء مباشرة ، وتواصل هى حديثها مع الآخرين ، فى الحديقة إذا كان الجو جميلا ، أو فى الصالون الصغير الذى يلجأ إليه الجميع إذا كانت الحالة الجوية سيئة ، فيما عدا جدتى التى كانت ترى أن « بقاء المرء فى الداخل ، إذا كان فى الريف ، أمر يدعو إلى الإشفاق » ، ولا تكف عن مناقشة أبى ، فى الأيام التى يسقط فيها المطر بغزارة ، لأنه كان يطالب منى أن أذهب وأقرأ فى غرفتى بدلا من البقاء فى الخارج . كانت تقول له فى أسى : « لن تجعل من هذا الصغير إنسانا نشطا وقويا ، باتباعك هذا الأسلوب ، خاصة أنه فى حاجة ماسة إلى مزيد من القوة والإرادة » وكان أبى يهز كتفيه ، ويفحص البارومتر ، لأنه يحب الأرصاد الجوية ، بينما تحاول أمى ألا تحدث صوتا كى لا تضايقه ، وتنظر إليه باحترام حنون ، ولا تكثر من تثبيت نظراتها عليه لكى لا تحاول أن تفهم سر تفوقه . لكن جدتى كانت ترى فى كافة الأحوال ، وحتى عندما كان المطر ينهمر وكانت فرانسواز تدخل بسرعة مقاعد الخيزران الثمينة حتى لا تبتل ، وهى تسير فى الحديقة الخالية التى

يضربها السيل بسياطه ، وترفع خصلات شعرها الرمادية المبعثرة ليتشبع جبينها أكثر بالرياح والمطر الصحى ،كانت تقول : تنفسنا أخيرا ، وتجوب الممرات المبتلة — كان البستانى الجديد الذى يفتقر إلى الإحساس بالطبيعة قد رسم خطوطها بطريقة متساوية حسب هواه ، وكان أبى قدسأله منذ الصباح عما إذا كان الجو سيتحسن — بخطواتها الصغيرة المتحمسة المتلاحقة التى تنظمها الحركات المختلفة التى تثيرها فى نفسها نشوى العاصفة ، وقوة الصحة ، وحماقة تربيتى ، ورسومات الحديقة المتساوية ، أكثر مما تنظمها رغبة لاتعرفها فى حماية تنورتها البرقوقية من بقع الطين التى كانت تختفى تحتها حتى إرتفاع كان دائما مشكلة ومدعاة لبأس وصيفتها.

كان هناك شيء واحد يستطيع إعادة جدتى إلى داخل المنزل ، أثناء قيامها بجولاتها هذه بعد العشاء : هو أن تقول لها عمتى الكبرى — فى إحدى اللحظات التى تعيدها فيها نزهتها بطريقة دورية ، كما لو كانت حشرة ، أمام أضواء الصالون الصغير الذى تقدم فيه المشروبات على مائدة اللعب — : «ماتيلدا ! تعالى وامنعى زوجك من شرب الكونياك !» وبالفعل ، كانت عمتى الكبرى ، لكى تداعبها (كانت جدتى قد أتت إلى أسرة والدى بروح مختلفة لدرجة أن الجميع كانوا يمزحون معها ويداعبونها) تقدم لجدى بضع قطرات من الخمر ، لأنه كان ممنوعاً من شربه. كانت جدتى المسكينة تدخل ، وتتوسل إلى زوجها بحرارة ألا يذوق الكونياك ؛ وكان يغضب ، ويرشف مع ذلك رشفة ، بينما تعود جدتى ادراجها ، حزينة ، يائسة ، ومبتسمة مع ذلك ، لأنها كانت من الرقة والتواضع بحيث يتصالح حبها للآخرين مع عدم إكتراثها بشخصها هى وآلامها هى ، يتم الحان فى ابتسامة خلت من السخرية ، اللهم إلا السخرية بنفسها ، على عكس مانرى فى وجه كثير من البشر؛ وكانت ابتسامتها هذه أشبه بقبلة توجهها لنا جميعاً بعينيها اللتان لاتستطيعان رؤية من تحبهم بدون أن تداعباهم بوله . كان هذا العذاب الذى تفرضه عمتى الكبرى على جدتى ، ومرأى توسلات جدتى العابثة وضعفها ، جدتى المهزومة سلفاً التى تحاول بلا جدوى أن تأخذ كأس الشراب من جدى ، من الأشياء التى أعتاد المرء رؤيتها فيما بعد إلى حد النظر اليها وهو يضحك ، والتحيز للمضطهد بحزم ومرح بحيث يقنع نفسه بأن الأمر لايتعلق بالاضطهاد قط : إلا أن هذا كان يولد فى قدآ من الكراهية يجعلنى أتمنى أن أضرب عمتى الكبرى . لكن ، حالما كنت أسمع عارة : «ماتيلدا ! تعالى وامنعى زوجك من شرب الكونياك !» ، — وكنت قد أصبحت رجلا من حيث الجبن — كنت أفعل مانفعله جميعاً عندما نصير كباراً ، ونجد أمامنا آلاما وظلماً :

كنت أرفض أن أراهم ، وأصعد لأنتحب فى أعلى المنزل ، بجوار قاعة الاستذكار ، تحت السطح ، فى غرفة صغيرة تفوح منها رائحة السوسن وتعطرها رائحة كشمشة برية نبتت فى الخارج بين أحجار الحائط ، وتمرر فرعاً من فروعها المحملة بالزهور عبر النافذة المنفرجة . كانت هذه الغرفة مخصصة لاستعمال عادى خاص ، وترى منها أثناء النهار مسافة تصل إلى روسانفيل لى بان ، وكثيراً ما جعلت منها ملجأ لى ، لأنها كانت بلاشك الغرفة الوحيدة التى يسمح لى بغلقها بالمفتاح ، أثناء انشغالى بما يتطلب عزلة لاينبغى انتهاكها : القراءة والحلم ، والبكاء ، واللذة. لكن ، واأسفاه ! ! لم أكن أعرف أن افتقارى إلى الارادة ، وضعف صحتى ، والشك فيما يعد من مشروعات مستقبلة ، كانوا يشغلون بال جدتى أكثر مما يشغله عدم إتباع زوجها للرجيم ، أثناء نزهتها المستمرة بعد الظهر وفى المساء . كان وجهها الجميل ذو الوجنتين السمراوين ذات الأخاديد اللتان أصبحتا بنفسجيتين كالأراضى المحروثة فى الخريف مع مرور سنى العمر ، يمر ويعاود المرور فى خط مائل وهو مرفوع إلى السماء . وكان يغطى وجنتيها ، إذا خرجت ، خمار خفيف مرفوع إلى منتصفه ، ونرى عليهما دائماً دمعة لاارادية تجف ، أتى بها البرد أو أتت بها فكرة حزينة .

كان عزائى الوحيد ، عندما أصعد للنوم ، مجئ أمى لتقبيلى عندما آوى إلى فراشى . لكن قبلة المساء هذه كانت من القصر ، وكان نزول أمى من السرعة بحيث كانت اللحظة التى أسمع فيها صعودها ، ثم صوت ثوبها فى الممر ذى الباب المزدوج ، ثوبها الخفيف المصنوع من الموسلين الأزرق الذى كانت ترتديه فى الحديقة ، ويتدلى منه شريط صغير من القش المجدول ، لحظة أليمة بالنسبة لى. كانت هذه اللحظة تعلن عن التى ستليها ،وتتركنى فيها أمى وتهبط الدرج . لذا ، كنت أتمنى أن تأتى قبلة المساء هذه التى أحبها كثيراً فى لحظة متأخرة ما أمكن ، وأن تمتد فترة الإنتظار التى تسبق مجيء أمى . وأحياناً ، عندما كانت أمى تفتح بابى لكى تذهب ، بعد تقبيلى ، كنت أود أن أناديها وأقول لها : « قبلينى مرة أخرى » . لكنى كنت أعلم أن وجهها سيغضب فوراً ، لأن تسامحها معى إزاء حزنى وإضطرابى ، وصعودها لتقبيلى ، وإتيانها بقبلة السلام هذه ، كانت امورا تضايق والدى الذى يرى فيها طقوساً سخيفة ؛ كان بودها أن تحاول إفقادى عادة حاجتى اليها ، بدلا من أن تعودنى على أن أطلب منها قبلة أخرى ، بعد أن تكون قد وصلت إلى عتبة الباب . وكانت رؤيتى لها وهى غاضبة تهدم السكينة التى أتت بها إلى قبل ذلك باللحظة ، عندما مالت بوجهها الحبيب على فراشى ، ومدته لى كقربان سلام تستمد منه شفتاى حضورها الحقيقى والقدرة على النوم . لكن هذه الأمسيات التى كانت أمى تبقى خلالها فترة قصيرة فى

غرفتى ، كانت أمسيات حلوة بالقياس إلى تلك التى يدعى فيها بعض الضيوف إلى تناول العشاء عندنا ، وكان هذا يمنعها من الصعود لتقبيلى قبلة المساء. كان هؤلاء الضيوف يقتصرون عادة على مسيو سوان ، الذى كان ، فيماعدا بعض الغرباء عابرى السبيل، الشخص الوحيد تقريباً الذى يزورنا أحياناً فى كومبريه لتناول العشاء ، بوصفه جار لنا (كان حضوره قد أصبح نادراً منذ أن عقد هذه الزيجة المشينة ، لأن والدى كانا لا يريدان استقبال زوجته)، أو يزورنا أحياناً بعد العشاء بلا سابق انذار . وفى الأمسيات التى كنا نجلس فيها أمام البيت، تحت شجرة الكستناء الكبيرة ، حول المائدة الحديدية ، كنا نسمع فى طرف الحديقة ، لا الجلجلة الصاخبة التى تغمر أى شخص فى البيت يثيرها بدخوله بدون « أن يدق الجرس » ، وتصيبه بالدوار عند مرور صوتها الحديدى البارد الذى لاينضب معينه ، وإنما نسمع الرنة الذهبية البيضاوية الخجولة التى تنبعث من الجرس الصغير الخاص بالأغراب . عندئذ ، كان الجميع يتساءلون توا : «زيارة ؟ من عساه يكون ؟» لكن الجميع كانوا يعلمون علم اليقين أن القادم ليس سوى مسيو سوان . كانت عمتى الكبرى تتكلم بصوت عال ، لكى تكون مثالا يحتذى ، وبلهجة تحاول أن تجعلها طبيعية، لتقول إنه يجب ألا نتهامس على هذا النحو ، وإن مامن شىء يسىء إلى الشخص القادم من الخارج كاعتقاده أن الآخرين يقولون أشياء لايريدون أن يسمعها . كانت جدتى نرسل للاستطلاع ، وكانت تسعد دائماً إذا ما وجدت حجة لتقوم بجولة أخرى فى الحديقة ، وتنتهز الفرصة لتنتزع خلسة ، وهى مارة، بعضاً من دعامات شجر الورد لكى تعيد إليها شيئاً من طبيعتها ، وكأنها تمرر يدها على شعر ابنها الذى بالغ الحلاق فى تصفيفه حتى ينتفش .

كنا ننتظر أخبار العدو التى ستأتى بها جدتى بعد قليل ، وكأنه يمكن التردد بين عدد كبير من المهاجمين . وسرعان ما كان يقول جدى: « عرفت صوت سوان». كان سوان لا يعرف بالفعل إلا من صوته ؛ كان المرء لا يحسن تمييز وجهه ذ الأنف المعقوف ، والعينين الخضراوين ، تحت جبين عال يحيط به شعر أشقر يكاد يكون أحمراً مصففاً على طريقة بريسون، لأننا كنا نضيئ الحديقة أقل مايمكن لكى لا تجذب الباعوض . وكنت أذهب ، بدون أن يبدو على ذلك ، لأنقل الأمر باحضار الشراب . وكانت جدتى تحرص كثيراً على ألا يبدو الشراب كشئ يقدم بصفة إستثنائية ، وللزوار فقط ؛ كان مسيو سوان على علاقة وثيقة بجدى ، رغم أنه أصغر منه بكثير ، فلقد كان جدى أقرب أصدقاء والده ، وكان هذا الأخير رجلا ممتازاً ، لكنه غريب الأطوار . أحياناً ، كان يكفى شئ لا يذكر ، فيما يبدو ،

لإيقاف انطلاقات قلبه وتغيير مجرى أفكاره . وسمعت جدى يروى عدة مرات فى السنة ، أثناء تناولنا الطعام ، نكاتا لا تتغير عن الموقف الذى اتخذه مسيو سوان الأب عندما ماتت زوجته التى سهر إلى جوارها ليل نهار . كان جدى الذى لم يره من مدة طويلة قد ذهب مسرعاً إلى الضيعة التى يملكها آل سوان فى ضواحى كومبريه ليكون إلى جواره، وتوصل إلى إبعاده لحظة عن غرفة الميتة ، وهو غارق فى البكاء ،لكى لا يشهد وضعها فى التابوت.وخطا الإثنان بضع خطوات فى الحديقة ، حيث كان قليل من الشمس . وفجأة ، صاح مسيو سوان وهو يمسك بذراع جدى : « آه ، ياصديقى العزيز ! يالها من سعادة أن نتنزه معاً فى هذا الجو الجميل، ألا ترى أن هذا شئ جميل؟كل هذه الأشجار ، وهذا الزعرور ، وبحيرتى التى لم تمتدحها أبداً؟ إنك تبدومكتئبا ! ألاتشعر بهذه النسمة الرقيقة ؟ آه ، باعزيزى أميديه ! الحياة حلوة ؛ مهما قيل عنها ! » وفجأة ، عادت إليه ذكرى زوجته المتوفاة . ولا شك أنه وجد أن البحث عن السبب الذى جعله يسلم نفسه للفرح فى لحظة كهذه أمر معقد للغاية ، فاكتفى بتمرير يده على جبنيه ، وفرك عينيه ، ومسح زجاج نظارته ، بحركة مألوفة تصدر عنه فى كل مرة يعن فيها لفكره موضوع صعب . لم يستطع مع ذلك أن يتعزى لوفاة زوجته ، وكان يقول لجدى خلال العامين اللذى عاشهما بعدها ، « إنه لأمر غريب ! كثيراً ما أفكر فى زوجتى المسكينة ، لكنى فى الوقت نفسه لا أستطيع أن أفكر فيها كثيراً . » وكانت عبارة « كثيرا ، على حد قول سوان الأب المسكين» ، قد أصبحت من العبارات المفضلة عند جدى التى يذكرها إذا تحدث عن أشياء متباينة للغاية . كان يمكن أن أرى فى سوان الأب وحشاً ، لولا أن جدى صاح قائلا : «كيف ؟ لقد كان له قلب من ذهب» ، وكنت اعتبر جدى أفضل حكم ، وكانت أحكامه مرجعاً كثيراً ما استخدمته فيما بعد لغفران أخطاء كنت ميالا إلى إدانتها .

ظل سوان الإبن يأتى إلى كومبريه ، لسنوات عديدة ، لاسيما قبل زواجه ، لزيارة عمتى الكبرى وجدى وجدتى . ولم يخطر على بال هؤلاء أنه لم يعد يعيش فى المجتمع الذى اختلطت به أسرته ، وأنهم يستقبلون فى دارهم تحت هذا الاسم المستعار، «سوان» ، الذى اتخذه عندنا ، — ببراءة أصحاب الفنادق الشرفاء الذى يوجد عندهم قاطع طريق شهير!، ولا يدرون عن أمره شيئاً — واحداً من أكثر أعضاء الجوكى — كلوب تأنقاً ، وصديقاً أثيراً لدى الكونت دى باريس وأمير ويلز ، وأحد أفراد المجتمع الراقى المدللين فى سان جيرمان .

كان جهلنا بهذه الحياة الإجتماعية البراقة التى يحياها سوان يرجع جزئياً ،

بطبيعة الحال ، إلى تحفظه وميله الطبيعى إلى التكتم ؛ ويرجع أيضا إلى أن البورجوازيين كانوا آنذاك قد كونوا فكرة « هندوسية» بعض الشئ عن المجتمع ، وكانوا يعتبرونه مكوناً من طبقات مغلقة ويوضع فيها كل فرد ، منذ ميلاده ، فى الطبقة التى وضع فيها والده ، ولا يمكن أن يخرجه منها شئ ويدخله فى طبقة أعلى ، إلا إذا هيأت له الصدفة حياة فريدة من نوعها أو زواجا لم يتوقعه . كان مسيو سوان الأب سمساراً فى الأوراق المالية ، ووجد سوان الإبن نفسه مدى الحياة فى طبقة تتراوح فيها الثروات وكأنها فئة من الممولين ، بين هذا العائد وذاك . كنا نعرف أسماء من خالطهم والده ونعرف بالتالى أسماء من يخالطهم هو ، والأشخاص الذى يمكن أن يصادقهم بحكم «موقعه» . وإذا عرف أناساً غيرهم ، فهم أناس كان على علاقة بهم وهو شاب ، ويتظاهر أصدقاء اسرته القدامى ، من أمثال والدى ، بعدم معرفتهم عن طيب خاطر ، خاصة أنه ظل يأتى مخلصاً لزيارتنا بعد أن أصبح يتيما . لكن ، من المؤكد أن هؤلاء الناس الذين لا نعرفهم وكان يراهم هو كانوا من أولئك الذين لا يجرؤ على تحيتهم إذا التقى بهم وهو معنا . وإذا أردنا أن نطبق على سوان بأى ثمن معاملا اجتماعياً شخصياً ، ينسحب على أبناء السماسرة الآخرين الذى يتساوى وضعهم مع وضع والديه ، لكان هذا المعامل أقل بالنسبة له ، لأنه كان يسكن الآن فندقاً قديماً يكدس فيه مجموعاته ، ، نظراً لسلوكه البسيط للغاية ، « وولعه» الدائم بالأشياء القديمة والرسم وكانت جدتى تحلم بزيارته ، لولا أن الفندق كان يقع فى حى دورليون ، وهو حى ترى عمتى الكبرى أن السكن فيه أمر مشين . وكانت عمتى الكبرى تقول له : «هل أنت خبير فى هذا المجال ؟ أسألك عن هذا لمصلحتك ، لأن الباعة يدسون لك لوحات رديئة بلا شك » . بالفعل ، لم تكن نفترض أنه كفء بأى حال من الأحوال ، ولا تقدر كثيراً ، من الناحية الثقافية ، رجلا يتجنب الموضوعات الجادة فى الحديث ، ويبدى دقة عادية للغاية ، لا فقط عندما يعطينا وصفات للطهى ويدخل فى أدق التفاصيل ، وإنما ايضاً عندما تتحدث أختى جدتى عن بعض الموضوعات الفنية . وعندما كن يثرنه ليبدى رأيه ويعبر عن إعجابه باحدى اللوحات ، كان يلزم صمتاً يكاد يكون فيه شئ من الجفاء ، ويتدارك الأمر ، على عكس ذلك ، إذا استطاع أن يقدم معلومة مادية عن المتحف الذى توجد فيه اللوحة سالفة الذكر ، والتاريخ الذى رسمت فيه . وكان يكتفى عادة بتسليتنا ، ويروى لنا فى كل مرة قصة جديدة عاشها لتوه مع أناس اختارهم من بين الأشخاص الذين نعرفهم ، صيدلى كومبريه ، أو طاهيتنا ، أو الحوذى الذى يعمل عندنا ، على سبيل المثال . كانت هذه الروايات تضحك عمتى الكبرى بطبيعة الحال ، لكن بدون أن تتبين جيداً ما إذا كانت تضحك لأن سوان

اعطى لنفسه دوراً سخيفاً فى هذه القصص ، أم لأنه يرويها بطريقة طريفة : « إنك شخصية رائعة حقاً ، يامسيو سوان » وبما أنها كانت للشخص الوحيد المبتذل إلى حد ما فى أسرتنا ، كانت تحرص على أن يلاحظ الغرباء، إذا جرى الحديث عن مسيو سوان ، أنه يستطيع أن يسكن فى بولفار هوسمان أو شارع الأوبرا ، إذا شاء ، وأنه ورث عن أبيه ، بلا شك ، ، أربعة أو خمسة ملايين من الفرنكات ، لولا نزوته. وكانت ترى أن هذه النزوة قد تسلى الآخرين ، لذا كان لا يفوتها أن تقول لمسيو سوان ، إذا كان عندنا ضيوف ،عندما يحضر لها فى أول يناير كيس المارون جلاسيه من باريس :« هيه يامسيو سوان ، أما زلت تسكن بجوار مخزن النبيذ ، لكى تضمن ألا يفوتك القطار عندما تذهب إلى ليون ؟»، كانت تقول له ذلك وهى تنظر إلى بقية الضيوف بطرف عينها ، من فوق نظارتها .

ولو أن أحداً قال لعمتى الكبرى إن سوان هذا ، بوصفه ابناً لسوان ، كان «جديراً» بأن تستقبله « البورجوازية العليا» وبأن يستقبله أيضاً كتاب العدل والمحامون المرموقون فى باريس ، لكنه يحيا فى الخفاء حياة مختلفة تماماً ، وإنه يدور على عقبيه حالما يصل إلى ناصية الشارع ، بعد أن يخرج من بيتنا فى باريس ويقول لنا إنه عائد إلى بيته لينام ، ويذهب إلى صالون لم تتأمله أبدأعين وكيل أو مساعد وكيل ، لو أن أحداً قال ذلك لعمتى الكبرى لرأت فيه امرأ غريباً ، غريبا كفكرة ارتباط امرأة متفوقة عليها ثقافياً بأرستيه شخصياً ، بعد أن تكون قد فهمت من حديثها معه أنه سيغوص فى ممالك تيتيس ، فى امبراطورية بعيدة عن عيون البشر الزائلين ، حيث يصور فيرجيل ترحيب الناس به ، او اكتفت بصورة يحتمل كثيراً أن تخطر على بالها ، لأنها رأتها مرسومة على اطباق « البيتى فور» فى بيتنا فى كومبريه ، وتخيلت أنها دعت على بابا إلى تناول العشاء ، وأنه سيدخل المغارة الزاخرة بالكنوز المتألقة التى لم يتوقع العثور عليها ، عندما ينفرد بنفسه .

وذات يوم ، جاء سوان لزيارتنا فى باريس ، بعد العشاء ، وأعتذر لارتدائه بذلة رسمية . وبعد رحيله ، قالت فرانسواز إنها عرفت من الحوذى أنه تناول العشاء عند إحدى « الأميرات» . فقالت عمتى بسخرية هادئة وهى تهز كتفيها : « نعم، عند اميرة من الغانيات» ، ولم ترفع عينيها من فوق التريكو الذى بيدها .

لذا ، كانت عمى الكبرى تعامله معاملة خالية من الإحترام . وبما أنها كانت

تعتقد أنه يجب أن يفتخر بدعوتنا له ، كانت تجد من الطبيعي جداً ألا يأتي لزيارتنا فى الصيف إلا إذا كانت فى يده سلة خوخ أو فراولة برية من حديقته ، وأن يحضر لى بعض الأعمال الفنية الرائعة ، فى كل مرة يذهب فيها فى رحلة إلى إيطاليا .

كنا لا نتحرج ونرسل فى طلبه إذا احتجنا إلى وصفة صلصة أو سلطة أناناس لحفلات العشاء الكبرى التى لايدعى إليها لأنه يفتقر إلى الهيبة التى تكفى لتقديمه إلى الغرباء الذين يأتون إلى دارنا لأول مرة . كانت عمتى الكبرى تقول له ، إذا دار الحديث حول امراء البيت الملكى الفرنسى : « إنهم أناس لن نعرفهم أبداً ، لا أنا ولا أنت ، ونحن فى غنى عن معرفتهم ، أليس كذلك ؟ » ، وربما كان فى جيبه آنذاك خطاب من تويكنهام . وكانت تطلب منه أن يدفع البيانو ، أو يقلب الصحفات ، فى الأمسيات التى تغنى فيها أختى جدتى ، أى أنها كانت تعامل هذا الإنسان المطلوب المرغوب فى أماكن أخرى معاملة خشنة ساذجة تشبه الطريقة التى يلعب بها طفل بقطعة من مجموعة فنية كما لو كانت شيئاً رخيص الثمن . ولا شك أن سوان الذى عرفه كثير من أعضاء النوادى فى نفس الفترة كان مختلفاً كل الإختلاف عن سوان الذى كانت تتخيله عمتى الكبرى، عندما يدق الجرس دقتين صغيرتين مترددتين فى حديقة كومبريه الصغيرة ، فى المساء ، وعندما تبعث الحياة ، بكلما تعرفه عن أسرة سوان، فى الشخص المتردد المغمور الذى كان يبرز أمام جدتى ، على خلفية مظلمة ، وكان يعرف من صوته . لكننا لسنا كلا مكونا مادياً ، حتى فيما يتعلق بأتفه شئون الحياة ، لسنا كلا واحداً بالنسبة للجميع ، يكفى أن يذهب كل شخص للاطلاع عليه وكأنه يطلع على قائمة من الشروط أو وصية . ففكر الآخرين هو الذى يخلق شخصيتنا الاجتماعية . حتى الفعل البسيط الذى نسميه « زيارة شخص نعرفه » فعل ذهنى إلى حد ما ، فنحن نملأ المظهر الخارجى للشخص الذى نراه بكافة الأفكار التى كوناه عنه ، ولا شك أن لهذه الأفكار نصيب الأسد فى تخيلنا لشكله العام ، فهى تنتهى إلى نفخ الوجنتين ، ومتابعة خط الأنف بدقة تلتصق به ، وتعنى بتغيير رنة الصوت ، وكأن هذا الصوت مجرد غلاف شفاف ، لدرجة أننا نعثر ثانية على هذه الأفكار ونستمع اليها ، فى كل مرة نرى فيها هذا الوجه ونسمع فيها هذا الصوت . ولا شك أن والدى كانا قد نسيا عن جهل أن يدخلا فى سوان الذى كونا فكرة عنه حشداً من خصائص حياته الإجتماعية التى كانت تجعل الآخرين يرون الأناقة تسود وجهه ، عندما

يكون حاضراً ، وتتوقف عند أنفه المعقوف وكأنه حد طبيعي لها ، لكنهما كانا قد تمكنا أيضاً من أن يكدسا فى هذا الوجه الخالى الواسع الذى فقد هيبته ، وفى أعماق هاتين العينين الذى قل شأنهما ، البقايا المبهمة الحلوة — نصفها ذكريات ، ونصفها الآخر نسيان — المتخلفة عن ساعات الفراغ التى قضوها معاً بعد العشاء الأسبوعى ، حول مائدة اللعب أو فى الحديقة ، عندما كانوا يعيشون فى الريف ، كأناس يربط بينهم حسن الحوار . وكان الغلاف الجسمانى لصديقنا سوان قد امتلأ بهذه الأفكار ، وبعض الذكريات الخاصة بوالديه ، بحيث أصبح إنساناً كاملا حياً ، وبحيث كنت أشعر أنى أفارق شخصا واتجه إلى آخر مختلف عنه ، عندما كانت ذاكرتى تنتقل من سوان الذى عرفته معرفة دقيقة فيما بعد إلى سوان الأول هذا — كنت أجد فى سوان الأول أخطاء شبابى الساحرة ، وكان لا يشبه سوان الآخر قدر ما يشبه الأشخاص الذين عرفتهم فى نفس الفترة ، وكأن حياتنا متحف تتشابه فيه وتتناغم كل الصور التى تنتمى إلى فترة زمنية واحدة — الملىء بوقت الفراغ ، المعطر برائحة شجرة الكستناء الكبيرة ، وسلال الفراولة البرية ، وشىء من الخردل .

ذات يوم ، ذهبت جدتى لطلب خدمة من سيدة كانت قد عرفتها فى السكريكير (وقطعت علاقتها بها ، بالرغم من ميل كل منهما إلى الأخرى ، بسبب مفهومنا للطبقات) هى الماركيزة دى فليباريزيس التى تنتمى إلى عائلة بويون الشهيرة . فقالت لها هذه الأخيرة : «أعتقد أنك تعرفين مسيو سوان حق المعرفة ، إنه صديق حميم لآ ل دى لوم أبناء أخى » وعادت جدتى من زيارتها وهى متحمسة للبيت الذى يطل على الحدائق ونصحتها مدام دى فليباريزيس باستئجاره ، وللحائك وابنته اللذان يملكان محلا يطل على فناء ذلك المنزل ، وكانت قد دخلت عندهما لإصلاح شأن تنورتها التى مزقتها فى السلم . رأت جدتى أن هؤلاء الناس على درجة كبيرة من الكمال ، وصرحت بأن الإبنة درة ، وبأن والدها الحائك من أرق وأفضل الرجال الذين رأتهم قاطبة ، لأن الرقى كان ، فى نظرها ، شيئاً مستقلا تماماً عن الطبقة الإجتماعية . وكانت جدتى قد أعجبت بجملة قالها الحائك ، فقالت لأمى : « لم تكن مدام دى سيفنيه لتقول أفضل منها» . بينما قالت عن أحد أبناء أخى مدام دى فليباريزيس الذى التقت به عند هذه الأخيرة : «آه يا ابنتى : ياله من إنسان عادى » .

لم يرفع ما قيل عن سوان من شأنه فى نظر عمتى الكبرى بل قلل من شأن مدام دى فليباريزيس فى نظرها . فلقد كان الإحترام الذى تكنه لمدام دى فليباريزيس بناء

على ثقة جدتي بها يلزمها ، فيما يبدو ، بألا تفعل شيئاً يجعلها غير جديرة به. وكانت قد أخلت بهذا الإلتزام عندما علمت بوجود سوان ، وسمحت لأقاربها بمخالطته : «ماذا ؟ تعرف سوان، بينما كانت تدعى أنها قريبة الماريشال ماك — ماهون ؟!» بعد ذلك ، تأكد رأى أقاربى فى علاقات سوان ، فيما يبدو ، عندما تزوج امرأة من أسوأ الطبقات الإجتماعية ، تكاد تكون عاهرة ، لم يحاول أن يقدمها لهم أبداً . وظل يزورنا بمفرده ، وإن كانت زياراته قد قلت ، واعتقد أقاربى أنهم يستطيعون من خلال زيجته هذه أن يحكموا — إذا افترضنا أنه اختار زوجته من هذا الوسط — على الوسط الذى يخالطه عادة ، مع إنهم لا يعرفونه .

وذات مرة ، قرأ جدى فى إحدى الجرائد أن مسيو سوان واحد من أولئك الذين إعتادوا تناول الغذاء بانتظام عند دوق كذا . . . ، يوم الأحد ، وكان والد هذا الدوق وعمه من رجال الدولة البارزين فى عهد لوى — فيليب . وأراد جدى أن يعرف الأحداث الصغيرة التى قد تساعده على الدخول بفكره فى الحياة الخاصة لأناس مثل موليه ، والدوق باسكييه ، والدوق دى بروجلى ؛ وسر للغاية عندما عرف أن سوان يخالط أناساً عرفوا هؤلاء القوم ، فى حين فسرت عمتى الكبرى هذا النبأ تفسيراً يسئ إلى سوان. إذا اختار المرء الأشخاص الذين يخالطهم خارج الطبقة التى ولد فيها ، أى خارج طبقته الإجتماعية ، سقط فى نظرها سقوطاً مؤسفاً . كانت تعتقد أنه يتنازل بذلك فجأة عن ثمرة كل العلاقات الطيبة التى أقامها مع الناس المحترمين ، وهى علاقات تبنى عليها الأسر بعيدة النظر وتختزنها من أجل أبنائها (بل أن عمتى الكبرى كانت قد كفت عن مخالطة ابن صديق لنا ، وهو كاتب عدل ، لأنه تزوج من صاحبة سمو ، وبالتالى ، سقط فى نظرها من مستوى ابن كاتب عدل محترم إلى مستوى واحد من أولئك المغامرين الذين كانوا يخدمون فى البيوت أو الإسطبلات ، ويقال إن المليكات كن يستلطفهم أحياناً). ولامت جدى لأنه ينوى أن يسأل سوان عن أصدقائه أولئك الذين اكتشفناهم فى الليلة القادمة ، حيث أنه سيحضر لتناول العشاء عندنا . من ناحية أخرى ، صرحت أختى جدتى ، وكانتا عجوزتين عانستين أخذتا عنها طبعها النبيل ولم تأخذا عنها روحها ، بأنهما لا تفهمان المتعة التى يجدها زوج أختهما فى الحديث عن هذه الترهات . وكانت لهما تطلعات نبيلة ، لذا ، كانتا عاجزتين عن الاهتمام بما يسمى أقاويل ، حتى لو كانت لهذه الأقاويل أهمية تاريخية ، وكانتا عاجزتين عامة عن الاهتمام بأى شىء لا يتعلق مباشرة بكل ما هو جميل وفاضل . وبلغ عدم اهتمام فكرهما بكل ما يمت إلى الحياة

الإجتماعية بصلتنا من قريب أو بعيد. لهذا جعل ضعف السمع عندهما، لقلة فهمتا في النهاية، عدم جدواها الموقت عندما يتخذ الحديث حول مائدة العشاء وجهة تافهة أو عادية فقط، وعجزنا عن اعادته إلى الموضوعات العزيزة عليهما، تريح أجهزة استقبالها وتسلمها لبداية ضمور حقيقي. لذا كان جدي يضطر إلى الالتجاء إلى تلك التنبيهات المادية التي يستخدمها أطباء الأمراض العقلية مع بعض المصابين بداء الشرود الذهني، إذا احتاج أن يلفت نظر الأختين إلى شيء ما، كأن يضرب كوبا بسن السكين ضربات متكررة، ويناديهما فجأة بالصوت والنظر، وتلك وسائل عنيفة كثيرا ما ينقلها هؤلاء الأطباء النفسانيون إلى علاقاتهم العادية مع الناس الأصحاء، إما عن عادة مهنية، إما لأنهم يعتقدون أن كل الناس مجانين إلى حد ما.

وأبدينا مزيدا من الإهتمام عندما قرأت عمتي، عشية اليوم الذي تناول فيه سوان العشاء عندنا، وكان هذا الأخير قد أرسل لها شخصيا صندوق نبيذ من آستي، العبارة الآتية: «من مجموعة مسيو شارل سوان» في عدد من جريدة «الفيجارو»، بجوار اسم لوحة في معرض لأعمال الفنان كورو. فقالت لنا: «رأيتم إذن أن سوان حظي بشرف ذكر إسمه في «الفيجارو»؟». وقالت جدتي: «لقد قلت لكم دائما إنه يتمتع بذوق رفيع». كانت عمتي الكبرى تعلم أن جدتي تختلف دائما معها في الرأي. ولأنها لم تكن متأكدة من أننا سننحاز لرأيها ردت قائلة: «طبعا، ما دام الأمر يتعلق بابداء رأي مخالف لرأينا»، وهي تحاول أن تنتزع منا إدانة جماعية لآراء جدتي، وأن تجعلنا نتضامن قسرا معها وننحاز لآرائها. لكننا لزمنا الصمت. وعندما قالت أختا جدتي أنهما تنويان مفاتحة سوان فيما جاء في الجريدة، نصحتهما عمتي الكبرى بالاتفعلا. ففي كل مرة كانت ترى فيها وفي الآخرين ميزة تفتقر إليها، مهما كان صغرها، كانت تقنع نفسها بأنها ليست ميزة، بل علة عيبا، وكانت ترثي لحالهم لكي لا تضطر إلى حسدهم. «أظن أن ذلك لن يسره، ولو أنني كنت مكانه لساءني جدا أن أرى اسمي مطبوعا هكذا في مكان ظاهر من الجريدة، ولما راقني أبدا أن يحدثني أحد عن ذلك». لكنها لم تصر على اقناع أختي جدتي، لأنهما كانتا تمقتان الابتذال، لذا كانتا تتقنان فن الإخفاء لأي تلميح شخصي تحت تحولات [illegible] تركيب [illegible] الشخص المقصود [illegible] لا يلاحظه في أغلب الأحيان [illegible] لا تفكر إلا [illegible] في [illegible] أبي [illegible] عن زوجته [illegible] ابنته [illegible] في نهاية [illegible] من أجلها [illegible]

« يمكن أن تقول له كلمة واحدة فقط ، أن تسأله عن حالها. فلاشك أن هذا الوضع قاس جداً بالنسبة له » لكن أبي كان يغضب ويقول : « يا لغرابة أفكارك ! لن أفعل ، ولو أنني فعلت ، لكان ذلك سخفاً » .

كنت الشخص الوحيد الذى أثار مجيء سوان قلقاً أليماً فى نفسه ، لأن أمى كانت لا تصعد إلى غرفة نومى فى الأمسيات التى يزورنا فيها بعض الغرباء أو مسيو سوان فقط . كنت فى تلك الأمسيات أتناول العشاء قبل الجميع ، ثم آتى لأجلس أمام المائدة حتى الثامنة . وكان من المتفق عليه أن أصعد إلى غرفتى فى تلك الساعة وكان على أن أنقل من غرفة الطعام إلى غرفتى القبلة الثمينة الرقيقة التى أعتادت أمى أن تمنحها لى قبل النوم ، وأنا فى فراشى ، وأن أحتفظ بها طوال الفترة التى أخلع فيها ملابسى ، بدون أن أحطم رقتها ، أو ينتشر أو يتبخر مفعولها . فى تلك الأمسيات بالذات كنت فى حاجة إلى تلقيها بمزيد من الحرص ، وكان على أن آخذها ، أو أسرقها فجأة ، وعلناً ، بدون أن يكون لدى الوقت الكافى أو الحرية اللازمة للإنتباه إلى ما أفعله ، شأنى فى ذلك شأن أولئك الذين يحاولون ألا يفكروا فى شيء آخر وهم يغلقون باباً مثلا ، ليذكروا اللحظة التى أغلقوه فيها ، إذا ما عاودهم الشك المرضى فى الأمر .

كنا جميعا فى الحديقة عندما دق الجرس دقتيه المترددتين .كنا نعرف أنه سوان . ومع ذلك ، نظر الجميع إلى بعضهم بعضاً متساءلين ، وذهبت جدتى لا ستطلاع الأمر ، وقال جدى لأختى زوجته : «فكرا فى شكره بطريقة ذكية على النبيذ الذى أرسله . فأنتما تعلمان أنه لذيذ وأن الصندوق كان ضخماً »فقالت عمتى الكبرى : « لا تبادروا إلى الهمس .ياله من أمر سار أن يصل المرء إلى منزل يتحدث فيه الجميع بصوت خافت ». وقال أبى : « ها هو ذا مسيو سوان .سنسأله عما إذا كان يعتقد أن الجو سيكون جميلا غداً»؛كانت أمى تعتقد أن كلمة واحدة منها ستمحو كل الألم الذى سببته عائلتنا لمسيو سوان منذ زواجه وتوصلت إلى اصطحابه بعيدا عنا قليلا، لكنى تبعتها. كنت لا أقدر على الابتعاد عنها خطوة واحدة وأنا أعلم أننى سأضطر إلى فراقها بعد قليل ، وأنها ستبقى فى غرفة المائدة ، بينما أصعد أنا إلى غرفتى ، بدون أن يعزينى مجيوءها لتقبيلى كما كانت تفعل فى الأمسيات الأخرى .فقالت لمسيو سوان: «حدثنى قليلا عن إبنتك.أنا متأكدة أنها بدأت تتذوق الأعمال الجميلة مثل أبيها».واقترب جدى منهما وقال : «تعالوا واجلسوا معنا تحت الشرفة» .اضطرت أمى عندئذ أن تقطع حديثها ، لكنها استخلصت من هذا الإجبار ذاته فكرة أخرى رقيقة ، كما يفعل الشعراء المجيدون الذين يجبرهم طغيان القافية على العثور على أجمل اللمسات ، فقالت، لسوان بصوت

خافت : «ستتحدث عنها مرة أخرى، عندما نكون وحدنا الأم وحدها هى الجديرة بفهمك وأنا متأكدة من أن رأى أمها سيكون مثل رأى».جلسنا جميعاً حول المائدة الحديدية .كنت أود ألا أفكر فى ساعات القلق التى سأقضيها وحيداً فى غرفتى ، هذا المساء ، بدون أن أتمكن من النوم .كنت أحاول أن أقنع نفسى بأنها غير ذات أهمية ، مادمت سأنساها صباح غد، وأتعلق بأفكار مستقبلة يجب أن تقودنى إلى شىء أشبه بالجسر وراء الهوة القادمة التى تخيفنى .لكن يستعصى على أى إحساس غريب النفاذ إلى ذهنى المتوتر ، نتيجة لهذا القلق الذى أصبح محدبا كالنظرة التى أصوبها إلى أمى. كانت الخواطر تدخل فيه، لكن بشرط أن تترك خارجه أى عنصر جمالى أو فكاهى يمكن أن يؤثر فى أويلهيبى. وكما يشهد المريض بفضل التخدير العملية التى تجرى له وهو فى كامل وعيه ولا يشعر بشىء، كنت أستطيع أن أردد أبياتا أحبها أو ألاحظ الجهد الذى يبذله جدى ليحدث سوان عن الدوق دو ديفريه ـ باسكييه، وكانت الأبيات لا تثير فى أى انفعال ، ولا يثير جهد جدى فى أى مرح . لم تسفر هذه الجهود عن شىء ولم يكد جدى يوجه إلى سوان سؤالا خاصاً بهذا الخطيب حتى قالت إحدى أختى جدتى إلى الأخرى ، وكان هذا السؤال قد رن فى أذنيها كصمت عميق مفاجئ يتطلب الأدب قطعه : «تصورى يا سيلين أنى تعرفت بمعلمة سويدية شابة أعطتنى تفاصيل هامة للغاية عن التعاونيات فى البلاد الإسكندنافية . يجب أن تحضر لتناول العشاء معنا ذات مساء . » فردت أختها فلورا قائلة «طبعا ولم أضيع الوقت أنا الأخرى .فلقد التقيت عند مسيو فانتوى بعالم عجوز يعرف الكثير عن موبون ، وشرح له موبون بما يلزم من التفاصيل الطريقة التى يؤدى بها دوره. إنه أمر مثير جداً للاهتمام .فهو جار مسيو فانتوى ، وكنت لا أعرف ذلك . فضلا عن أنه لطيف للغاية ».فصاحت عمتى سيلين قائلة «مسيو فانتوى ليس بالشخص الوحيد الذى ينعم بجيران على قدر من اللطف» .قالت ذلك بصوت جعله الخجل قوياً وجعله التعمد مصطنعاً ، فى الوقت الذى صوبت فيه إلى سوان نظرة لها دلالتها، على حد قولها. وفى الوقت نفسه، كانت العمة فلورا قد فهمت أن سيلين توجه هذه الجملة إلى سوان لتشكره على نبيذ آستى ، فصوبت هى الأخرى إلى سوان نظرة إمتزج فيها الأمتنان بالسخرية ،إما لكى تؤكد ملحة أختها،إما لكى تحسد سوان على إنه أوحى بها ، إما لأنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من السخرية منه لأنها ظنته متهما .فاستطردت قائلة« أعتقد أننا سنتمكن من دعوة هذا السيد على العشاء .عندما يطلب منه الحديث عن موبون أو مدام ماتيرنا ، يتحدث ساعات بلا توقف» فتنهد جدى وقال :«إنه لشىء ممتع بلاشك » .لسوء الحظ ، كانت الطبيعة قد نسيت أن تضع فى ذهنه إمكانية الاهتمام البالغ بالتعاونيات السويدية أو أداء موبون لدوره، بنفس القدر الذى نسيت به أن تضع فى ذهن أختى جدتى اللمسة الخفيفة التى يجب أن يضيفها المرء إلى حديثه عن حياة

موليه أو الكونت مذى يلرى الخاصة ، لكى يكون له طعما » فقال سوان بجدى : « ما سأقوله لك له علاقة بما طلبته منى ، أكثر مما يبدو ، لأن الأمور لم تتغير كثيراً فى بعض النقاط . قرأت هذا الصباح فى كتاب لسان سيمون شيئاً ، كان أن يشد انتباهك لما قرأته فى المجلد الخاص بمهمته فى أسبانيا ، وهو ليس من أفضل أعماله ، فهو مجرد جريدة ، لكنها مكتوبة بطريقة رائعة على الأقل ، وهذا أول فرق بينها وبين الجرائد المملة التى نقرأها مضطرين — أو هكذا نظن — صباحاً ومساء . » وقاطعته عمتى فلورا وقالت : « أختلف معك فى هذا الرأى . فهناك أيام يبدو لى فيها أن قراءة الجرائد أمر مستحب جداً . . . » قالت ذلك لتثبت أنها قرأت فى « الفيجارو » الحملة الخاصة بلوحة سوان التى رسمها كورو . وزايدت سيلين بقولها : « عندما تتحدث هذه الجرائد عن أناس أو أشياء تهمنا » . ورد سوان مندهشا : « أنا متفق معكما ، لكن ما أعيبه على الصحف هو أنها تلفت نظرنا كل يوم إلى أشياء تافهة ، بينما نقرأ ثلاث أو أربع مرات فى حياتنا الكتب التى توجد فيها أشياء جوهرية . طالما أننا نقرأ الجرائد كل صباح باهتمام بالغ ، يجب أن تتغير الأمور وأن نضمنها . . . لا أدرى . . . ربما « خواطر » بسكال : (قال هذه الجملة بلهجة خطابية ساخرة لكى لا يبدو متحذلقا) » وأضاف ، وقد بدا عليه ذلك الاحتقار المفتعل الذى يتظاهر به رجال المجتمع : « وقد نقرأ فى المجلد المذهب الذى لا نفتحه إلا كل عشر سنوات أن ملكة اليونان قد ذهبت إلى كان أو أن أميرة ليون قد أقامت حفلة تنكرية . هكذا يعود التوازن العادل . » ثم قال ساخرا وهو يأسف لأنه نسى نفسه وتحدث باستخفاف عن بعض الأمور الجادة : « حديثنا جميل ، ولا أدرى لماذا نتطرق إلى هذه القمم » . . . ثم التفت إلى جدى وقال : « يروى سان سيمون عن مولفرييه أنه تجرأ ومد يده لأبنائه . ومولفرييه هو ذلك الشخص الذى قال عنه : « لم أر أبداً فى هذه الزجاجة السميكة إلا التقلب والفظاظة والحماقة » .

قالت فلورا فورا ، وهى تحرص على أن تشكر سوان أيضاً على نبيذ آستى الذى قدمه هدية لها ولأختها : « سواء كانت سميكة أم لا ، أعرف زجاجات يوجد فيها شىء مختلف تماماً . » ضحكت سيلين ، واستطرد سوان قائلا وفى نبرته شىء من الحيرة : « لا أدرى ما إذا كان ذلك جهلا أم شركا — هذا ما كتبه سان سيمون — ، لكنه أراد أن يصافح أولادى . وتداركت الأمر فى الوقت المناسب ومنعته من ذلك . » أعجب جدى بعبارة « جهل أم شرك » ، لكن الآنسة سيلين غضبت ، وكان اسم سان سيمون — المتأدب فى نظرها — قد حال دون تخدير قدرتها على السمع تخديراً تاماً ، فقالت وهى غاضبة : « ماذا ؟ أتعجب بشىء كهذا ؟ حسن . حسن جداً ! لكن ، ما معنى هذا ؟

ألا يتساوى البشر؟ ما أهمية أن يكون الإنسان دوقاً أو عريفاً ما دام ذكياً كبير القلب ؟ يا لها من طريقة جميلة تلك التي كان سان سيمون الذي تعجب به يربي بها أولاده ! لم يأمرهم بمد يدهم لكل الناس الشرفاء ! إنه لشيء بغيض . بكل بساطة ، وتجرأت وإستشهدت به ؟ » وإزاء هذا الحاجز ، إستاء جدى وأحس أنه يستحيل عليه أن يطالب مني ، سوانا ، أن يروي له تلك القصص التي تسليه ، فقال لأمي بصوت خفيض : « اذكريني ببيت الشعر الذي قلته لي ويسرى عني كثيراً في لحظات كهذه . آه ، يا إلهي ! ها هو :

« يا إلهي ! كم من الفضائل تجعلنا نكرهها ! آه ، يا إلهي ، من بيت رائع ! »

لم تفارق عيني وجه أمي . كنت أعلم أنه لن يسمح لي ، عندما نجلس حول المائدة بالبقاء طوال فترة العشاء ، وأن أمي لن تدعني أقبلها عدة مرات أمام الآخرين ، كما كانت تفعل في غرفتي ، لكي لا تغضب أبي . لذا ، كنت أستعد للأمر ونحن في غرفة الطعام ، عندما نبدأ في تناول العشاء وأشعر باقتراب الساعة ، وأفعل سلفاً من هذه القبلة التي ستكون سريعة خاطفة كل ما يمكن أن أفعله وحدي ، وأختار بعيني الخيال المكان الذي سأقبله في وجنتيها ، وأهيئ ذهني لكي أتمكن ، بفضل هذه البداية الذهنية للقبلة ، من تكريس الدقيقة التي ستمنحها لي أمي للإحساس بوجنتها تحت شفتي ، مثلي مثل الرسام الذي لا يستطيع أن يحصل إلا على لحظات قصيرة يجلس خلالها « الموديل » أمامه ، فيعد ألوانه ، ويتذكر سلفاً ، إستناداً إلى ذاكرته ، كل ما يمكنه من الاستغناء عن « الموديل » ، إذا اقتضى الأمر . لكن ، ها هو ذا جدي يقول بقسوة لا شعورية ، قبل أن يدعو القوم إلى العشاء : « يبدو الصغير متعباً ، ويجب أن يصعد إلى غرفته لينام ، علاوة على أننا سنتناول العشاء في ساعة متأخرة هذا المساء » . قال أبي ، وكان لا يؤمن إيماناً عميقاً بالمعاهدات مثل أمي وجدتي : « اذهب للنوم » . أردت أن أقبل والدتي . عندئذ ، رن جرس العشاء : « هيا ، دع والدتك ، لقد سبيت عليها بما فيه الكفاية . والتعبير عن العواطف على هذا النحو شيء سخيف هيا ، اصعد » . واضطررت إلى الذهاب بلا زاد ، وأن أصعد كل درجة من درجات السلم « بغير نفس » كما يقولون بالعامية ، مع أن نفسي كانت تتوق إلى العودة إلى جوار والدتي لأنها لم تأذن لها بمتابعتي ، عندما قبلتني . وكانت تفوح من هذا السلم الكريه الذي أصعده دائماً وأنا حزين رائحة الدهان الذي امتص ، وثبت هذا النوع الخاص من الحزن الذي أحس به كل مساء ، بطريقة ما ، وربما زاد من قسوة هذا الإحساس ، لأن ذهني لا يستطيع أن يأخذ نصيبه منها ، نظراً لشكلها الحسي عندما ننام ، ولا ندرك ألم الأسنان إلا كما

او كان فتاة تحاول إخراجها من الماء مائتى مرة متتالية ، أو بيت شعر لموليير نسترجعه بلا توقف ، نشعر براحة كبيرة عندما نستيقظ ، ويتمكن ذهننا من تجريد فكرة ألم الأسنان من أية ملابس ، تنكرية أم بطولية كانت أو إيقاعية . لكنى كنت أشعر بشيء مختلف عن هذه الراحة ، عندما كان حزنى لصعودى إلى غرفتى يدخل فى طريقة أسرع ، تكاد تكون فورية ، مفاجئة وغادرة فى آن واحد ، نتيجة لاستنشاقى رائحة الدهان الخاصة بهذا السلم ، وهو سام أكثر من نفاذ الأشياء المعنوية . وبعد وصولى إلى غرفتى ، كان على أن أسد كل المنافذ ، وأغلق الشباك ، وأحفر قبرى بيدى ، عندما أنزع غطاء السرير ، وأرتدى كفن قميص نومى . وقبل أن أدفن نفسى فى السرير الحديدى الذى أضيف إلى غرفتى لاننى كنت أشعر بالحر فى الصيف تحت غطاء السرير الكبير ، صدرت عنى حركة تمرد ، وأردت اختبار حيلة من تلك التى يلجأ إليها المحكوم عليهم بالإعدام . كتبت لأمى رسالة أرجوها فيها أن تصعد لأمر خطير لا أستطيع أن أحدثها عنه كتابة . وكنت أخشى أن ترفض فرانسواز طاهية عمتى التى كانت تكلف برعايتى عندما أذهب إلى كومبريه حمل الرسالة إلى أمى . كنت أعلم أن تكليفها بمهمة خاصة بأمى ، فى حضور الضيوف ،أمر مستحيل فى نظرها ، كما يستحيل على بواب المسرح أن يسلم رسالة لأحد الممثلين وهو على خشبة المسرح . كانت فرانسواز تنظر إلى ما يليق وما لا يليق عمله من خلال مجموعة كبيرة من القوانين الصارمة الدقيقة التى لا تقبل الفروق التى يصعب فهمها أو تعتبر تافهة (وكان هذا يعطيها ظاهرياً شكل تلك القوانين القديمة التى كانت تقضى بقسوة بقتل الأطفال الرضع ، وتحرم برقة مبالغ فيها غلى الجدى فى لبن أمه، أو أكل عصب فخذ الحيوان) . وإذا حكمنا على هذه القوانين من خلال إصرار فرانسواز المفاجئ على عدم القيام ببعض المهام التى نكلفها بها ، أدركنا أنها توقعت ، فيما يبدو، تعقيدات اجتماعية ، وترف اجتماعى لا يمكن أن توحى بهم حياتها اليومية فى القرية، أو حياة من يحيطون بها . لذا ، كنا نضطر أن نقول لأنفسنا : إن لها ماض فرنسى قديم جداً ، آذى نبيل أسيء فهمه ، كما يحدث فى تلك المدن الصناعية التى تشهد الفنادق القديمة فيها على أنها عاشت حياة البلاط ، ويعمل فيها عمال مصانع المنتجات الكيماوية ، وسط تماثيل رقيقة تصور معجزة القديس تيوفيل أو أبناء ايمون الأربعة . وفى حالتى الخاصة كانت المادة القانونية التى لا تحتمل بمقتضاها أن تزعج فرانسواز أمى فى حضرة مسيو سوان من أجل شخص ضئيل مثلى — اللهم إلا إذا شب حريق — تعبر ببساطة عن الاحترام الذى تكنه الطاهية لا للآباء فقط — وكذلك الاحترام الذى تكنه للموتى

والقساوسة والملوك – وإنما للضيف الغريب أيضاً. ربما أثر هذا الاحترام فى إذا ورد فى كتاب ، لكنه كان يثيرنى دائماً عندما يعبر عنه لسانها ، نظراً للنبرة الحادة الحنون التى كانت تتحدث بها عنه ، لا سيما فى تلك الأمسية التى أعطت فيها للعشاء طابعاً مقدساً جعلها ترفض فكرة تعكير صفو الاحتفال به. ولكى أعطى لنفسى فرصة ، لم أتردد فى الكذب ، وقلت لها إننى لم أشأ أن أكتب رسالة إلى أمى ، لكن أمى هى التى أوصتنى ، عندما افترقنا، بألا أنسى إرسال رد بخصوص شيء طلبت منى البحث عنه ، ولا شك أنها ستغضب كثيراً إذا لم تسلم لها الرسالة . أعتقد أن فرانسواز لم تصدقنى ، لأنها كانت كأولئك البدائيين الذين تتفوق قوة حواسهم على قوة حواسنا تتبين تواً أى حقيقة نريد أن نخفيها عنها من بعض العلامات التى لا نستطيع تفسيرها . نظرت فرانسواز إلى الرسالة خمس دقائق ، كما لو كان فحص الورق والكتابة سيعطيانها فكرة عن طبيعة المضمون أو يشيران إلى المادة القانونية التى سترجع إليها . ثم خرجت مستسلمة ، ولسان حالها يقول : « يا لشقاء الأبوين اللذان رزقا بطفل كهذا ! » ، وعادت بعد لحظة لتقول لى إنهم يتناولون الجيلاتى ، وإنه يستحيل على الميتردوتيل أن يسلم أمى الرسالة أمام الجميع ، وإن كان ذلك ممكناً بعد ذلك ، عندما يصلون إلى « المضمضة » . تبدد قلقى فى الحال . الآن، تغير الأمر . فأنا لم أفارق أمى حتى الغد، ما دامت رسالتى ستغضبها بلا شك (علاوة على أن هذه الحيلة ستجعلنى أبدو سخيفاً فى نظر سوان) ، لكنها على الأقل ستجعلنى أدخل المكان الذى توجد فيه أمى بدون أن أرى ، وستحدثها عنى فى أذنها ، ما دامت قاعة الطعام المحرمة على ، المعادية ، حيث كان تناول الجيلاتى منذ لحظة ، متعة ضارة ، محزنة لدرجة القتل فى نظرى ، لأن أمى تتذوقها بعيداً عنى ، ستفتح لى ، وينطلق منها ويصل إلى قلبى النشوان اهتمام أمى وهى تقرأ سطور الرسالة ، وكأنها ثمرة ناضجة تحطم غلافها . لم أعد الآن بعيداً عنها . سقطت الحواجز ، ووصل بيننا خيط لذيذ . ولم ينته الأمر عند هذا الحد : لا شك أن أمى ستأتى بعد قليل !

فكرت فى الآتى : لو أن سوان قرأ خطابى ، وخمن الغرض منه لسخر من القلق الذى استولى على منذ قليل . لكنى ، على عكس ذلك ، علمت فيما بعد أن قلقاً مماثلا أرقه سنيناً طويلة ، وأن ما من شخص يستطيع أن يفهمنى مثله . الحب هو الذى جعله يعرف هذا القلق الذى يستولى على المرء عندما يشعر أن من يحب يستمتع فى مكان ما بدونه ، وأنه لا يستطيع أن يلحق به بطريقة ما ، قدر لهذا القلق أن يوجد من أجل

هذا الحب الذي سيحتكره ، ويخصص له . لكن ، إذا دخل هذا القلق فينا قبل أن يظهر في حياتنا ، كما حدث لي ، ظل يتردد وهو ينتظر ذلك الحب ، وظل حراً مبهماً بلا غاية محددة ، يخدم هذا الإحساس يوماً ، وذاك الإحساس يوماً آخر ، يخدم حب الأبناء لآبائهم تارة ، والصداقة بين الزملاء تارة . عرف سوان أيضاً الفرحة التي خضت بها أول تجربة لي في هذا الشأن ، عندما عادت فرانسواز وقالت لي إن خطابي سيسلم لأمي . عرف الفرحة الخداعة التي يبعثها فينا صديق المرأة التي نحب أو قريبها ، عندما نصل إلى الفندق أو المسرح الذي توجد فيه ، لحضور حفلة راقصة أو عرض مسرحي يقدم لأول مرة ، ويرانا ننتظر في الخارج ونحن يائسين فرصة الاتصال بها ويتعرف علينا ، ويبادر إلى الحديث معنا بلا كلفة ، ويسألنا عما نفعل في هذا المكان . وبما أننا نختلق شيئاً عاجلاً يجب أن نقوله لقريبته أو صديقته ، يؤكد لنا أن الأمر بسيط للغاية ، ويدعونا إلى الدخول ، ويعدنا بإرسال المرأة المقصودة بعد خمس دقائق لكم نحبه — كما أحببت فرانسواز في هذه اللحظة — الوسيط حسن النية الذي يحمل إلينا كلمة تجعلنا نحتمل الحفل الجحيمي ، بل والإنساني ، الذي لم نتخيله ، وظننا أن دوامات معادية ، ضارية ، لذيذة جذبت إليه المرأة المحبوبة ، بعيداً عنا ، وجعلتها تسخر منا . وإذا نظرنا إلى الأمر من خلال هذا الوسيط الذي اعترض طريقنا ، ويعتبر واحداً ممن وقفوا على هذه الأسرار القاسية ، وجدنا أن المدعوين الآخرين إلى الحفل يفتقرون إلى النزعة الشيطانية ، بلا شك . ها نحن ذا ننفذ بفضل ثغرة لم نتوقعها إلى الساعات البعيدة المؤلمة التي كانت المحبوبة ستتذوق فيها متعاً مجهولة . ها هي ذي لحظة من اللحظات التي كان يمكن أن تتكون من تتابعها تلك الساعات ، لحظة حقيقية كاللحظات الأخرى وربما كانت أهم بالنسبة لنا ، لأن المحبوبة مرتبطة بها ، لحظة نتصورها ونملكها ، ونتدخل فيها ، بل نكاد نخلقها ، لحظة سيقال للمحبوبة فيها إننا ننتظرها . لا شك أن لحظات الحفل الأخرى لا تختلف كثيراً في جوهرها عن هذه اللحظة ، وأنها لا تشتمل على شيء يشيع فينا المتعة والعذاب أكثر من قول الصديق اللطيف لنا : « يسرها أن تنزل وتستقبلك . لا شك أنها ستستمتع بالحديث معك أكثر من شعورها بالملل في الطابق العلوي ! » وا أسفاه ، خاض سوان تجربة كهذه . فنوايا الطرف الثالث الحسنة لا تؤثر على امرأة تشعر بالضيق لأن شخصاً لا تحبه يلاحقها ، حتى في الحفلات . وكثيراً ما يهبط الصديق الدرج بمفرده .

لم تحضر والدتي ، ولم تراع كبريائي (وكان مرتبطاً ومتوقفاً على عدم تكذيبها لقصة البحث الذي كان من المفروض أن أبلغها بنتيجته) ، وكلفت فرانسواز بأن

تقول لى : « لا يواجة وداع » كثيراً ما سمعت بعد ذلك تلك الجملة من بوابى القصور أو خدام البيوت المشبوهة ، سمعتهم ينقلونها إلى بنات الهوى المبتدئات اللاتى يدهشن ويقلن : « كيف ؟ ألم يقل شيئاً ؟ مستحيل ! مع أنك سلمت الرسالة ، حسن ، سأنتظر » وكما يؤكدن أنهن لا يحتجن إلى نور المصباح الإضافى الذى يريد البواب أن يشعله لهن ، ويبقين فى مكانهن ، ولا يستمعن إلا إلى كلمات قليلة عن الجو يتبادلها البواب وخادم يرسل فجأة ، وينظر إلى الساعة ، ليضع شراب أحد النزلاء فى الثلج ، رفضت ما عرضته فرانسواز على ، رفضت أن تعد لى شراباً ساخناً أو تبقى بجوارى ، ولم أعترض على عودتها إلى المطبخ ، ورقدت وأغمضت عينى وأنا أحاول ألا أسمع صوت أقاربى وهم يشربون القهوة فى الحديقة . وبعد بضع ثوان ، أحسست أنى بددت إمكانية النوم قبل أن أرى أمى ثانية ، عندما كتبت لها رسالتى ، واقتربت منها ، وعرضت نفسى لغضبها ، لدرجة أنى ظننت أنى بلغت اللحظة التى أراها فيها ثانية . وكانت دقات قلبى تزداد ألماً بين لحظة وأخرى ، لأن اضطرابى كان يزداد كلما نصحت نفسى بالتزام الهدوء ، أى بقبول سوء حظى . وفجأة ، زال قلقى واجتاحتنى سعادة تشبه تلك التى نشعر بها عندما يسرى مفعول دواء ناجع فينا ويزيل ألمنا : قررت توا ألا أحاول النوم إلا بعد رؤية أمى مرة أخرى ، وتقبيلها بأى ثمن ، وإن كنت متأكداً من أنها ستغضب منى بعد ذلك لفترة طويلة ، عندما تصعد إلى غرفة نومها . كان الهدوء الناتج عن قلقى المنتهى يشيع فى فرحاً خارقاً للعادة ، لا يقل عن الانتظار ، والعطش ، والخوف من الخطر . فتحت النافذة بدون أن أحدث صوتاً ، وجلست على الأرض بجوار سريرى . لم تصدر عنى أى حركة تقريباً ، حتى لا يسمعنى أحد ممن فى الحديقة . وفى الخارج ، بدت الأشياء ساكنة أيضاً ، وحريصة على ألا تعكر صفو ضوء القمر . كان ضوء القمر قد ضاعف كل شىء وأبعده — لأنه مد ظله أمامه ، والظل أكثر ثقلا وواقعية من الشىء نفسه — وجعل المنظر الطبيعى يضيق ، ويتسع فى آن واحد ، كأنه مساحة كانت منطوية ثم بسطت . تحرك مثلا ما كان يحتاج إلى حركة أوراق الكستناء ، لكن رجفته الرقيقة ، بفروقها الدقيقة ورقتها المتناهية ، لم تطغ على ما تبقى ، ولم تذب معه ، وظلت واضحة الحدود . وإذ كانت تعرض فى هذا الصمت الذى لا يمتص منها شيئاً ، كانت أبعد الأصوات الآتية بلا شك من الحدائق الواقعة فى الطرف الآخر من المدينة ، تسمع مفصلة بحيث تبدو وكأنها لا تدين بأثرها البعيد إلا لنغماتها ، مثلها فى ذلك مثل الموتيفات الخافتة التى يعزفها أوركسترا الكونسرفتوار بإتقان يجعلنا لا نفقد نغمة واحدة منها ، ونعتقد مع ذلك أننا نسمعها

بعيداً عن قاعة العزف، وأن كل أصحاب الاشتراكات القدامى ينصتون إليها كما لو كانوا يسمعون جيشاً بعيداً يتقدم، ولم يصل بعد إلى منعطف شارع تريفيز .

كنت أعرف أن الوضع الذى وضعت نفسى فيه هو الوضع الوحيد الذى يمكن أن تترتب عليه أخطر النتائج ، بالنسبة لى ، من ناحية والدى . وكانت هذه النتائج أخطر فى الواقع بكثير مما قد يظن الشخص الغريب ، وربما ظن أن الأخطاء المخجلة حقاً هى الوحيدة التى يمكن أن تؤدى إليها . لكن ترتيب الأخطاء ، فى الطريقة التى تربيت بها ، يختلف عن ترتيبها فى الطرق التى تربى بها الأطفال الآخرين . وكنت قد اعتدت أن أضع قبل كافة الأخطاء الأخرى (ربما لأنه لا توجد أخطاء أخرى يجب أن أحترس منها أكثر) ، تلك التى فهمت الآن أن سمتها المشتركة هى الوقوع فيها نتيجة للاستسلام للاندفاع العصبى . آنذاك، كان لا ينطق أحد بهذه الكلمة ، أو يعلن عن مصدرها، لأننى قد أعتقد أننى معذور فى استسلامى لهذا الاندفاع أو عاجز عن مقاومته . لكنى كنت أعرف هذه الأخطاء جيداً من القلق الذى يسبقها، والعقاب الصارم الذى يليها ، وأعرف أن الخطأ الذى وقعت فيه منذ قليل ينتمى إلى مجموعة الأخطاء التى سبق أن عوقبت عليها عقاباً قاسياً ، وإن كان أخطر بكثير . إذا وقفت فى الطريق الذى تسلكه أمى وهى صاعدة إلى غرفتها ، وإذا رأت أننى لم أنم لأقول لها مرة أخرى مساء الخير فى الممر، لن أبقى فى المنزل ، وسيقودوننى إلى المدرسة فى اليوم التالى . هذا أكيد ! حسن ! أفضل ذلك ، حتى لو ألقيت بنفسى من النافذة بعده بخمس دقائق ! إن ما أريده الآن هو أمى ، أريد أن أقول لها : مساء الخير . وكنت قد قطعت فى الطريق المؤدية إلى هذه الرغبة شوطاً كبيراً تستحيل معه العودة إلى الوراء .

سمعت خطوات والدى وهما يصحبان سوان . وذهبت إلى النافذة ، عندما أدركت من جرس الباب أنه ذاهب . سألت أمى أبى عما إذا كان « الحمبرى » طيباً ، فى نظره ، وعما إذا كان سوان قد أخذ جيلاتى بالقهوة والفستق مرة أخرى . قالت أمى : « فى رأيى أن الجيلاتى كان عاديا للغاية ، وأعتقد أنه يجب أن نختار صنفاً آخر فى المرة القادمة » . وكانت عمتى الكبرى قد اعتادت أن ترى فى سوان فتى مراهقاً لدرجة أنها دهشت عندما وجدت فجأة أنه أكبر من السن الذى أعطته له . علاوة على ذلك ، كان والدى يريان أن هذه السن الكبيرة غير عادية ، ومبالغ فيها ، ومخجلة، لا يستحقها إلا غير المتزوجين ، وكل الذين يخيل اليهم أن اليوم الذى لا غد له أطول

مما يرى الآخرون ، لأنه فارغ ، ولأن بعض لحظاته يضاف إلى البعض الآخر ، منذ الصباح ، ولا يقسم بين الأبناء . « أعتقد أن همومه كثيرة مع زوجته اللعوب التى تعيش تحت سمع وبصر كومبريه كلها مع شخص يدعى مسيو شارلوس ، وأصبحت سيرتها على كل لسان » . لكن أمى لاحظت أنه يبدو أقل حزناً فى الآونة الأخيرة . « كما أنه قلل من تلك الحركة التى ورثها عن أبيه ، أن يمسح عينيه ويمرر يده على جبينه . أعتقد أنه لم يعد يحب تلك المرأة ، فى قرارة نفسه . » ورد جدى قائلا : « لم يعد يحبها طبعاً ، لقد تلقيت منه رسالة فى هذا الشأن ، من مدة طويلة ، وسارعت إلى عدم تصديقها ، وهى لا تدع أدنى مجال للشك فى عواطفه ، أو حبه لزوجته على الأقل » . وأضاف وهو يلتفت إلى أختى زوجته : « أرأيتما أنكما لم تقدما الشكر له على النبيذ ؟ »

فردت العمة فلورا : « كيف تقول إننا لم نشكره ؟ بينى وبينك ، أعتقد أننى فعلت ذلك بطريقة رقيقة وغير مباشرة » . وقالت العمة سيلين : « أجل ، لقد فعلت ذلك ببراعة ، وأنا معجبة بك . » — « لكنك كنت رائعة ، أنت أيضاً ، » — « نعم ، كنت فخورة إلى حد ما بالجملة التى قلتها عن الجيران اللطاف » . وصاح جدى : « أتسمون هذا شكراً ؟ صحيح أننى سمعت ذلك ، لكنى لم أفهم والله أنه موجه إلى سوان ، وتأكدوا أنه لم يفهم منه شيئاً . » — « لكن سوان ليس غبياً ، وأنا متأكدة أنه قدر الأمر ، ولم يكن فى استطاعتى ذكر عدد الزجاجات وثمن النبيذ . » . ظل أبى وأمى وحدهما ، وجلسا لحظة ، ثم قال والدى : « حسن ، سنصعد للنوم ، إذا شئت » — « إذا شئت يا صديقى ، وإن كنت لا أشعر بحاجة إلى النوم ، ولا أظن أن جيلاتى القهوة الذى كان عادياً للغاية هو السبب فى بقائى مستيقظة حتى الآن . لكنى ألمح نوراً فى المطبخ . وما دامت فرانسواز المسكينة قد انتظرتنى سأطلب منها فك صدريتى بينما تذهب أنت وتخلع ملابسك » . وفتحت أمى باب الممر المعرش للذى يفضى إلى السلم . وسرعان ما سمعتها تصعد ، وتغلق نافذتها . ذهبت إلى الممر بدون أن أحدث صوتاً ، وكان قلبى يدق بقوة لدرجة أننى كنت أتقدم بصعوبة . لكنه لم يكن يدق لفرط القلق على الأقل ، بل لفرط الفرح والخوف . ورأيت فى بئر السلم النور الذى تعكسه الشمعة التى تمسك بها أمى . ثم رأيتها هى ، وانطلقت نحوها . فنظرت إلى بدهشة ، لأول وهلة ، لأنها لا تفهم ما حدث ، ثم ارتسم على وجهها تعبير غاضب ، ولم تقل لى كلمة واحدة . وكان الكلام لا يوجه إلى لأيام عدة ، لأسباب أقل خطورة من هذا السبب بكثير . لو أن أمى قالت لى كلمة واحدة ، لكان معنى ذلك أنها تسلم بامكانية الحديث إلى ؛ وربما رأيت فى ذلك شيئاً أفظع ، ودليلا على أن الصمت ،

والخصام تضرب من السذاجة بالمقارنة بخطورة العقاب الذي يعد لي. قد تكون الكلمة بمثابة الحلوى التي نزدريه على خادم قررنا أن نطرده فوراً، أو القبلة التي نطبعها على جبين الابن الذي نرسله للتطوع في حين كان يمكن أن نرفض إعطاءها له، إذا كان علينا أن نكتفي بالغضب منه يومين. لكنني سمعت أبي يصعد من الحمام حيث ذهب لخلع ملابسه، ولكي تتجنب توبيخه لي، قالت لي بطريقة غاضبة: «اهرب، اهرب، لكي لا يراك أبوك على هذه الحال وأنت تنتظر كالمجنون». لكنني كررت قولي لها: «تعالي وقولي لي: مساء الخير». وأنا خائف إذ رأيت أضواء شمعة أبي ترتفع على الحائط. واستخدمت اقترابه منا كوسيلة للمساومة، آملاً في أن تقول لي: «اذهب إلى غرفتك، وسآتي لاحقاً» لكي لا يجدنا أبي هنا. لكن فات الأوان، ها هو ذا أبي أمامنا. دون أن أدري همست بهذه الكلمات التي لم يسمعها أحد: «لقد ضعت!...»

لكن الأمور لم تسر على هذا النحو. كان أبي يرفض باستمرار أشياء سمحت لي بها أمي وجدتي بموجب اتفاقيات عقدتاها معي، لأنه لا يأبه «بالمبادئ» ولا يعترف «بالقانون الدولي العام». وكان يحرمني في آخر لحظة من النزهة المعتادة المقدسة للدرجة أن حرماني منها كان يعني التحنيث بالقسم، لأي سبب محتمل، أو حتى بلا سبب، أو يفعل ما فعله هذا المساء، ويقول لي قبل الساعة المعتادة بكثير: «هيا، اذهب للنوم» بدون إبداء أسباب. ولأنه كان أيضاً بلا مبادئ (بالمعنى الذي تعطيه جدتي لهذه الكلمة)، كان يفتقر إلى العناد الحقيقي. نظر إليَّ لحظة بنظرة مندهشة غاضبة. ولم تكد أمي تشرح له ما حدث ببضع كلمات حائرة حتى قال لها: «اذهبي معه إذن، ما دمت تقولين إنك لا تشعرين بحاجة إلى النوم. ابقي قليلاً في غرفته، فأنا لا أحتاج إلى شيء». وردت أمي قائلة بنبرة خجول: «لكن حاجتي إلى النوم يا صديقي، أو عدم حاجتي إليه لا يغيران من الأمر شيئاً. لا ينبغي تعويد هذا الطفل...». قال أبي وهو يهز كتفيه: «لكن الأمر لا يتعلق بالتعود. ألا ترين أن هذا الصغير يشعر بالحزن؟ هذا الطفل حزين، ولسنا جلادين، وماذا تكسبين إذا تسببت في مرضه؟ ما دام في غرفته سريران، اطلبي من فرانسواز إعداد السرير الكبير لك ونامي هذه الليلة بجواره. هيا، تصبحين على خير، وسآوي إلى فراشي الآن. [illegible]

مستحيل أن أشكر أبي ، ولو أنني فعلت لضايقته بما يسميه « حساسية زائفة » . لم أجرؤ على إتيان أية حركة . كان أبي لا يزال أمامنا ، طويل القامة في قميص نومه الأبيض . وكان يلف رأسه بقطعة من قماش الكشمير الهندية ، وردية وبنفسجية اللون ، منذ أن أصيب بألم عصبي . وكانت حركته تشبه حركة إبراهيم في الصورة المنقولة عن لوحة بنوزو جوزولي التي أعطاها لي مسيو سوان ، ويقول فيها إبراهيم لسارة إن عليها أن تفارق إسحق . حدث ذلك من سنين عديدة . لم يعد هناك وجود لحائط السلم الذي رأيت ضوء شمعة أبي يصعد فيه . وتهدمت ، في أنا أيضاً ، أشياء كثيرة ظننتها خالدة ، وبنيت أشياء أخرى نتجت عن أفراح وأحزان جديدة لم أكن أتوقعها آنذاك . كما أن فهم الأشياء الجديدة أصبح مستعصياً علي . من مدة طويلة أيضاً ، لم يتمكن أبي من أن يقول لأمي : « اذهبي مع الصغير » . ليس من المحتمل أن تبعث ساعات كهذه أمامي . لكني بدأت أسمع جيداً ، منذ فترة وجيزة ، إذا ما أنصت ، النحيب الذي تشجعت وكتمته أمام أبي ، النحيب الذي لم ينطلق إلا عندما انفردت بأمي . لم ينقطع هذا النحيب أبداً في الواقع . وإذا كنت أسمعه من جديد ، فلأن صمت الحياة يزداد الآن من حولي ، كذلك تفعل أجراس الأديرة التي يطغى عليها ضجيج المدينة أثناء النهار لدرجة أننا نظنها معطلة ، لكنها تعود إلى الرنين في صمت المساء .

أمضت أمي هذه الليلة في غرفتي . وفي اللحظة التي ارتكبت فيها خطأ من الجسامة بحيث توقعت أنني سأضطر إلى مغادرة المنزل ، منحني والداي ما يفوق ما كانا يمنحانه لي على فعل الحسن . ولكن مسلك أبي حيالي احتفظ بصفة التعسف واللوم اللذين اتسم بهما ، حتى في اللحظة التي بدا فيها لطيفاً ، وكان سلوكه هذا يصدر بصفة عامة عن نزوة عابرة أكثر مما يرجع إلى خطة متعمدة . وربما كان ما أسميته تشدداً ، عندما كان يبعث بي إلى غرفة النوم ، أقل استحقاقاً لهذه التسمية من تشدد أمي أو جدتي ، لأن طبيعة أبي التي كانت تختلف في بعض النقاط عن طبيعتي أكثر مما تختلف عن طبيعتهما ، لم تحدس ربما ، حتى الآن مدى شقائي كل مساء ، في حين تعرف أمي وجدتي ذلك حق المعرفة . لكن حبهما لي كان يكفي لمنعهما من إعفائي من هذا العذاب ، وكانتا تريدان مني أن أتعلم كيف أسيطر عليه لكي تقل حساسيتي العصبية وتقوى إرادتي . أما أبي الذي كان يشعر نحوي بحب من نوع آخر ، فلا أدري ما إذا كانت لديه شجاعة كهذه . لقد قال لأمي ، في المرة الوحيدة التي أدرك فيها أنني حزين : « اذهبي إذن للتسرية عنه » .

بقيت أمي في غرفتي في تلك الليلة ، ولكي لا يشوب أي ندم هذه الساعات المختلفة عما كنت آمل فيه ، وعندما فهمت فرانسواز أن ثمة شيء غير مألوف قد حدث عندما رأت أمي جالسة بجواري ، تمسك بيدي، وتدعني أبكي بدون أن توبخني ، سألت أمي : « لم يبكي السيد هكذا يا سيدتي ؟ » فردت أمي قائلة : « لا يعرف هو نفسه سبب بكائه يا فرانسواز ! إنه ثائر الأعصاب. أعدي السرير الكبير بسرعة ، واصعدي لتنامي». لأول مرة ، لم يعتبر حزني خطأ يستوجب العقاب ، وإنما ألما لا إرادياً تم الاعتراف به رسمياً منذ قليل ، اعتبر حالة عصبية لست مسئولا عنها . وشعرت بالارتياح لأنني لن اضطر بعد الآن إلى مزج مرارة الدمع بالوساوس . استطيع الآن أن أبكي بلا خطيئة . ولم أشعر بكثير من الفخر أمام فرانسواز لعودة الأمور إلى طابعها الإنساني على هذا النحو . فبعد ساعة من رفض أمي الصعود إلى غرفتي ، ومن ردها على باحتقار بأنه يجب أن أنام ، رفعتني هذه العودة إلى مستوى الكبار ، وجعلتني أصل فجأة إلى نوع من الألم البالغ ، والدمع المحرر . كان يجب أن أكون سعيداً ، ولم أكن سعيداً وخيل إلى أن أمي قدمت لي تواً تنازلا آلمها كثيراً ، أول تنازل بلا شك ، وأنها تخلت لأول مرة عن المثل التي وضعتها لي ، وأنها اعترفت بهزيمتها لأول مرة ، وهي في غاية الشجاعة . خيل إلى ان الانتصار الذي أحرزته منذ قليل انتصار عليها ، وأنني توصلت إلى تليين إرادتها الصلبة وإمالة عقلها ، كما يفعل المرض ، والحزن ، والسن ، وأن هذه الأمسية بدأت عهداً جديداً وأنها ستبقى كذكرى حزينة . لو واتتني الجرأة الآن لقلت لأمي : « لا أريد أن تنامي هنا »، لكني كنت أعرف الحكمة العملية ، أو الواقعية كما قد يقال اليوم ، التي تخفف عند أمي من حدة مثالية جدتي . كنت أعرف أنها تفضل على الأقل أن أتذوق هذه المتعة المهدئة وألا أزعج أبي، ما دامت «الفأس قد وقعت في الرأس» . كان وجه أمي الجميل لا يزال ينبض بالشباب في تلك الأمسية التي أمسكت فيها راحتي بهدوء وحاولت أن تكفكف دمعي . وخيل إلى بالذات أن هذا لا ينبغي أن يحدث . لو أنها ثارت ، لأحزنتني ثورتها أقل من هذه الرقة الجديدة التي لم تعرفها طفولتي . خيل إلى أنني رسمت لتوى بيد كافرة خفية أولى التجاعيد على نفس أمي، وأنني أظهرت فيها أول شعرة بيضاء. زاد هذا الخاطر من نحيبي . وعندئذ، رأيت أمي التي لا تستسلم أبداً للعطف علي ، تستسلم فجأة لما اشعر به، وتحاول أن تمنع نفسها من البكاء . وعندما شعرت أنني ادركت ذلك ، قالت لي وهي تضحك : « ها هو ذا حبيبي الصغير ، عصفوري الصغير ، يحاول أن يجعل أمه حمقاء مثله ، إذا دام هذا الحال . هيه ؟ ما دمت لا تشعر بحاجة إلى النوم ، وما دامت أمك لا تشعر

بحاجة إليه أيضاً ، دعنا من إثارة الأعصاب ، ولنفعل شيئاً ! لنأخذ كتاباً من كتبك » .
لم تكن عندى كتب فى الغرفة . « هل تقلمتعتك إذا أخرجت الآن الكتب التى كانت جدتك تنوى تقديمها لك ، بمناسبة عيد ميلادك؟ فكر جيداً . ألن تشعر بخيبة أمل إذا لم يقدم لك شيء بعد غد ؟ » كنت ، على عكس ذلك، مسروراً للغاية ! ذهبت أمى وأحضرت مجموعة منالكتب لم أستطع أن أتبين ، من خلال الورق الذى يغلفها ، إلا قطعها الصغير العريض ! وحجبت الكتب، بشكلها المبدئى هذا ، وبالرغم من غموضه ، علبة الألوان التى قدمت هدية لى فى رأس السنة، ودود القز الذى قدم لى فى العام الماضى . كانت هذه الكتب تحمل العناوين الآتية : « بحيرة الشيطان » ، أو « « فرانسوا لى شامبى » ، و « فاديت الصغيرة »، و « قارعى الأجراس » . علمت بعد ذلك أن جدتى كانت قد اختارت لى ، بدلا من هذه الكتب ، قصائد موسيه ، وكتاباً لروسو ، و « انديانا » . وإذا كانت الكتب التافهة مضرة ، فى رأيها ، كالملبس والحلوى ، فلقدكانت ترى أن نفحات العبقرية يمكن أن تترك فى العقل ، حتى لو كان عقل طفل، أثراً أخطر وأقل إنعاشاً من أثر الهواء الطلق وهواء البحر على الجسم . وعندما كاد أبى يصفها بالجنون، لما علم أنها تنوى أن تهدى لى كتباً كهذه ، عادت بنفسها إلى صاحب المكتبة، فى جوى — لى — فيكونت ، لتتمكن من تقديم هدية لى (حدث ذلك فى يوم حارق ، عادت فيه وهى متعبة لدرجة أن الطبيب نبه أمى إلى ضرورة تجنيبها مثلهذا العناء) ،واختارت روايات جورج صاند الأربعة التى تدور أحداثها فى الحقول ، وقالت لأمى « يا ابنتى ، لايمكن أن أقدم لهذا الصغير شيئاً مكتوباً بأسلوب ردئ ! »

كانت جدتى ، فى الواقع، لا تستسلم أبداً لشراءشىء لا يمكن الاستفادة منه ثقافياً ، لاسيا إذا كانت الفائدة هى تلك التى تمنحها لنا الأشياء الجميلةعندما تعلمنا كيف نبحث عن المتعة فى مجالات مختلفة عن إشباع حاجتنا إلى الرفاهية والغرور . حتى عندما كانت تضطر إلى تقديم هدية نافعة، كما يقال ، عندما كانت تضطر إلى تقديم كرسى ، أو عصا ، أو أدوات مائدة ، كانت تسعى إلى أن تكون هذه الأشياء« قديمة »، وكأن استخدامها لمدة طويلة قد أزال عنها طابعها النفعى ، وجعلها بالتالى مستعدة لأن تروى لنا قصة حياة من عاشوا فيما مضى ، أكثر من تلبية احتياجات حياتنا نحن. كانت تود أن توجد فى غرفتى صور بعض المبانى الأثرية أو المناظر الطبيعية الجميلة . لكنها كانت ترى ، فى اللحظة التى تقدم فيها على شرائها، وبالرغم من أن الشيء المصور له قيمة جمالية، أن الابتذال والفائدة يستعيدان بسرعة مكانهما فى طريقة التصوير

الآلية ، وتقصد بها الفوتوغرافيا. كانت تحاول أن تتحايل وتمحو الابتذال التجارى تماماً ، أو تحد منه على الأقل ، وتستبدله بالفن ، ما أمكن. كانت تحاول أن تدخل فيه عدة « طبقات » فنية . فبدلا من أن تختار صوراً لكاتدرائية شارتر ، أو مياه سان كلو ، أو الفيزوف ، كانت تسأل سوان عما إذا كان رسام كبير قد صورهم . كانت تفضل أن تقدم صوراً لكاتدرائية شارتر كما رسمها كورو ، ومياه سان كلو كما رسمها هوبير روبير ، والفيزوف كما صوره تيرنز ، وكان كل هذا بمثابة درجة فنية أعلى. وإذا كان المصور قد استبعد من تصوير العمل الفنى أو الطبيعة وحل محله فنان كبير ، كان يسترد حقه فى نقل الأداء التصويرى . كانت جدتى تحاول أن تؤخر الابتذال ما أمكن ، عندما تحين ساعة الوصول إليه. كانت تسأل سوان عما إذا كان العمل الفنى حفراً . وكانت تفضل ، ما أمكنها ذلك ، الصور القديمة التى احتفظت بأهمية تتجاوزها ، على سبيل المثال ، تلك التى تصور الروائع تصويراً لا نستطيع أن نراه اليوم (مثال ذلك حفر « العشاء الأخير » الذى رسمه ليونارد قبل أن يصاب بالتدهور على يد مورجن) .

ولا بد أن نقول إن نتائج هذه الطريقة التى كانت تفهم بها فن تقديم الهدية لم تكن باهرة دائماً . فالفكرة التى كونتها عن فينيسيا ، استناداً إلى رسم تيسيان ، والمفروض أن البحيرة الشاطئية خلفية له ، كانت أقل دقة بالتأكيد من الفكرة التى كان يمكن أن تتكون لدى من الصور البسيطة. كنا نعجز عن إحصاء الحالات ، عندما تحاول عمتى الكبرى توجيه قرار اتهام لجدتى. كانت تتهمها بأنها أهدت خطيبين أو زوجين عجوزين مقاعد انهارت فوراً تحت ثقل أول من جلس عليها ، فى أول محاولة لاستخدامها. كانت ترى أن الاهتمام بمتانة النجارة ، إذا كنا نستطيع أن نتبين فى قطعة الخشب زهرة صغيرة ، أو ابتسامة ، أو تصوراً جميلا للماضى ، أمر تافه . حتى ما كان يلبى حاجة معينة ، فى قطع الأثاث هذه ، كان يلبيها بطريقة لم نعتدها. وكان يسحر جدتى بالتالى ، كما تسحرها طرق القول القديمة التى نرى فيها استعارة أزالتها العادة ، فى لغتنا الحديثة . وروايات جورج صاند التى كانت تنوى أن تهديها لى بمناسبة عيدى ، كانت كقطع الأثاث القديمة ، مليئة بعبارات لم تعد تستخدم واستعادت قدرتها التصويرية ، عبارات لا نجدها اليوم إلا فى الريف . وكانت جدتى قد فضلت هذه الروايات على غيرها ، كما كان يمكن أن تستأجر ضيعة يوجد فيها برج حمام غوطى ، أو شىء من تلك الأشياء القديمة التى تخلف فى الذهن أثراً طيباً عندما تشعره بالحنين إلى رحلات مستحيلة فى الزمان .

جلست أمى بجوار سريرى، وأمسكت« فرانسوا لى شامبى». وكان لهذه الرواية، فى نظرى، شخصية متميزة وجاذبيةغامضة ، نظراً لغلافها المحمر وعنوانها الغامض. لم أكن قد قرأت روايات حقيقية بعد ، وسمعت أن جورج صاند مثال للكاتب الروائى . وهيأنى ذلك لأن أرى فى «فرانسوا لى شامبى »شيئاً ممتعاً غنى عن التعريف. فأساليب السرد التى من شأنها أن تثير الفضول أو العواطف ، وطرق التعبير التى توقظ القلق أوالحزن، ويعرف القارئ المطلع أنها قاسم مشترك بين كثير من الروايات، كانت تبدو لى، لى أنا الذى أنظر إلى أى كتاب جديد لا على أنه يشبه كتباً أخرى كثيرة ، وإنما على أنه شخص فريد يوجد فى حد ذاته » وكأنها انبثاق من جوهر « فرانسوا لى شامبى » الخاص. كنت أشعر إزاء هذه الأحداث اليومية للغاية ، والأشياء العادية للغاية ، والكلمات المتداولة للغاية ، بشىء أشبه بالنبرة الغريبة . بدأ الحدث ، وبدا لى غامضاً ، خاصة أننى كنت أحلم كثيراً آنذاك بشىء مختلف تماماً وأنا أقرأ صفحات كاملة . وكان يضاف إلى هذا الشرود أمام النص، إغفال أمى لمشاهد الحب عندما تقرأ لى بصوت عال . لذلك ، كانت كل التغييرات الغريبة التى تطرأ على موقف صاحبة الطاحونة والطفل ، ولا تفسرها إلا تطورات الحب الناشئ ، تبدو لى مصبوغة بغموض عميق ، تصورت طواعية أن مصدره بلا شك ذلك الاسم المجهول الحلو « لى شامبى » ، الذى كان يضفى على الطفل الذى يحمله صبغة حية، ارجوانية ساحرة ، لا أعرف لها كنهاً. كانت أمى لا تقرأ بأمانة أحياناً ، لكنها كانت تقرأ بطريقة رائعة المؤلفات التى تجد فيها نبرة عاطفية صادقة ، وتحترم الأداء وبساطته بصوت جميل عذب . حتى فى الحياة، عندما كان البشر — لا الأعمال الفنية — يثيرون عواطفها أو إعجابها على هذا النحو، كان من المؤثر أن تراها تستبعد باحترام من صوتها، وحركتها ، وكلماتها، المرح الذى يمكن أن يؤلم الأم التى فقدت ابناً فيما مضى ، أو ذكر احتفال أو عيد ميلاد قد يذكر العجوز بكبر سنه ، أو الكلمة الدارجة التى قد تبدو تافهة لعالم شاب . كانت أمى، عندما تقرأ نثر جورج صاند الذى تفوح منه دائماً رائحة الطيبة والسمو المعنوى الذى تعلمت أمى من جدتى اعتبارهما أسمى من أى شىء فى الحياة ، وعلمتها بعد ذلك بكثير ألا تعتبرهما أسمى من كل شىء فى الكتب ، كانت أمى تحرص على أن يخلو صوتها من الصغائر والاصطناع الذى قد يحول دون استقباله للموجة القوية ، وكانت تقدم الحنان الطبيعى، والعذوبة البالغة اللذان تتطلبهما جمل تبدو وكأنها قد كتبت لصوتها، وتدخل بأجمعها فى مجال حساسيتها إذا جاز القول . كانت تعثر مرة أخرى ، لكى تبدأها، على النبرة اللازمة، النبرة الصديقة التى سبقتها

وأملتها ولا تشير الكلمات إليها . بفضل هذه النبرة ، كانت تخفف من حدة زمن الأفعال عندما تمر بها ، وتعطى الفعل الماضى عذوبة الطيبة، وحنين الحنان ، وتوجه الجملة التى انتهت إلى الجملة التى تبدأ، وتسرع تارة وتبطئ تارة فى سير المقاطع لكى تدخلها ، بالرغم من اختلاف طولها، فى إيقاع موحد، كانت تبعث فى هذا النثر العادى للغاية نوعاً من الحياة العاطفية المستمرة .

هدأ إحساسى بالندم، واستسلمت لحلاوة هذه الليلة التى توجد أمى بجوارى فيها ، وكنت أعلم أن ليلة كهذه لا يمكن أن تتكرر، وأن أقوى رغبة يمكن أن أشعر بها فى العالم هى الاحتفاظ بأمى فى غرفتى فى تلك الساعات الليلية الحزينة ، وأن هذه — الرغبة كانت تتعارض مع ضروريات الحياة ورغبة الجميع ، بحيث لا يمكن أن يكون تحقيقها هذا المساء إلا شيئاً استثنائياً مصطنعاً. غداً ، سيعاودنى القلق ، ولن تكون أمى هنا . كنت لا أفهم قلقى، عندما يزول ، ثم أن مساء الغد لا يزال بعيداً . كنت أقول لنفسى إننى سأجد الوقت الكافى لكى آخذ الحذر، وإن كان ذلك الوقت لا يستطيع أن يأتى إلى بأى سلطة إضافية، ما دام الأمر متعلقاً بأشياء لا تتوقف على إرادتى ، وتجعلها المسافة التى لا تزال تفصل بينى وبينها قابلة للتجنب فقط، فيما يبدو .

ظللت فترة طويلة على هذا الحال ، أتذكر كومبريه عندما استيقظ فى الليل . ولم أر منها ثانية أبداً إلا هذا الشق المضيء ، المرسوم، وسط ظلمات لا تتبينها العين ، ويشبه شقاً ينيره ، ويرسمه اشتعال شهب نارية ملونة أو كشاف كهربائى ، فى مبنى ظلت أجزاؤه الأخرى غارقة فى الظلام : عند القاعدة العريضة ، إلى حد ما ، الصالون الصغير ، وقاعة الطعام ، وبداية الممر المظلم الذى سيصل عبره مسيو سوان ، سبب حزنى اللاشعورى، والبهو الذى كنت أسير فيه متجهاً إلى درجات السلم ، ذلك السلم الذى نصعده بمشقة ، وكان يمثل وحده هرماً مقطوعاً ضيقاً لا تتساوى أبعاده . وفى أعلاه ، غرفة نومى ، وفيها ممر صغير له باب زجاجى تدخل منه أمى. باختصار ، إذا نظرنا إلى كل هذا دائماً ، فى نفس الساعة وعزلناه عن كل ما يمكن أن يحيط به ، وبرز وحده فى الظلام ، وجدنا أنه الديكور اللازم بالضبط (كذلك الذى نراه فى مقدمة المسرحيات القديمة التى تعرض فى الريف) لمأساة خلعى للملابس . وكأن كومبريه كانت مكونة من طابقين يربط بينهما سلم رفيع، وكأن الساعة كانت تشير فيها دائماً إلى السابعة مساء . فى الواقع ، لو أن أحداً سألنى، لاستطعت أن أرد بقولى إن كومبريه كانت تشتمل على أشياء أخرى ، وكانت توجد فى ساعات أخرى .

لكن ، بما أن ما قد أذكره منها تقدمه لى الذاكرة الإرادية فقط ، ذاكرة العقل ، وبما أن المعلومات التى تقدمها لى هذه الذاكرة عن الماضى لا تحتفظ بشىء منه ، لم أشأ أبداً أن أفكر فى الجزء الباقى من كومبريه . كان كل هذا ميتاً فى نظرى ، فى الواقع ·

ميتاً إلى الأبد ؟ ممكن !

يوجد فى كل هذا قدر كبير من الصدفة . وتوجد صدفة أخرى ، صدفة موتنا التى لا تسمح لنا فى كثير من الأحيان بانتظار رضى الصدفة الأولى .

وهناك اعتقاد صلتى معقول جداً ، فى رأيى ، مفاده أن أرواح الذين فقدناهم تأسر فى كائن أدنى ، حيوان ، أو نبات ، أو جماد ، وتظل مفقودة بالنسبة لنا إلى أن يأتى يوم ، ولا يأتى هذا اليوم أبداً للكثيرين ، نمر فيه بجوار شجرة مثلا ، ونمتلك الشىء الذى أسر فيها . عندئذ ، ترتجف الأرواح ، وتنادينا ، ويبطل السحر حالما نتعرف عليه . وعندما نخلص الأرواح ، تنتصر على الموت ، وتعود لتعيش معنا .

كذلك الأمر بالنسبة لماضينا . عبثاً نحاول أن نذكره . وكل الجهد الذى يبذله عقلنا فى هذا الصدد لا يجدى . فالماضى يختفى خارج مجاله ومداه ، فى شىء مادى (فى الإحساس الذى يولده فينا هذا الشىء المادى) لا نحدسه . ويتوقف على الصدفة وحدها لقاؤنا أو عدم لقائنا بهذا الشىء قبل موتنا .

من سنوات عديدة ، مات كل شىء فى كومبريه ، فى نظرى ، ما عدا ما كان مسرحاً للمأساة التى أعيشها ساعة النوم . وفى يوم من أيام الشتاء ، عدت إلى المنزل . وعندما رأت أمى أننى أشعر بالبرد ، اقترحت على شرب شىء من الشاى ، على غير عادتى . رفضت فى أول الأمر ، لكننى غيرت رأيى ، لا أدرى لماذا . وأرسلت أمى فى طلب كعكة من ذلك النوع القصير المكتنز المسمى« بتيت مادلين» ، تبدو وكأنها قد صبت فى صدفة قوقعة من قواقع« سان جاك» . وسرعان ما شربت ملعقة من الشاى الذى غمست فيه قطعة « المادلين » ، بطريقة آلية ، لأن اليوم الكئيب وتوقع غد حزين كانا قد أرهقانى . وفى اللحظة التى لمست فيها سقف حلقى ملعقة الشاى الممزوجة بقطعة الكعك ، ارتجفت ، وتنبهت إلى الشىء الغريب الذى يحدث فى . غزتنى لذة لذيذة ، لذة معزولة عن سببها ، جعلتنى لا أبالى تواً بصروف الحياة ، وكوارثها التى لا تضر ، وقصرها الوهمى ، كما يفعل الحب ، وملأتنى بجوهر قيم ،

أو بالأحرى ، لم يكن هذا الجوهر فى أنا ، بل كان أنا. لم أعد أشعر أننى قليل الذكاء ، وزائل . من أين أتت هذه الفرحة القوية ؟ كنت أشعر أنها مرتبطة بطعم الشاى والكعك ، لكنها تتجاوزه إلى ما لا نهاية ، ولابد أنها مختلفة النوع. من أين جاءت ؟ وماذا كانت تعنى ؟ أن أقف عليها ؟ شربت ملعقة ثانية لم أجد فيها شيئاً أكثر مما وجدته فى الأولى ، وثالثة أتت لى بأقل مما أتت بهالثانية . آن الأوان لكى أتوقف. فتأثير المشروب يقل فيما يبدو . من الواضح أن الحقيقة التى أبحث عنها ليست فيه ، بل فى أنا . المشروب أيقظها ، لكنه لا يعرفها ، وهو لا يستطيع إلا أن يكرر إلى ما لانهاية بقوة تقل تدريجياً ، هذه الشهادة التى لا أعرف كيف أفسرها ، وأريد على الأقل أن أتمكن من طلبها منه مرة أخرى ، والعثور عليها سليمة لم تمس ، وتحت تصرفى ، بعد قليل لأوضحها نهائياً . وضعت الفنجان ، والتفتت إلى عقلى . عليه هو أن يعثر على الحقيقة . لكن كيف؟ إنه لشك خطير ، فى كل مرة يشعر فيها العقل أنه يتجاوز ذاته ، عندما يصبح ، وهو الباحث ، البلد الغامض الذى يجرى البحث فيه ، ولن يفيده فيه متاعه شروى نقير .

يجرى البحث ؟ لا ، بل يخلق أيضاً . إنه أمام شىء لم يوجد بعد ، ولا يستطيع أحد غيره أن يوجده ، ثم يدخله إلى نوره .

وعدت أتساءل : ما هى تلك الحالة المجهولة التى لا تأتى بأى دليل منطقى ، وإنما تأتى بوضوح سعادتها ، وحقيقتها التى تزول أمامها كل البديهيات الأخرى ؟ أريد أن أكرر المحاولة ، وأوجدها مرة أخرى ، وأعود بالفكر إلى اللحظة التى شربت فيها ملعقة الشاى الأولى . لكنى لا أجد وضوحاً جديداً ، وأطلب من عقلى جهداً إضافياً ، أن يعيد مرة أخرى الإحساس الهارب . ولكى لا يكسر شىء الانطلاقة التى سيحاول بها عقلى أن يمسك بذلك الإحساس ، أبعد أى عائق ، وأى فكرة غريبة ، وأحمى أذنى وانتباهى من أصوات الغرفة المجاورة.لكن ،لأننى أشعر أنعقلى يجهد بلا طائل، أجبره على الشرود الذى كنت أمنعه عنه والتفكير فى شىء آخر ، وإعادة تكوين نفسه ، قبل محاولة أخيرة . ومرة ثانية ، أفرغ المجال أمامه ، وأضع طعم هذه الرشفة الأولى ، وأشعر بشىء يرتجف فى ويتنقل من مكانه،ويود أن ينطلق،كأنه حل من عقاله ، فى أعمق الأعماق ، لا أدرى ما هو ، لكنه يصعد ببطء . وأشعر بمقاومة ، وأسمع صوت المسافات التى يعبرها .

لا شك أن ما ينبض هكذا فى أعماق نفسى هو الصورة والذكرى المرئية المرتبطة بهذا الطعم ، والتى تحاول أن تتبعه إلى أن يصل إلى . لكنها تتخبط بعيداً جداً بطريقة غامضة للغاية . وأرى بالكاد الظل الذى تختلط فيه دوامة الألوان التى حركتها . لكننى لا أستطيع أن أتبين الشكل ، وأن أطلب منها ، باعتبارها المترجم الوحيد الذى يمكن أن يوجد ، أن تترجم لى شهادة معاصرها وزميلها الذى لا يفترق عنها : الطعم ، وأن أسألها بأى ظرف خاص ، بأى فترة من فترات الماضى يتعلق الأمر ؟

هل تصل إلى سطح وعيى الواضح هذه الذكرى ، واللحظة القديمة التى طلبتها وحركتها وأثارتها فى أعماق جاذبية لحظة مماثلة لها ؟ لا أدرى ! لم أعد أشعر الآن بشىء . ربما توقفت ، ونزلت مرة أخرى إلى ليلها ، ومن يدرى إذا كانت ستصعد منه أبداً ؟ لابد أن أعيد الكرة عشر مرات ، وأن أميل عليها ، وفى كل مرة ، كان الجبن الذى يبعدنا عن أى مهمة صعبة ، وأى عمل هام ، ينصحنى بأن أدع الأمر ، وأشرب الشاى وأنا أفكر فى مضايقات اليوم فقط ، ورغبات الغد التى أجترها بلا عناء .

وفجأة ، ظهرت لى الذكرى . كان هذا الطعم طعم قطعة المادلين الصغيرة التى كانت العمة ليونى تقدمها لى ، بعد غمسها فى الشاى أو التليو ، صباح يوم الأحد فى كومبريه (لأننى كنت لا أخرج قبل ساعة القداس فى ذلك اليوم) ، عندما كنت أذهب إلى غرفتها لأقول لها صباح الخير . لم تذكرنى رؤية قطعة المادلين الصغيرة بشىء قبل أن أتذوقها . ربما لأننى رأيت كثيراً منها بعد ذلك ، عند باعة الحلوى ، ولم آكله ، تركت صورتها أيام كومبريه هذه وارتبطت بأيام أخرى أحدث . ربما تحلل كل شىء لأن شيئاً لم يبق من تلك الذكريات التى تركت طويلا خارج الذاكرة . كانت الأشكال — وكذلك شكل قوقعة المادلين التى تبدو شهوانية تحت ثناياها الصارمة الورعة — قد زالت ، أو نامت ، وفقدت القدرة على الانتشار التى كان يمكن أن تمكنها من اللحاق بالوعى . وعندما لا يبقى شىء من الماضى القديم ، بعد موت الكائنات وهدم الأشياء ، تبقى الرائحة ويبقى الطعم وحدهما ، وهما أكثر ضعفاً من الأشياء الأخرى ، لكنهما أكثر حيوية وإصراراً ، وإخلاصاً ، ولا مادية ، يبقيان كالأرواح ويتذكران ، وينتظران ، ويأملان ، فوق أطلال كل ما تبقى ، ويحملان مبنى الذكرى الضخم ، بدون أن تخور قواهما ، على قطرتهما ، وتكاد تكون غير محسوسة .

وحالما تعرفت على طعم قطعة المادلين المغموسة فى التليو التى كانت عمتى تعطيها لى (وإن كنت لا أعلم بعد وأحلت إلى وقت لا حق اكتشاف السبب الذى يجعل هذه

الذكرى تسعدنى إلى هذا الحد) ، جاء البيت الرمادى القديم المطل على الشارع ، حيث كانت غرفتها ، جاء كالديكور المسرحى ، وانطبق على الجناح الصغير المطل على الحديقة الذى بنى لوالدى خلف البيت (هذا الشق الوحيد الذى رأيته ثانية حتى الآن). ومع البيت ، جاءت المدينة ، من الصباح إلى المساء ، وفى كافة الأوقات ، الميدان الذى كنت ارسل إليه قبل الغداء ، والشوارع التى كنت أشترى منها الحاجيات ، والطرق التى كنت أسير فيها عندما يكون الجو جميلا . وكما يحدث فى تلك اللعبة التى يتسلى اليابانيون فيها بغمس قطع صغيرة من الورق نكاد لانميزها فى وعاء من الصينى ملىء بالماء ، وتتمدد قطع الورق بمجرد أن تغوص فى الماء ، وتتلوى ، وتتلون ، وتتميز ، وتتحول إلى زهور ، وبيوت ، وأشخاص يمكن التعرف عليهم ، خرجت من فنجان الشاى الذى أمسك به المدينة والحدائق وزهور حديقتنا ، وزهور حديقة مسيو سوان . وخرج نيلوفر الفيفون ، وسكان القرية الطيبون ، ومساكنهم الصغيرة ، والكنيسة ، وكومبريه وكل ضواحيها ، وكل ما يتخذ شكلا ويكتسب صلابة .

كانت كومبريه ، إذا نظرنا إليها من القطار ، من كل الجهات من بعيد ، عندما نصل إليها فى الأسبوع الأخير السابق لعيد الفصح ، مجرد كنيسة تلخص المدينة ، وتمثلها ، وتتحدث عنها ولها ، لمن كان بعيداً . وكنا عندما نقترب منها نراها تحتضن حول معطفها العالى الداكن ، ظهر البيوت الرمادى الصوفى ، وسط الحقول ، وتحميها من الرياح كما تحمى الراعية نعاجها ، وكانت تحيط بهذه البيوت المجتمعة ، هنا وهناك ، بقايا سور يرجع إلى العصر الوسيط ، وترسم حولها خطاً دائرياً كاملا كالذى يحيط بالمدن الصغيرة فى لوحات « البدائيين ». كانت كومبريه تبدو كئيبة إلى حد ما لمن يسكنها . وكذلك كانت شوارعها التى بنيت منازلها بأحجار مائلة إلى السواد مأخوذة من المنطقة وتسبقها درجات سلالم خارجية ، وتتوجها جمالونات تعكس الظل أمامها ، وتبدو مظلمة بحيث كان يجب رفع الستائر فى «القاعات» ، حالما تميل الشمس إلى الغروب . كانت الشوارع تحمل أسماء بعض القديسين (وكان كثيرون منهم مرتبطين بتاريخ السادة الأوائل الذين سكنوا كومبريه) : شارع سانت هيلير ، وشارع سان جاك ، حيث كان بيت عمتى ، وشارع سان هيلدجرد الذى يطل عليه السور ، وشارع الروح القدس الذى نصل إليه من باب الحديقة الجانبى الصغير . كانت شوارع كومبريه هذه توجد فى جزء من ذاكرتى بعيد جداً ، ومرسوم بألوان مختلفة جداً عن الألوان التى تكسو العالم الآن فى نظرى ، حتى كانت تبدو لى ، فى الواقع ، هى

والكنيسة العالية التى تطل على الميدان، خيالية أكثر من عروض الفانوس السحرى. وفى بعض اللحظات ، كان يخيل إلى أن تمكنى من عبور شارع سانت هيلير مرة أخرى ، واستئجار غرفة فى شارع لوازو فى فندق « لوازو فليشيه » العتيق الذى كانت تتصاعد من مداخنه رائحة المطابخ، تلك الرائحة التى أحس بها حتى الآن أحياناً بنفس الايقاع المتقطع ونفس الحرارة ، قد يكون اتصالا بالعالم الآخر يخرق الطبيعة خرقاً رائعاً أكثر من التعرف على جولو أو الحديث مع جنفييف دى برابون .

كانت ابنة عم جدى — أى عمتى الكبرى — التى نسكن عندها أم العمة ليونى التى لم ترض ، منذ أن مات زوجها العم أوكتاف ، أن تغادر كومبريه ثم منزلها فى كومبريه ، ثم غرفتها، ثم سريرها ، وكانت لا « تنزل » أبداً ، وتظل راقدة فى حالة غامضة جعلتها تستسلم للضعف الجسمانى ، والمرض ، والأفكار المتسلطة ، والتقوى . كان جناحها الخاص يطل على شارع سان جاك الذى يفضى إلى الجرون برية (بعكس البيتى بريه (الحقل الصغير) المخضر الذى يقع وسط المدينة بين ثلاث شوارع) . كان لذلك الشارع لون واحد مائل إلى الرمادى ، وبه ثلاث درجات عالية من الحجر أمام كل بيت تقريباً . كان يبدو كعرض ازياء نظمه ترزى قص الصور الغوطية فى الحجر ذاته ، ونحت فيه مهداً أو لحداً. لم تكن عمتى تسكن ، فى الواقع ، إلا غرفتين متجاورتين ، وكانت تقضى فترة بعد الظهر فى احداهما ، بينما تفتح الأخرى للتهوية . كانت الغرفتان من تلك الغرف الريفية — فى بعض البلدان ، تضىء أو تعطر أجزاء كاملة من الهواء أو البحر اعداد لا تحصى من الحيوانات الصغيرة للغاية — التى تسحرنا بآلاف الروائح التى تفوح منها وتظل معلقة فى الجو ، روائح الفضائل ، والحكمة ، والعادات ، والحياة الغامضة ، المعنوية ، الفياضة التى لا ترى ؛ روائح طبيعية جداً ، بطبيعة الحال، تتلون بلون الزمان كروائح الريف المجاور، ولازمت البيت، وصارت إنسانية منطوية على نفسها ، وتحولت إلى مربى لذيذة ، متقنة ، صافية ، مصنوعة من كل ثمار العام التى غادرت البستان واستقرت فى الخوان ؛ روائح موسمية ، لكنها منزلية، تتعلق بالمنقولات، وتصحح لدغة الصقيع الأبيض بحلاوة الخبز الساخن ، روائح مـعطلة ودقيقة كساعات القرى ، متسكعة وعاقلة ، لاهية ومتبصرة ، مبكرة وتقية، تسعد بسلام لا يأتى إلا بمزيد من القلق وابتذال يستخدمه كاحتياطى شعرى كبير من مر بها ولم يعش فيها. كان جو الغرفتين مشبعاً بزهرة صمت مغذ ولذيذ ، لدرجة أننى كنت لا أتقدم فيه إلا بنوع من الشراهة، خاصة فى الصباح الباكر البارد

لأسبوع عيد الفصح، حيث كنت أتذوقه بطريقة أفضل لأننى وصلت لتوى إلى كومبريه : قبل أن أدخل وأقول صباح الخير لعمتى ، كنت انتظر لحظة فى الغرفة الأولى ، حيث تأتى الشمس وهى لا تزال باردة لتتدفأ أمام النار المشتعلة بين طوبتين، وتطلى الغرفة كلها برائحة الدخان الأسود، وتجعلها أشبه بمقدمة فرن من تلك الأفران الريفية الكبيرة أو برقع مدخنة فى أحد القصور، نتمنى أمامهما أن تهب الرياح ويسقط المطر فى الخارج، بل أن تحدث كارثة طوفانية لكى تضاف إلى راحة العزلة شاعرية التشتية . كنت أخطو بضع خطوات من كرسى الصلاة إلى « الفوتيبات» المكسوة بالمخمل، حيث ترى دائماً مساند للرأس مشغولة بالكروشيه . وبينما كانت الروائح الشهية تنضج فى النار كالعجين ويتشبع هواء الغرفة بها، بعد أن تخمر... طراوة الصبح المشمسة الندية ، كانت الشمس ترققها ، وتحمرها، وتثنيها ، وتنفخها ، وتصنع منها كعكة ريفية ملموسة ولا ترى ، «خفية » ضخمة . ولا أكاد أتذوق رحيق الخوان والخزانة والورق المشجر ، وهو أكثر تحمراً، ورقة ، وشهرة ، وجفافاً ، حتى أعود بنهم لا أعترف به ، إلى الالتصاق بالرائحة الوسيطة، اللزجة ، المائعة ، الثقيلة ، التى تحمل أثر الفاكهة ، رائحة غطاء السرير ذى الزهور .

كنت أسمع فى الغرفة المجاورة عمتى وهى تحدث نفسها بصوت خافت. كانت لا تتكلم أبداً إلا بصوت خافت، لأنها تظن أن فى رأسها شىء مكسور عائم قد ينتقل من مكانه لو أنها تحدثت بصوت عال . كانت تقول دائماً شيئاً ما ، حتى لو كانت بمفردها ، لأنها تعتقد أن ذلك مفيد لحلقها ، وأنها ستقلل من الاختناقات والقلق الذى تعانى منه ، لو حالت دون توقف الدم فيه. كانت تولى أحاسيسها أهمية غير عادية ، فى حالة الجمود التام التى تعيش فيها ، وكانت هذه الأحاسيس تمنحها قدرة على الحركة يصعب أن تحتفظ بها لنفسها . ولافتقارها إلى وجود شخص تحدثه عنها ، كانت تعلنها لنفسها فى مونولوج لا ينقطع ويعتبر الشكل الوحيد لنشاطها. ولسوء الحظ ، كانت لا تنتبه دائماً إلى وجود شخص آخر فى الغرفة المجاورة ، لأنها اعتادت التفكير بصوت عال . وكثيراً ماكنت أسمعها تقول لنفسها : «لابد أن أتذكر جيداً أننى لم أنم » (لأنها كانت تدعى دائماً أنها لاتنام ، وكنا فى كلامنا جميعاً نحترم هذا الادعاء ونحتفظ بأثره : فى الصباح ، كانت فرانسواز لا تأتى « لايقاظها »، وانما « تدخل » غرفتها. وعندما كانت عمتى تريد النوم أثناء النهار، كنا نقول أنها تريد أن «تفكر» أو « ترتاح » . وعندما كانت تنسى نفسها فى الحديث حتى تقول : « إن ما أيقظنى »، أو « حلمت أن » ، كان وجهها يحمر ، وتتدارك الأمر بأسرع ما يمكن) .

كنت أدخل وأقبلها . كانت فرانسواز تعد لها الشاى وكانت تطلب شراباً ساخناً بدلا منه إذا أحست أنها مضطربة ، وكنت أكلف أنا بوضع كمية التليو التى يجب أن توضع فى الماء المغلى فى طبق ، وكان جفاف العيدان قد قوسها وجعل منها عريشة غير منتظمة تتفتح فى مشبكاتها الزهور الشاحبة ، كأن رساماً نظمها ، وجعلها تقف أمامه بطريقة زخرفية للغاية . ولأن الأوراق كانت قد فقدت شكلها أو غيرته ، كانت تبدو كأشياء متنافرة للغاية ، جناح ذبابة شفاف أو ظهر بطاقة بيضاء أو ورقة وردة ، أشياء تكومت مع ذلك ، وتفتتت ،وجدلت كما لو كانت تبنى عشاً. كانت آلاف التفاصيل الصغيرة التى لا تجدى — ياله من تبذير ذلك الذى قام به الصيدلى ! — والتى يمكن أن تستبعد من التركيبة المصطنعة ، تمتعنى ككتاب ندهش أمامه لأننا نجد فيه اسم شخص نعرفه . فهى تجعلنى أفهم أن الأمر يتعلق حقاً بعيدان تليو حقيقى ، كتلك التى كنت أراها فى شارع المحطة ، لكنها تغيرت . فهى ليست صورة طبق الأصل من تلك العيدان ، وإنما العيدان نفسها بعد أن شاخت. ولأن كل سمة جديدة فيها لم تكن إلا تحولا لسمة قديمة ، كنت أتعرف فى الكرات الرمادية الصغيرة على البراعم الخضراء التى لم تنضج والبريق الوردى ، القمرى ، الناعم الذى كان يجعل الأزهار تبرز فى غابة العيدان الواهية ، حيث علقت مثل الورود الذهبية الصغيرة — وهذا دليل على الفرق بين أجزاء الشجرة التى تلونت وأجزائها الأخرى التى لم تتلون ، شأنها فى ذلك شأن الضوء الذى يكشف فوق الجدار عن مكان لوحة زالت — كان يثبت لى أن هذه الأوراق هى حقاً تلك التى عبقت رائحتها امسيات الربيع ، قبل أن تزين كيس الصيدلية التى ضمها . وكان لهذه الشعلة الوردية ، شعلة الشمعة ، لون تلك الأوراق ايضا ، لكن بعد انطفائها جزئيا ، ونومها فى الحياة الناقصة التى تحياها الآن ، حياة كأنها غسق الزهور . بعد ذلك بقليل ، كان بوسع عمتى أن تغمس فى الشراب المغلى الذى تتذوق فيه طعم الاوراق الميتة أو الأزهار الذابلة ، «مادلين» صغيرة تقدم لى قطعة منها ، بعد أن تلين بما فيه الكفاية .

كانت توجد بجوار سريرها خزانة كبيرة صفراء من خشب الليمون ، ومائدة تحتل مكانا وسطاً بين الصيدلية ومذابح الكنيسة. وكانت توجد ، تحت تمثال صغير للعذراء وزجاجة بها ماء فيشى ، كتب القداس وروشتات الاطباء ، أى كل مايلزم لكى يتابع المرء القداس والريجيم ، لكى لا تفوته ساعة البيسين أو ساعة صلاة

العصر. وكان الجانب الآخر من سرير عمتى يحاذى النافذة ، فكانت ترى الشارع ، وتقرأ فيه تاريخ كومبريه اليومى ، من الصباح حتى المساء ، لكى تنفض عنها الملل على طريقة أمرا فارس ، وإن كانت ذاكرتها لا تحفظ ذلك التاريخ ، ثم تعلق عليه مع فرانسواز .

لم أكد أمضى مع عمتى خمس دقائق حتى طلبت منى الرحيل ، خوفاً من أن أتعبها ، ومدت لشفتى جبينها الحزين الشاحب ، ولم تكن قد صففت شعرها المستعار بعد فى هذه الساعة المبكرة من الصباح .لذا بدت فقراته كأسنان تاج من الشوك أو حبات مسبحة ، وقالت لى : « هيا يا صغيرى ، إذهب واستعد للقداس وإذا التقيت بفرانسواز ، قل لها بألا تلهو معك مدة طويلة ، وتصعد بعد قليل ، لترى ما إذا كنت فى حاجة إلى شئ » .

كانت فرانسواز قد التحقت بخدمة عمتى من عدة سنوات. ولم تكن نتوقع آنذاك أنها ستعمل عندنا طول الوقت ذات يوم .لذا ، كانت تهمل عمتى بعض الشئ فى الشهور التى تكون فيها فى كومبريه . وجدت فى طفولتى فترة لم اعرف خلالها فرانسواز إلا قليلا — حدث ذلك قبل أن نذهب إلى كومبريه ، عندما كانت العمة ليونى لا تزال تقضى فترة الشتاء فى باريس عند أمها — ، لدرجة أن أمى كانت تضع فى يدى فى رأس السنة خمسة فرنكات قبل أن أدخل على عمتى ، وتقول لى : « حذارى أن تغلط الا تعطها اياها الا عندما تسمعنى أقول : « صباح الخير يافرانسواز » وفى الوقت نفسه سألمس ذراعك لمسا خفيفاً » . كنا لا نكاد نصل إلى المدخل المظلم الذى يؤدى إلى غرفة عمتى حتى نلمح فى الظلام ، تحت تجاعيد غطاء رأس لامع ، صلب ، خفيف كأنه السكر المعقود ، دوامات دائرية ترسمها ابتسامة امتنان مسبقة . تلك كانت فرانسواز ، تقف بلا حراك فى إطار باب الممر الصغير كأنها تمثال قديسة فى حنيته . كان المرء ، إذا ألف قليلا هذه الظلمات الكنسية ، يتبين فى وجهها حب الانسانية المنزه عن الغرض ، والاحترام الحنون للطبقات العليا ، يبعثهما فى أفضل مناطق قلبها الأمل فى هدايا رأس السنة. كانت أمى تشد ذراعى بعنف ، وتقول بصوت عال « صباح الخير يافرانسواز ». وعندصدور هذه الاشارة ، كنت أفتح أصابعى وأسقط قطعة النقود فى يد خجولة تمتد لتتلقاها . لكنى لم اعرف أحداً كما عرفت فرانسواز ، بعد أن اعتدنا الذهاب إلى كومبريه. كنا المفضلين لديها ، وكانت تكن لنا فى السنوات الأولى على الأقل ، عاطفة أقوى ، وذات الاحترام الذى تكنه لعمتى ، لأننا كنا نضيف إلى هيبة انتمائنا إلى الأسرة (كانت تكن

للروابط اللامرئية التي تعقدها دورة الدم الواحد بين افراد الأسرة الواحدة ، إحتراما يعادل احترام كاتب المأساة الاغريقي لها) ، سحر كوننا سادتها المؤقتين (لا المعتادين). لذا ، كانت تستقبلنا بفرح بالغ ، وتأسف لأن الجو لم يتحسن بعد وصولنا ليلة عيد الفصح ، حيث كانت تهب ريح باردة فى كثير من الأحيان ، عندما كانت أمى تسالها عن أخبار ابنتها وابناء اخيها ، وما إذا كان حفيدها لطيفا، وأى مهنة سيمتهنها فيما بعد ، وما إذا كان يشبه جدته .

كانت أمى التى تعرف أن فرانسواز لا تزال تبكى والديها اللذان ماتا منذ سنين ، تحدثها عنهما برقة بعد أن ينصرف الجميع ، وتسألها عن الف من تفاصيل حياتهما .

وأحست أمى أن فرانسواز لا تحب زوج ابنتها ، وأنه يفسد عليها متعة وجودها مع ابنتها . فكانت لا تستطيع أن تتحدث معها بحرية فى وجوده. لذا ، كانت أمى تقول وهى تبتسم ، عندما تذهب فرانسواز لزيارتهم ، فى مكان يبعد بضعة فراسخ عن كومبريه : « ستأسفين يافرانسواز إذا وجدت أن جوليان قد اضطر الى الخروج ، وأنك ستبقين وحدك مع مارجريت طول النهار ، أليس كذلك ؟ لكنك ستستسلمين للأمر». عندئذ كانت فرانسواز تقول وهى تضحك: «سيدتى تعرف كل شئ سيدتى أحسن من أشعة إكس (كانت تقول هذه الكلمة بصعوبة مفتعلة وهى تبتسم لتسخر من نفسها ، هى الجاهلة ، ومن استخدامها لهذه الكلمة العلمية) التى أتوا بها لمدام اوكتاف ، وترى ما فى قلوب الناس » ثم تختفى ، خجلة لانشغال الآخرين بها ، ربما لأنها لا تريد أن يراها أحد وهى تبكى . كانت أمى أول شخص يثير فيها هذا الاحساس الحلو، الإحساس بأن حياتها ، وافراحها ، وأحزانها ، هى الفلاحة ، يمكن أن تكون على قدر من الأهمية ، وأن تكون مدعاة حزن أو فرح لشخص آخر غيرها . وكانت عمتى تستسلم للحرمان من فرانسواز قليلا أثناء اقامتنا لأنها كانت تعلم إلى أى مدى تقدر أمى هذه الخادمة الذكية النشطة ، التى كانت تبدو جميلة فى مطبخها ، فى الخامسة صباحاً ، تحت غطاء رأسها بموجاته اللامعة الثابتة التى تبدو وكأنها قد صنعت من « البسكويت » كما لو كانت صاحبته ذاهبة إلى القداس الكبير . كانت فرانسواز تفعل كل شئ على أكمل وجه ، وتعمل كالحصان ، سواء كانت صحتها جيدة أم لا ، تعمل فى صمت وكأنها لا تعمل شيئا ، كانت الوحيدة ، بين خدم عمتى ، التى تحضر الماء ساخنا حقاً ، والقهوة

السوداء ساخنة حقاً ، إذا ما طلبتهما منها أمى. كانت فرانسواز من أولئك الخدم الذين لا يعجبون الغرباء كثيراً لأول وهلة ، ربما لأنهم لا يكلفون خاطرهم ويحاولوا أن يأسروهم أو يحيطوهم بعنايتهم ، لأنهم يعلمون حق العلم أنهم لن يحتاجوا اليهم قط ، وأن أهل الدار قد يكفون عن استقبال أولئك الغرباء بدلا من أن يطردوهم. كانت فرانسواز ، فى الوقت نفسه ، من اولئك الخدم الذى يتمسك بهم إلى أقصى حد السادة الذين اختبروا قدراتهم الحقيقية ، ولا يأبهون بالزخرف السطحى ، والثرثرة الدنيا التى تترك فى الزائر أثراً حسنا ، وتخفى وراءها ، فى أغلب الأحيان ، جهلا يصعب تقويمه .

كانت فرانسواز تصعد مرة أولى إلى غرفة عمّتى لتعطيها البيبسين ، وتسألها عما تريد للغداء ، بعد أن تتأكد أن والدى لا يريدان شيئا . وكان من النادر ألا تضطر إلى ابداء رأيها فى حدث هام أو تفسيره .

—« تخيلى يافرانسواز أن مدام جوبى مرت متأخرة ربع ساعة عن موعدها لتلحق بأختها ،وإذا تلكأت قليلا فى الطريق ، ستصل حتما بعد رفع كأس القربان ولن يدهشنى ذلك » . ردت فرانسواز قائلة :

— « طبعاً . لن يكون فى ذلك مدعاة للدهشة » .

لو إنك جئت من خمس دقائق ، يافرانسواز ، لرأيت مدام امبير تحمل هليونا حجمه ضعف حجم الذى نجده عند مدام « كاللو ». حاولى إذن أن تعرفى من خادمتها من أين اشترته . ومادمت قد بدأت تطهين لنا هذا النوع من الخضر على كل شكل ولون ، يمكن أن تحصلى على مثله ، وتعديه لضيوفنا ». قالت فرانسواز :

—« لن اندهش إذا علمت أنها احضرته من عند الخورى ». قالت عمتى وهى تهز كتفيها :

—« آه . تريدين أن أصدق ، يامسكينة ، أنه من عند الخورى ؟ تعلمين حق العلم أنه لا يزرع سوى هليونا صغيراً حقيراً . قلت لك إن الهليون الذى رأيته فى حجم الذراع لا ذراعك أنت ، بطبيعة الحال ، وانما ذراعى أنا المسكين ، الذى ازداد رفعاً هذا العام . أو لم تسمعى يا فرانسواز تلك الأجراس التى اصابتنى بالصداع » ؟

— «لا ، يامدام اوكتاف» .

— «آه يا ابنتى المسكينة . لاشك أن رأسك صلب ،وعليك أن تشكرى الله على ذلك . إنها الأم ماجلون جاءت لاصطحاب دكتور بيبروه الذى خرج معها فى الحال، وانعطف الاثنان فى شارع لوازو . لا بد أن هناك طفل مريض !» تنهدت فرانسواز وقالت :

— «ماذا ! يا الهى !» لأنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من الأنين ، إذا سمعت أن مصيبة حلت بشخص ما لا تعرفه ، ولو فى منطقة نائية من العالم .

— «لكن ، قولى لى يافرانسواز ،لمن دقت إذن أجراس الموتى ؟ آه! ياآلهى! لاشك أنها دقت لمدام روسو .ها أنذا قد نسيت أنها ماتت الليلة . الماضية . آه! لقد آن الأوان لكى يستدعينى الله إلى جواره! لاأدرى ما الذى حدث لرأسى ، منذ أن مات أوكتاف المسكين . لكنى اضيع وقتك يا ابنتى» .

— «لا ، يامدام اوكتاف،وقتى ليس ثمينا إلى هذا الحد. والذى خلقنا لم يبعه لنا. سأذهب لأرى فقط إذا كانت النار قد انطفأت» .

هكذا كانت فرانسواز وعمتى تقيمان معاً أولى أحداث النهار ، فى هذه الجلسة الصباحية . وكانت الأحداث تتخذ أحيانا طابعاً غامضاً خطيراً لدرجة أن عمتى كانت تشعر أنها لن تستطيع الانتظار حتى تصعد فرانسواز . عندئذ ، كنا نسمع دقات جرس هائلة تدوى فى البيت وتقول فرانسواز :

— «لم تحن ساعة البيسين بعد ، يامدام اوكتاف . هل تشعرين بألم ؟ »وتقول عمتى :

— «لا ، يافرانسواز . تعرفين جيداً أن اللحظات التى لا أتألم فيها قليلة.سأمضى ذات يوم مثل مدام روسو ، بدون أن أجد الوقت اللازم للتعرف على نفسى . لكننى لم أدق الجرس لهذا السبب . هل تصدقين أنى رأيت الآن لتوى ، كما أراك الآن أمامى ، مدام جوبى مع فتاة صغيرة لا أعرفها ؟ إذهبى واشترى بعض الأملاح من عند كامو ، ولا شك أن تيودور سيقول لك من تكون» . قالت فرانسواز التى كانت تفضل الاكتفاء بتفسير مباشر ، لأنها ذهبت مرتين إلى محل كامو ، منذ الصباح :

—« لا شك أنها ابنة مسيو بوبان » .

— « ابنة مسيو بوبان ؟ . وتريدين أن أصدقك يامسكينة ، لو كانت هى لعرفتها».

— « لكنى لا أقصد بها ابنته الكبرى ، يامدام اوكتاف ، بل الصغرى التى تدرس فى مدرسة داخلية فى جوى . يخيل إلى أننى رأيتها صباح اليوم » . قالت عمتى :

— « يجوز . لا بد أنها جاءت لقضاء فترة الأعياد . هذا هو . لا داعى للبحث والتقصى ، لا بد أنها جاءت لقضاء فترة الأعياد . يمكن إذن أن نرى بعد قليل مدام سيزراه وهى تدق باب اختها لتناول الغداء . فلقد رأيت الصبى الذى يعمل عند جالوبان يحمل «تورتة » . سترين أن«التورتة»كانت ذاهبة إلى مدام جوبى » . قالت فرانسواز و هى تريد أن تنزل بسرعة لإعداد الغداء ، وسرها أن تترك لعمتى هذه التسلية المرتقبة :

— « مدام اوكتاف ، مادامت مدام جوبى تنتظر ضيوفاً ، سترين الجميع يعودون بعد قليل لتناول الغداء ، لأن الوقت بدأ يتأخر » .

قالت عمتى : « اوه ! لن يكون ذلك قبل الثانية عشرة » ، بلهجة مستسلمة ، وهى تلقى إلى الساعة نظرة خاطفة قلقة ، لكى لا يرى أحد أنها تجد متعة كبرى فى معرفة أن مدام جوبى تنتظر ضيوفاً على الغداء ، لذة ستظل تنتظرها أكثر من ساعة ، للأسف ، فى حين تنازلت هى عن كل شئ.وأضافت بصوت خافت كأنها تخاطب نفسها : « وسيحدث ذلك فى الوقت الذى أتناول فيه غدائى » . وكان غداؤها يمثل فى نظرها تسلية كافية بحيث لا تتمنى تسلية أخرى معها : « لا تنسى على الأقل أن تقدمى لى البيض بالكريمة فى طبق مسطح » . وكانت هذه الأطباق هى الوحيدة التى تزينها موضوعات . فكانت عمتى تتسلى ، عند تناولها كل وجبة ، بقراءة موضوع الطبق الذى يقدم لها . كانت تضع نظارتها على عينيها ، وتفك رموز على بابا والاربعين لصاً وعلاء الدين والمصباح السحرى ، وتقول وهى تبتسم : « جميل جداً ! جميل جداً ! » :

وعندما رأت فرانسواز أن عمتى لن ترسلها إلى كامو ، قالت : « كان بودى أن أذهب إلى كامو . . . . »

— « لا ، لا داعى لأن تذهبى ، لا بد أنها مدموازيل بوبان . آسف يا فرانسواز إذا كنت قد طلبت منك الصعود بلا داعى »

لكن عمتى كانت تعلم علم اليقين أنها نادت فرانسواز لداع ، لأن « الشخص الذى لا يعرفه الناس » فى كومبريه كان أشبه بآلهة الأساطير ، لا يؤمن الناس بوجوده . وبالفعل ، يذكر أهل كومبريه أن فى كل مرة ظهرت فيها فى شارع الروح القدس أو فى الميدان ، إحدى هذه الرؤى المذهلة ، أجريت ابحاث دقيقة انتهت إلى إعطاء الشخصية الأسطورية نسب « شخصية معروفة » إما شخصيا ، إما تجريدياً ، من حيث الحالة المدنية ، أى من حيث درجة قرابتها بسكان كومبريه. كان هذا ابن مدام سوتون العائد من الخدمة العسكرية ، وتلك ابنة أخت الأب بردروه الخارجة من الدير ، وذاك أخو الخورى ، وهو محصل ضرائب شاتودان ، أحيل أخيراً إلى التقاعد أو جاء لقضاء فترة الاعياد . ظن الناس ، عندما رأوهم ، أن فى كومبريه أناس غير معروفين ، لمجرد أنهم لم يتعرفوا عليهم فى التو واللحظة فى حين أن مدام سوتون والخورى كانا قد أعلنا مقدماً من مدة ، أنهما ينتظران بعض المسافرين . وفى المساء ، عندما كنت أصعد إلى غرفة عمتى ، بعد عودتى من النزهة ، لأحدثها عنها ، كانت إذا اخطأت وقلت لها أننا التقينا ، بالقرب من الجسر القديم ، برجل لا يعرف جدى ، تصيح قائلة : « رجل لا يعرفه جدك ؟ وتريد أن أصدقك ؟ » ومع ذلك ، كانت تتأثر قليلا بالخبر ، وتود أن تطلع على جلية الأمر ، وتطلب جدى وتسأله : « بمن التقيتم بالقرب من الجسر القديم ياعمى ؟ برجل لا تعرفه ؟ » — « لا ، التقينا « ببروسبير أخو بستانى مدام بوييف » فكانت عمتى تقول ، وقد اطمأنت واحمر وجهها قليلا : « آه حسن » . « وتضيف بابتسامة ساخرة وهى تهز كتفيها : « لقد قال لى أنكم التقيتم برجل لا تعرفونه . » عندئذ ، كنت أتلقى توصية بأن أكون أكثر حذرا فى المرة القادمة ، وألا أقلق عمتى بكلمات رعناء . فالجميع ، البشر والحيوانات ، كانوا معروفين فى كومبريه لدرجة أن عمتى كانت لا تكف عن التفكير فى كلب « لا تعرفه » رأته يمر صدفة وتكرس لهذه الواقعة الغامضة موهبتها الاستقرائية وساعات فراغها .

كانت فرانسواز تقول عندئذ بلا اقتناع لتهدئة الجو ولكى لا يصاب رأس عمتى بالصداع : « لا بد أنه كلب مدام سيزراه » وكانت عمتى ترد قائلة ، لأن روحها الميالة إلى النقد لا تسلم بالأمر بسهولة : « كأننى لا أعرف كلب مدام سيزراه

— « آه ، لابد أنه الكلب الجديد الذى احضره مسيو جوليان من ليزيوة ! »

— « يمكن» . وكانت فرانسواز تضيف هذه المعلومة التى نقلها إليها تيودور :

— «يبدو أنه كلب لطيف جداً لماح كالانسان ، صافى المزاج دائما ، ودود دائما ، فيه شئ ظريف دائما . من النادر أن يكون حيوان فى هذه السن الصغيرة على هذا القدر من الأدب . لكن يجب أن أذهب يامدام اوكتاف ، فالوقت لا يتسع للهو ، والساعة اقتربت من العاشرة ، ولم أشعل الفرن أو انظف الهليون بعد » .

— «ماذا ؟ هليون مرة أخرى ؟. لقد أصبت بمرض الهليون حقاً ، هذا العام ! ستتعبين به زوارنا الباريسيين » .

— « لا ، يا مدام اوكتاف ، فهم يحبون هذا الصنف . سيعودون من الكنيسة وقد انفتحت شهيتهم ، ولسوف ترين أنهم سيأكلون الهليون بنفس مفتوحة » .

— «لا بد أنهم الآن فى الكنيسة . ويستحسن ألا تضيعى الوقت . هيا ، إذهبى ، وراقبى ما تعدينه للغداء» .

وبينما كانت عمتى تتحدث هكذا مع فرانسواز ، كنت أذهب مع والدتى إلى القداس . كم كنت أحبها ، وكم أراها الآن جيداً ، كنيستنا . كان مدخلها المسقوف القديم اسوداً ، مجدراً كالمصفاة ، منحرفاً ومجوفاً عميقاً عند الزوايا (كذلك وعاء الماء المقدس الذى يودى إليه) ، كأن لمس معاطف الفلاحات الرقيق له وهن داخلات إلى الكنيسة ، ولمس أصابعهن الخجلة وهن يأخذن الماء المقدس ، قد جعلاه يكتسب قوة هدامة على مر السنين ، قوة تجعل الحجر يميل ، وتشق فيه أخاديد كتلك التى ترسمها عجلات العربات على علامات الطريق التى تصطدم بها كل يوم . كانت شواهد الكنيسة التى دفن تحتها قساوسة كومبريه الذين تحولوا إلى تراب نبيل قد جعلت للخورس ارضية روحية ، ليست مادة جامدة صلبة فى حد ذاتها ، لأن الزمن اكسبها نعومة ، وأسال شيئاً أشبه بالعسل خارج حدود مربعاتها التى تجاوزتها فى موجة شقراء ، تجر وراءها حرفا غوطياً كبيراً مزهراً ، وتغرق زهر البنفسج المرمرى الأبيض . وفى مكان آخر ، اختفت الشواهد وراء هذه الحدود ، فزادت من تقلص الكتابة اللاتينية المختصرة ، وأدخلت نزوة إضافية على وضعها ، وقربت حرفى كلمة تباعدت حروفها

الأخرى كثيراً . كان زجاج الكنيسة لا يتلألأ أبداً كما يتلألأ فى الأيام التى تسطع فيها الشمس قليلا . كنا متأكدين دائماً أن الجو سيكون جميلا فى الكنيسة ، مهما تلبدت السماء بالغيوم فى الخارج . كانت تشغل مساحة أحد الألواح الزجاجية الملونة شخصية واحدة تشبه ملك اوراق اللعب ، تعيش فى الجزء العلوى ، تحت مظلة معمارية ، بين السماء والأرض (كانت مدام سيزراه تركع لحظة ، وتضع على كرسى الصلاة المجاور لها ربطة « البيتى فور » الذى اشترته من الحوانى المقابل للكنيسة توا ، وستعود به ليقدم بعد الغداء ، فى انعكاسات هذا اللوح المائلة إلى الزرقة ، فى أيام الأسبوع أحياناً ، ساعة الظهيرة ، فى غير ساعات الصلاة ، فى واحدة من تلك اللحظات النادرة التى تبدو فيها الكنيسة خفيفة ، فارغة ، فاخرة ، وأكثر إنسانية وتكسو فيها الشمس أثاثها الثمين ، وتبدو فيها قابلة للسكنى ، كمدخل فندق يرجع إلى العصور الوسطى ، منحوت الحجارة وملون الزجاج) . وفى لوح زجاجى آخر ، جبل من الجليد الوردى ، تدور تحت سفحه معركة ، ويبدو كطبقة جليد خفيفة تكونت مباشرة على الزجاج ، ونفخته بحباتها المضطربة ، كـأنه لوح زجاجى علقت به بعض الندائف ، لكنها ندائف ينيرها الفجر (ولا شك أنه نفس الفجر الذى يصبغ رافدة المذبح بلون ارجوانى من النضرة بحيث يبدو وكأن نوراً خارجياً يوشك على الزوال قد وضعه هنا مؤقتا ، ولم تضعه الوان ارتبطت بالحجر إلى الأبد). كان زجاج النوافذ الملون كله من القدم بحيث كانت ترى هنا وهناك شيخوخة فضية تتألق بتراب السنين ، وتكشف عن نسيجه الناعم ، اللامع ، البالى . كان أحد هذه الألواح مكوناً من مساحة عالية مقسمة إلى مئات من قطع الزجاج المستطيلة الملونة التى يسيطر عليها اللون الأزرق ، ويشبه اوراق لعب كبيرة كتلك التى كان يتسلى بها الملك شارل السادس . وسواء لمع شعاع ، أم مر بصرى وهو يتحرك عبر اللوح الزجاجى الذى ينطفئ ويشتعل تباعاً فى حريق متحرك ثمين ، كان ذلك اللوح يتألق فى اللحظة التالية كذيل الطاووس ، ثم يرتجف وهو يموج بحبات مطر مشتعلة خيالية تقطر من أعلى القبو الحجرى ، القاتم ، بطول الجدران ، كأننى وأنا اتبع والدى اللذان يحملان كتاب الصلوات فى جناح مغارة تبعث فيها المقرنصات المتلوية ألوان قوس قزح . كانت المعينات الزجاجية الصغيرة تتخذ ، بعد ذلك بلحظة ، شفافية عميقة وصلابة لا تنكسر يتميز بهما الياقوت الأزرق ، كأن حباته قد وضعت بعضها بجوار بعض فى عقد كبير . لكننا كنا نشعر خلفها بابتسامة شمس عابرة أحب الينا من هذه الثروات كلها . وكان يمكن التعرف على هذه الابتسامة من الموجة الناعمة الزرقاء التى تغمر

الأحجار الكريمة أو بلاط الميدان ، أو قش السوق على حد سواء . حتى فى أيام الأحد ، عندما كنا نصل قبل عيد الفصح ، كنت أتعزى ، إذ أرى أن الأرض لا تزال عارية سوداء ، بالسجادة الذهبية الباهرة المكونة من الزهور الزجاجية المتفتحة ، كأننا فى ربيع تاريخى يرجع إلى عهد خلفاء القديس لويس .

كانت لوحتان جداريتان تمثلان تتويج استير (تقول الأسطورة أن الرسام أعطى احشوروش ملامح أحد ملوك فرنسا ، وأعطى استير ملامح سيدة من جيرمونت يقال أنه كان مغرماً بها) . وكانت ألوانهما قد أضافت اليهما ، بعد أن ذابت ، تعبيراً وبروزاً ، وإضاءة : كان شئ من اللون الوردى يسبح فوق شفتى استير ويتجاوز حدودهما . وكان لون ثوبها الأصفر يمتد بسخاء وطلاوة تجعله يكتسب شيئاً من التماسك ، ويبرز فوق الجو الذى تراجع إلى الوراء . كانت خضرة الشجر قد ظلت حية فى الأجزاء السفلية من اللوحة الصوفية الحريرية . ولأنها « بهتت » فى الجزء العلوى ، كانت تبرز بلون افتح ، فوق الجذوع الداكنة ، الأغصان العالية المصفرة المذهبة ، وتكاد تكون قد محتها إشراقة شمس مائلة لا ترى . كل هذا ، بل والأشياء الثمينة التى أتت بها إلى الكنيسة شخصيات شبه اسطورية فى نظرى (الصليب الذهبى الذى يقال إن القديس ايلواه قد صاغه ، ومنحه داجوبير للكنيسة ، ومقبرة أبناء لويس الجرمانى المصنوعة من حجر السماق والنحاس المطعم بالميناء) ، كان يجعلنى اتقدم فى الكنيسة ، ونحن فى طريقنا إلى مقاعدنا ، كما لو كنت فى وادى زارته الساحرات ، ويعجب الفلاح إذ يرى فيه ، فى الصخرة أو الشجرة أو البركة ، أثر هذه المخلوقات الخارقة المحسوس . كان كل هذا يجعلنى أرى فى الكنيسة شيئاً مختلفاً تماماً عن باقى المدينة : فهى مبنى يشغل فضاء بأربعة أبعاد ، والبعد الرابع فيه هو الزمان ، ويبسط عبر القرون سفينة تبدو ، من باتكة إلى باتكة ومن مصلى إلى مصلى ، وكأنها تعبر وتهزم ، لا بضعة أمتار فقط ، وإنما عصوراً متتالية ، وخرجت منتصرة من المعركة .

كانت الكنيسة تخفى القرن الحادى عشر الخشن الجفول فى جدرانها السميكة ، وتجعله لا يظهر بعقوده الثقيلة التى تسدها الأحجار الغليظة إلا من خلال الشق العميق الذى يحفره السلم المؤدى إلى برج الأجراس ، بالقرب من المدخل . وحتى فى هذا المكان ، كانت البائكات الغوطية التى تتزاحم بدلال أمامه ، تخفيه وكأنها اخوات كبيرات يقفن مبتسمات أمام أخ يصغرهن سناً ، غير مهندم وفظ ، كى لا يراه الغرباء . كانت الكنيسة ترفع فى السماء ، فوق الميدان ، برجها الذى شهد سان لويس ولا يزال ، فما

يبدو . كانت تغوص بقبوها فى ليل العصور الوسطى . وكان تيودور وأخته يرشداننا وهما يتحسسان طريقهما ، تحت القبة المظلمة المعرقة التى تشبه جناح خفاش ضخم من الحجر ، ويمسكان بشمعة تنير لنا مقبرة حفيدة سيجسبير ، ويقول إن « مصباحاً بللورياً حفر فيها صدفة عميقة — كأنها أثر شئ متحجر —، وكان المصباح قد انفصل من تلقاء نفسه عن السلاسل الذهبية التى علق فيها ، فى الليلة التى قتلت فيها الأميرة ، وذلك فى المكان الذى يوجد فيه صدر الكنيسة حالياً . وبدون أن يتكسر البللور ، أو تنطفئ الشعلة ، غاص المصباح فى الحجر ، وجعله يرق ويلين تحته» .

وهل يمكن الحديث حقاً عن صدر كنيسة كومبريه ؟ لكم كان خشنا ، وخالياً من أى جمال فنى ، بل من أى انطلاقة دينية ! وكان تقاطع الشوارع التى تطل عليها الكنيسة فى مستوى أدنى . لذا ، كان جدارها الخشن يرتفع فوق قاعدة حجرية لم تصقل قط ، شائكة ، لا تتسم بأى سمة كنسية خاصة . كانت النوافذ تبدو مرتفعة ارتفاعاً مبالغاً فيه . وكان كل هذا أشبه بجدار السجن منه بجدار الكنيسة . وعندما تذكرت فيما بعد صدور الكنائس المجيدة التى رأيتها ، لم تخطر ببالى قط فكرة مقارنتها بصدر كنيسة كومبريه . لكنى لمحت ذات يوم ، عند منعطف شارع ريفى صغير أمام تقاطع ثلاث شوارع صغيرة ، جداراً بسيطاً عالياً ، شقت فى أعلاه بعض النوافذ وله نفس الشكل اللامتوازى الذى رأيته فى صدر كنيسة كومبريه . عندئذ ، لم أتساءل كما فعلت فى شارتر ورانس عن القوة التى يعبر بها عن الإحساس الدينى ، لكننى صحت بطريقة لا إرادية :« الكنيسة » !

الكنيسة الأليفة ! كانت تحتل فى شارع سانت‌هيلير الذى يطل عليه بابها الشمالى مكاناً وسطاً بين جارتيها ، صيدلية مسيو رابان ودار مدام لوازو التى تلامسها بدون أن يكون بينهما أى فاصل . كانت مجرد مواطنة فى كومبريه . وكان يمكن أن يكون لها رقم فى الشارع ، لو كان لشوارع كومبريه أرقام . ويبدو أنه كان على ساعى البريد أن يقف عندها فى الصباح ، عندما يوزع رسائله ، وهو خارج من عند مسيو رابان ، قبل أن يدخل دار مدام لوازوه . ومع ذلك ، كان يوجد بينها وبين كل ما عداها خط فاصل لم يتوصل فكرى إلى تخطيه أبداً . كانت مدام لوازوه تضع على نافذتها زهور الفوشيا التى اتخذت عادة سيئة : أن تدع فروعها تجرى دائماً فى كل مكان ، منخفضة الرأس . ولم يكن أمام تلك الزهور ، عندما تكبر بما فيه الكفاية ، شئ عاجل أكثر من ترطيب وجناتها البنفسجية المحتقنة فوق واجهة الكنيسة الصارمة . وبالرغم من كل هذا لم تكن الفوشيا مقدسة فى نظرى . كان فكرى

يحتفظ بهوة سحيقة تفصل بين الزهور والحجر المسود الذى تستند اليه ، حتى لو كانت عيناى لا تريان أى مسافة بينهما .

كان برج أجراس سانتهيلير يعرف من بعيد جداً ، ويرسم وجهه الذى لا ينسى فى الأفق الذى لم تظهر فيه كومبريه بعد . كان والدى يقول لنا ، ونحن فى القطار الذى يقلنا من باريس ، فى أسبوع عيد الفصح ، عندما يراه يمرق المرة تلو الأخرى فوق أخاديد السماء ويدع ديكه الحديدى يجرى فى كافة الإتجاهات : « هيا ، خذوا الأغطية ، لقد وصلنا ! » وفى واحدة من أطول النزهات التى كنا نقوم بها فى كومبريه ، كان يوجد مكان يفضى فيه الطريق الذى يضيق فجأة إلى هضبة ضخمة تسدها عند الأفق غابات ممزقة لا يرتفع فوقها إلا رأس برج أجراس سانتهيلير الرفيع . لكنه كان رفيعاً ، ووردياً ، لدرجة أنه كان يبدو كما لو كان قد خط فى السماء بظفر أراد أن يعطى لهذا المنظر الطبيعى وهذه اللوحة الطبيعية فحسب ، لمسة فنية صغيرة ، وإشارة بشرية فريدة .

وعندما كان المرء يقترب ، ويستطيع أن يرى بقية البرج المربع المهدم تقريباً ، الذى ظل بجواره ، وإن كان أقل إرتفاعاً ، كان يلفت نظره بصفة خاصة لون الحجارة الداكن المحمر . وفى أيام الخريف الغائمة ، كان يشبه فى الصباح وهو يرتفع فوق لون الكروم البنفسجى العاصف ، أطلالا أرجوانية تكاد تتخذ لون الكرم البكر .

وكثيراً ما كانت جدتى توقفنى أمامه ، فى الميدان ، لتتأمله ونحن عائدين إلى البيت . ومن نوافذ البرج التى وضعت كل واحدة منها بجوار الأخرى ، ووضعت بعضها فوق بعض ، بتلك النسب الدقيقة المبتكرة فى المسافات التى لا تضفى جمالا وجلالا على وجوه البشر فقط ، كانت تنطلق وتسقط ، على فترات منتظمة ، أسراب من الغربان ، تدور لحظة وهى تصرخ ، كأن الأحجار القديمة التى تدعها تمرح ولا تراها ، فيما يبدو ، قد أصبحت فجأة غير قابلة للسكنى ، وإنطلق منها مبدأ إضطراب لانهائى جعلها تصيب تلك الأسراب وتلفظها . كانت الغربان ، بعد أن تخطط فى كافة الإتجاهات مخمل الهواء الليلى البنفسجى ، وتهدأ فجأة ، تعود إلى الإستغراق فى البرج الذى يصبح صديقاً بعد أن كان عدواً .

كان بعض الغربان يبدو بلا حراك ، هنا وهناك ، وربما يخطف حشرة تقف على قمة قبة صغيرة ، كما يقف النورس ثابتا كالصياد على قمة الموجة . وبدون أن تعرف لذلك سبباً ، كانت جدتي ترى أن برج أجراس سانتهيلير خالياً من الإبتذال ، والغرور والخسة ، وكان ذلك يجعلها تحب أعمال العباقرة والطبيعة التي لم تنتقص منها يد الإنسان شيئاً — كما فعل البستاني الذى يعمل عند عمتي الكبرى — وتعتقد أنها قادرة على ترك أثر نافع . ولا شك أن أي جزء يرى من الكنيسة كان يميزها عن أى شيء آخر بفكرة يبث فيه . إلا أن الكنيسة كانت تعي ذاتها ، فيما يبدو ، وتؤكد وجودها الفردى المسئول من خلال برج أجراسها . كان هو الذى يتحدث عنها . وكان لدى بصفة خاصة إعتقاد مبهم بأن جدتي ترى فى برج أجراس كومبريه أغلى شيء فى العالم ، فى نظرها ، ألا وهو الشكل الطبيعي المتميز للأشياء . كانت تقول وهى لا تعرف شيئا عن العمارة : « اسخروا منى يا أولادى ، إذا شئتم ، ربما كانت واجهته القديمة غريبة لا تتفق مع معايير الجمال ، لكنه يعجبني » . كانت تنظر إليه، وتتابع بنظراتها التوتر الهادىء ، والميل الورع لمنحدراته الحجرية التي يقترب بعضها من البعض الآخر وهى ترتفع ، كأنها أيدى ضمت للصلاة ، وتتحد مع إنطلاقة السهم لدرجة أن نظراتها كانت تبدو وكأنها تنطلق منه . وفى الوقت نفسه ، كانت جدتي تبتسم للحجارة العتيقة البالية التي لا تضيء الشمس الغاربة إلا قمتها وتبدو فجأة منذ اللحظة التي تدخل فيها هذه المنطقة المشمسة ويلطفها النور ، كما لو كانت قد ركبت فى مكان أعلى بكثير ، مكان بعيد ، كأغنية نرددها بصوت عال ، ونبرة أعلى . كان برج أجراس سانتهيلير هو الذى يعطى لمشاغل المدينة ، وساعاتها ، وزواياها ، وجهها، وتتويجها ، وتكريسها . كنت لا أستطيع أن ألمح من غرفتي إلا قاعدته المغطاة بألواح الأردواز . لكنى كنت أقول لنفسى ، عندما أراها مشتعلة كالشمس السوداء فى صباح أيام الصيف الحارة : « يا الهى الساعة الآن التاسعة. يجب أن استعد للذهاب إلى القداس الكبير ، إذا كنت أريد أن أجد متسعا من الوقت لأمر على العمة ليونى وأقبلها . » كنت أعرف بالضبط اللون الذى اتخذته الشمس فى الميدان، وحرارة السوق وغباره ، والظل الذى ترسمه مظلة الحانوت الذى قد تدخله أمى قبل القداس ، حانوت تشيع فيه رائحة القماش الخام ، لتشترى منديلا قد يعرضه عليها صاحبه وهو يقوس ظهره ويستعد للانصراف ، بعد أن يذهب إلى الداخل ويرتدى سترة يوم الأحد ، ويغسل يديه التي اعتاد فركهما كل خمس دقائق ، حتى فى أكثر اللحظات حزناً ، وكأنه مقدم على عمل جاد ، أو ماتش خطير ، أو لعب الورق.

وعندما كنا ندخل عند تيودور ، بعد القداس ، وتطلب منه « بريوش » أكبر من المعتاد لأن أبناء عمنا انتهزوا فرصة الجو الجميل وجاءوا من تيبرزى ليتناولوا

الغداء معنا ، كنا نرى برج الأجراس أمامنا ، مذهبا وناضجاً كبريوش أكبر ، مباركة ومصدقة ، تقطر منها الشمس كالصمغ ، نراه يصوب سنه المدبب إلى السماء الزرقاء . وعندما كنت أعود من النزهة فى المساء ، وأفكر فى اللحظة التى سأقول فيها مساء الخير لأمى ولن أراها بعدها ، كان ، على عكس ذلك ، يبدو فى ضوء الشمس الغاربة كما لو كان وضع وغرس كوسادة من المخمل الداكن فى السماء الشاحبة التى غاصت لضغطه عليها ، وتجوفت قليلا لتهىء له مكاناً ، وفاضت على الجانبين . وكانت أصوات الطيور التى تدور حوله تزيد من صمته ، فيما يبدو ، وتطلق سهمه ، وتضفى عليه طابعاً لا يوصف .

حتى عندما كنا نخرج لشراء بعض الحاجيات من مكان يقع خلف الكنيسة ولا نراها منه ، كان كل شىء يبدو وكأنه ينتظم بالنسبة لبرج أجراسها الذى يظهر فجأة هنا وهناك بين المنازل ، وربما كان أكثر تأثيرا عندما يظهر على هذا النحو وحده بدون الكنيسة . صحيح أن هناك أبراج أجراس أخرى تبدو أجمل منه بكثير ، إذا نظرنا إليها بهذه الطريقة . وفى ذاكرتى صور لأبراج أجراس تتجاوز الأسطح ويختلف طابعها الفنى عن طابع الصور التى تكونت منها شوارع كومبريه الكئيبة. ولن أنسى أبدا فندقين جميلين يرجعان إلى القرن الثامن عشر ، رأيتهما فى مدينة غريبة فى نورماندى بالقرب من بلبيك ، واذكرهما باعزاز وإجلال لأسباب شتى . كنا نرى بينهما ، إذا وقفنا فى الحديقة الجميلة التى تهبط الدرج حتى الجدول ، سهما غوطيا ينطلق من كنيسة يخفيانها . وكان السهم يبدو مكملا لسطحيهما ، ويعلو واجهتيهما ، ولكن بطريقة مختلفة قيمة ، محلقة ، موردة ، لامعة ، لدرجة أننا كنا ندرك تماما أنه ليس جزءاً منهما ، بل أشبه بسهم ارجوانى مسنن ، فى قوقعة رشيقة كبرج غطته المياه ، أسرت على الشاطئ بين حجرين جميلين متحدين. حتى فى باريس ، أعرف فى حى من أقبح أحيائها نافذة تطل ، بعد مستوى أول وثان بل وثالث من الأسطح المتراكمة فى عدة شوارع ، على جرس بنفسجى يميل إلى الإحمرار أحيانا ، ويبدو فى أحيان أخرى ، فى أسمى الصور التى يلتقطها له الجو ، أسوداً خاليا من الرماد . وما هذا الجرس إلا قبة سان أوجستان التى تجعل هذا المنظر الباريسى شبيها ببعض مناظر روما التى صورها بيرانيزى . لكن ذاكرتى لم تستطع أن تضع فى أى من هذه الصور الصغيرة ، مهما كان الذوق الذى رسمتها به ، ما فقدته من مدة طويلة ، وأقصد به الإحساس الذى يجعلنا لا ننظر إلى الشىء على أننا نشاهده ، وإنما نؤمن به كما لو كان كائنا لا نظير له . لذا ، لم يخضع

أى من هذه الصور لتبعيته جزءا عميقا من حياتى كما فعلت ذكرى برج أجراس كومبريه بالشوارع الواقعة خلف الكنيسة . فسواء رأينا برج الأجراس فى الساعة الخامسة ، ونحن فى طريقنا إلى مكتب البريد لإحضار الخطابات ، على بعد بضعة منازل على اليسار ، وهو يرفع فجأة قمته المنفردة فوق الخط الذى ترسمه قمم الأسطح ، أم أردنا ، على عكس ذلك ، الدخول عند مدام سيزراه للسؤال عنها ، وتابعنا بعيوننا هذا الخط الذى عاد إلى الانخفاض بعد أن مال جانبه الآخر ، مع علمنا بأنه يجب أن ننعطف فى ثانى شارع بعد البرج ، أم إبتعدنا أكثر من ذلك كأننا ذاهبين إلى المحطة ورأيناه من زاوية مائلة ، وظهرت مساحاته الحديدة وأضلاعه كجسم صلب فوجئ فى لحظة مجهولة من دورانه ، أم بدا صدر الكنيسة من ضفاف الفيفون ، متقلص العضلات وفى مستوى أعلى من هذا المنظور ، كأنه ينبثق من الجهد الذى يبذله البرج ليطلق سهمه فى قلب السماء ، كنا ندرك أنه لابد من العودة دائما إلى برج الأجراس الذى يسيطر على كل شيء ، ويبذر البيوت من مكان عال لم نتوقعه . وكان يقف أمامى كأصبع الرب الذى أختفى جسده وسط حشد من البشر ولم يختلط بهم . حتى يومنا هذا ، إذا أشار أحد المارة الذى دلنى على الطريق ، فى مدينة ريفية كبيرة أو حى باريسى لا أعرفه جيدا ، إلى مكان بعيد يوجد فيه ، كعلامة على الطريق ، برج مستشفى أو برج أجراس دير يرفع قمة غطاء رأسه الكنسى فوق ركن شارع يجب أن أسلكه ، يكفى أن تجد ذاكرتى بطريقة مبهمة ثمة شبه بينه وبين وجه عزيز غاب عنى ، لكى يرى وهو مندهش ، إذا إلتفت ليتأكد أننى لم أضل الطريق ، أننى نسيت النزهة التى شرعت فيها أو المهمة التى جئت من أجلها ، وبقيت أمام برج الأجراس ساعات طوال بلا حراك ، وأنا أحاول أن أتذكر ، وأشعر فى أعماقى بأراضى إستردتها من النسيان تجف وتعود إلى . وما زلت بلا شك أبحث عن طريقى ، وانعطف فى شارع وأنا أشعر بقلق يفوق ذلك الذى شعرت به عندما سألت المارة منذ قليل ....لكن فى قلبى .

وكثيرا ما كنا نلتقى بمسيو لوجراندان فى طريق عودتنا من القداس . كانت مهنته كمهندس تضطره إلى البقاء فى باريس ، ولا يستطيع أن يأتى إلى ضيعته فى كومبريه إلا بين مساء السبت وصباح الإثنين ، فيما عدا العطلة الصيفية طبعا . كان من أولئك الرجال الذين يمتلكون ، بالإضافة إلى الحياةالعملية التى أحرزوا فيها نجاحا مرموقا ، ثقافة أدبية وفنية مختلفة كل الاختلاف ، لا يستخدمونها فى تخصصهم المهنى ، ويستفيد

منها حديثهم ، وهم أكثر إلماما بالأدب من كثير من المتأدبين. (لم نكن نعرف آنذاك أن مسيو لوجراندان كان كاتبا معروفا إلى حد ما ، ودهشنا جدا عندما رأينا موسيقارا مشهورا يؤلف لحنا لأبيات شعر كتبها) ، ووهبوايسرا أكثر من عديد من الرسامين. ويتصور هؤلاء الرجال أن الحياة التى يحبونها لا تلائمهم ، لذا ينجزون أعمالهم إما بعدم اكتراث ممزوج بالفانتازيا ، إما باتقان مستمر ، متعال ، مر وواع . كان لوجراندان طويل القامة ، جميل الهيئة ، ذو وجه متأمل دقيق وشوارب طويلة شقراء ، وعيون زرقاء خلت من الغرور ، كان جم الأدب ومتحدثا لبقا لم نسمع مثله أبدا . كان فى نظر أسرتى التى تسوقه دائما كمثال يحتذى ، نموذجا كاملا لأهل الصفوة الذين ينظرون إلى الحياة بأسمى النظرات وأرقها. كانت جدتى لا تعيب عليه شيئا سوى طلاوة حديثه الفائقة ، التى تشبه حديث الكتب كثيرا ، وافتقار كلامه إلى اللمسة الطبيعية التى ترى فى أربطة عنقه وسترته المستقيمة كسترة التلاميذ . وكانت تدهش أيضا لحديثه الطويل الملتهب الذى ينتقد فيه الطبقة الارستقراطية ، والحياة الاجتماعية ، وتفاخر المرء بما لا يملكه . ولا شك أن هذه الخطيئة الأخيرة هى تلك التى قصدها سان بول عندما تحدث عن الخطايا التى لا تغتفر .

كانت جدتى عاجزة عن الإحساس بالطموح الإجتماعى ، وتكاد لا تفهمه. ومن ثم ترى أنه من العبث بذل الجهد لإنتقاده . وعلاوة على ذلك ، كانت ترى أنه لا يليق بمسيو لوجراندان الذى تزوجت أخته نبيلا من النورماندى وتعيش بالقرب من بلبيك أن يشن هجوما عنيفا كهذا على النبلاء ، ويذهب إلى لوم الثورة على عدم اقتيادهم جميعا إلى المقصلة .

كان لوجراندان يقول لنا عندما يلقانا « سلام، يا أصدقاء ! من حسن حظكم أنكم تعيشون أغلب الوقت هنا . غدا ، يجب أن أعود إلى عشى فى باريس ! » وكان يضيف وعلى شفتيه تلك الإبتسامة الخاصة التى تعبر بهدوء عن السخرية وخيبة الأمل وتبدو شاردة إلى حد ما : « توجد فى بيتى كل الأشياء الكمالية ، بطبيعة الحال ، ولا ينقصه إلا الشىء الأساسى ، ألا وهو قطعة سماء كبيرة كهذه التى أراها هنا » . وكان يقول وهو يلتفت إلى : « أيها الصبى ، حاول أن تحتفظ دائما بقطعة سماء فوق حياتك ، لأن روحك حلوة نادرة النوع ، وطبيعتك طبيعة فنان . لا تحرمها إذن مما لابد لها منه » .

وعندما كانت العمة تسألنا عند عودتنا عما إذا كانت مدام جوبى قد وصلت متأخرة إلى القداس ، كنا نعجز عن الرد عليها ، ونزيد من قلقها ، على عكس ذلك

عندما تقول لها إن رساما ينقل الآن فى الكنيسة لوح الزجاج الملون الذى رسمه جيلبير لى موفيه . وسرعان ما كانت ترسل فرانسواز ' إلى البقال . لكن فرانسواز كانت تعود بخفى حنين لأن تيودور غير موجود . وكانت مهنته المزدوجة كمنشد يشترك فى صيانة الكنيسة وصبى بقال ، تعطيه معرفة عالمية ، نظرا لصلته بكافة الأوساط الإجتماعية .

عندئذ كانت عمتى تتنهد وتقول : « آه ! لكم أود أن تحين الساعة التى تأتى فيها أولالى . فهى الوحيدة التى تستطيع حقا أن تحدثنى عن الأمر » .

كانت أولالى هذه فتاة عرجاء ، نشطة ، صماء ، عاشت فى « عزلة » بعد موت مدام دى لابريتونرى التى إلتحقت بخدمتها منذ طفولتها . وكانت قد إستأجرت بجوار الكنيسة غرفة تنزل منها طول الوقت إما لأداء الفرائض ، إما لأداء صلاة قصيرة أو مساعدة تيودور . وفيما عدا هذا ، كانت تذهب لزيارة بعض المرضى مثل العمة ليونى التى كانت تروى لها ما حدث أثناء القداس أو صلاة العصر . وكانت لا تأنف من إضافة مبلغا إضافيا إلى المعاش القليل الذى يدفعه لها مخدوموها القدامى . فكانت تذهب من حين لآخر « لزيارة » ملابس الخورى أو شخصية مرموقة فى عالم كومبريه الكنسى . كانت ترتدى طاقية صغيرة بيضاء شبيهة بطاقية الراهبات فوق عباءة من الصوف الأسود . وكان مرض جلدى يغطى لجزء من وجنتها وأنفها المقوس لون نبات البلسمين الوردى الفاقع . وكانت زيارتها تسلية كبرى للعمة ليونى التى لا تستقبل أحدا غيرها ، فيما عدا الخورى . وكانت عمتى قد أبعدت شيئا فشيئاً كل الزوار الآخرين لأنها ترى أنهم جميعا مخطئين . فهم يدخلون فى واحدة من فئتى الناس الذى تكرههم . كانت الفئة الأولى تضم أسوأهم ، أولئك الذين بادرت إلى التخلص منهم لأنهم نصحوها بألا « تطاوع نفسها » ودافعوا ، ولو بطريقة سلبية إقتصرت على لحظات صمت تعبر عن عدم الرضا أو إبتسامات تنم عن الشك ، دافعوا عن نظرية مدمرة تقول إن التنزه فى الشمس وقطعة من اللحم الأحمر (فى حين كانت تحتفظ طوال أربعة عشر ساعة برشفتين من ماء ڤيشى) قد يفيدانها أكثر من سريرها وأدويتها . وكانت الفئة الأخرى مكونة من أشخاص يعتقدون ، فيما يبدو ، أن مرضها أخطر مما تظن ، أو خطير كما تظن . وكان الذين سمحت لهم عمتى بالعودة إلى غرفتها ، بعد شىء من التردد ونتيجة لإلحاح فرانسواز المزعوم ، وأثبتوا أثناء زيارتهم أنهم غير جديرين بالحظوة التى خصتهم بها عندما جعلتهم يجازفون ويقولون لها بخجل : « ألا تعتقدين أنك لو تحركت قليلا ، إذا كان الجو جميلا . . » أو ردوا بقولهم : « آه ، عندما يفتقر المرء إلى الصحة ! لكن يمكن أن تعيشى طويلا وأنت على هذا الحال » ، على قولها

« حالتى فى غاية السوء ، فى غاية السوء ، إنها النهاية ، يا أصدقائى ! » ، على يقين من أنها لن تستقبلهم أبدا بعد ذلك . وكانت فرانسواز تتسلى بالروع والهلع الذى يستولى على عمتى عندما تلمح من سريرها ، فى شارع الروح القدس ، أحد هؤلاء الأشخاص وهو متجه إلى منزلها فيما يبدو ، أو تسمع دقات جرس الباب. فكانت تضحك للحيل التى تلجأ إليها عمتى لكى تطردهم ، وتسخر من وجوههم المغلوبة على أمرها عندما تراهم يعودون أدراجهم بدون أن يقابلوها . كانت فى قرارة نفسها معجبة بسيدتها ، وترى أنها أفضل من أولئك الناس جميعا ، ما دامت ترفض إستقبالهم . باختصار ، كانت عمتى تطلب فى آن واحد أن يوافق الناس على الريجيم الذى تتبعه ، ويرثوا لآلامها ، ويطمئنوها على مستقبلها .

وكانت أولالى تمتاز بكل هذا . كان يمكن أن تقول لها عمتى عشرين مرة فى الدقيقة الواحدة : «إنها النهاية ، يا عزيزتى أولالى» ، وأن ترد عليها عشرين مرة بقولها «بما أننى أعرف مرضك كما تعرفينه تماما يا مدام أوكتاف ، فلسوف تعيشين مائة عام كما قالت لى مدام سيزران بالأمس فقط.» كانت أولالى تعتقد إعتقادا راسخا أن مدام سيزراه تدعى مدام سيزران ، ولم تفلح التجربة التى أثبتت عكس ذلك مرات ومرات فى تغيير رأيها هذا .

وكانت عمتى تفضل ألا تضع لحياتها حدا معينا . لذا ، كانت ترد قائلة : «لا أريد أن أعيش مائة عام» . وبما أن أولالى كانت تعرف كيف تسليها بدون أن تتعبها ، أكثر من أى شخص آخر ، كانت زياراتها المنتظمة التى تقوم بها أيام الأحد ، إلا إذا حال شيء غير متوقع دون ذلك ، مصدر متعة كبرى لعمتى التى ترقبها وهى مسرورة فى بادئ الأمر . لكن ، سرعان ما كانت تشعر بألم أشبه بالجوع المفرط ، إذا تأخرت أولالى قليلا . وكانت لذة إنتظار هذه الأخيرة ، إذا ما طالت ، تتحول إلى عذاب. عندئذ ، كانت عمتى لا تكف عن النظر إلى الساعة ، وتتثاءب ، وتشعر بالوهن. وكانت دقة جرس أولالى ، إذا أتت فى آخر النهار ، بعد أن تكون عمتى قد يئست من سماعها ، تصيبها بحالة أشبه بالإغماء . وفى الواقع ، كانت عمتى لا تفكر إلا فى هذه الزيارة ، يوم الأحد. وحالما كان ينتهى الغداء ، كانت فرانسواز تتعجل اللحظة التى تغادر فيها قاعة الطعام لكى تصعد وتشغل عمتى . لكن (لاسيما فى الأيام التى كان الجو الجميل يستقر فيها فى كومبريه) كانت تمضى فترة طويلة ، بعد دقات ساعة الظهيرة الشامخة التى نزلت من برج سانت هيلير ، وزينته بشعارات تاجها الصوتى الإثنى عشر ،

على جلوسنا حول المائدة ، بجوار الخبز المبارك الذى جاء أيضا بلا تكلف وهو خارج من الكنيسة ، أمام أطباق ألف ليلة وليلة ، وقد أثقلنا الحر ، وأثقلتنا وجبة الطعام خاصة. ذلك أن فرانسواز كانت تضيف إلى الطعام الأساسى الذى لم تعد تعلن عنه ، المكون من البيض ، والضلع ، والبطاطس، والمربى ، والبسكويت — حسب أعمال الحقول والبساتين ، وثمرة المد والجزر ، ومصادفات التجارة ، وآداب الجيران ، وعبقريتها الخاصة ، مما كان يجعل قائمة طعامنا الشبيهة بالورقات الأربع التى كانت تنقش على باب الكاتدرائيات فى القرن الثالث عشر ، تعكس إلى حد ما إيقاع الفصول وأحداث الحياة — :سمكة ضمنت البائعة أنها طازجة، ودجاجة رومية رأتها فى سوق روسانفيل لو بان ، وحراشف برية بالنخاع لم تقدمها لنا بهذه الطريقة بعد ، وفخذا محمرا لأن الهواء الطلق يجعل المرء يشعر بالجوع ويمكن أن نهضمه حتى الساعة السابعة ، وسبانخ على سبيل التغيير ، ومشمشا لأنه لا يزال « بشائر »، وعنب الديب لأنه سيختفى بعد خمسة عشر يوما ، وتوتا أحضره مسيو سوان خصيصا لنا ، وأول ثمار كرز طرحتها الشجرة الموجودة فى الحديقة بعد عامين، وجبنا بالكريمة كنت أحبه فيما مضى ، وجاتوه باللوز لأننى طلبته بالأمس . بعد كل هذا ، كانت فرانسواز تقدم لنا ، بالفتة شخصية منها ، كريمة بالشيكولاتة إبتدعتها لنا وأهدتها بصفة خاصة إلى والدى وكان هاويا. وكان الطبق الأخير خفيفا عابرا كالأعمال التى تكتب لمناسبة معينة، وكانت فرانسواز تضع فيه كل موهبتها . ومن كان يرفض أن يأكل منه ويقول : «لقد شبعت» كان ينحدر فى التو واللحظة إلى مستوى أولئك الأوغاد الذين ينظرون إلى الوزن والمادة ، إذا أهداهم رسام إحدى لوحاته فى حين لا قيمة فيها إلا للفكرة والتوقيع .

ومن كان يبقى قطرة واحدة من الكريمة فى طبقه ، كان يثبت افتقاره إلى الأدب كما لو كان ينصرف قبل أن ينتهى الموسيقار الواقف أمامه مباشرة من عزف مقطوعته .

وكانت أمى تقول لى ، فى النهاية : « هيا ، لاتبق هنا إلى مالانهاية ، أصعد إلى غرفتك إذا كنت تشعر بالحر فى الخارج . لكن ، إذهب واستنشق بعض الهواء أولا ، لكى لاتبدأ القراءة بعد انتهائك من الغداء مباشرة . » كنت أذهب وأجلس بجوار الطلمبة وحوضها ، وكثيراً ماكان يزينها — كما لو كانت واجهة غوطية — سمندل ينحت فى الحجر الخشن جسمه البارز ، الرمزى ، الرشيق ، المتحرك ، على مقعد بلا ظهر تظله شجرة ليلك ، فى ذلك الركن الصغير من الحديقة الذى يفضى إلى شارع الروح القدس بباب خدمة صغير ، ويرتفع فوق أرضه التى لم تسو المطبخ

الحلفي الذي يبرز من المنزل كأنه مبنى مستقل . كان بلاطه الأحمر لامعاً كالرخام ، وكان أشبه بمعبد صغير لفينوس أكثر منه عريناً تحتمى به فرانسواز . كان هذا المطبخ يزخر بهبات بائع الألبان ، وبائع الفاكهة ، وبائعة الخضر ، الذين أتوا من قرى بعيدة إلى حد ما ليهدوا إلى فرانسواز « بشائر » حقولهم . وكان هديل الحمام يتوج قمته دائماً .

فيما مضى ، كنت لا أتوقف فى الغابة التى تحيط به ، لأننى كنت ، قبل أن أصعد للقراءة ، أدخل المكتب الصغير الذى يشغله العم أدولف ، أخو جدى ، وهو رجل عسكرى أحيل إلى التقاعد وهو عقيد . وحتى عندما كان الحر يدخله من النوافذ المفتوحة ، أو تدخله أشعة الشمس التى نادراً ماتصل إلى هنا ، كانت تفوح منه على الدوام تلك الرائحة الغامضة الندية التى توحى بالغابات وأيام الماضى فى آن واحد ، وتجعل الأنف يحلم طويلا عندما يدخل المرء مبنى مهجوراً كان مخصصاً للصيد . لكنى لم أدخل مكتب العم أدولف من سنين عدة ، لأنه لايأتى إلى كومبريه بسبب خصومة وقعت بينه وبين أسرتى بسببى أنا ، فى الظروف الآتية :

كانوا يرسلوننى مرة أو مرتين فى الشهر إلى باريس لزيارته . وبعد إنتهائه من تناول طعام الغداء ، وهو يرتدى سترته — وكان يقدمه له خادم يرتدى سترة عمل بأقلام بنفسجية وبيضاء — شكا متذمراً من عدم زيارتى له من مدة طويلة ، وتخلينا عنه . وقدم لى يوسفية . وعبرنا صالوناً لايتوقف المار فيه أبداً ، ولاتشعل النار فيه أبداً ، ويزين جدرانه بروزمذهب ، وطلى سقفه بلون أزرق يريد أن يحاكى لون السماء ، وأثاثه مبطن بالساتان كأثاث بيت جدى ، لكن لونه أصفر . ثم إنتقلنا إلى مايسميه « مكتبه » ، حيث علقت على الجدران صور من تلك التى نرى فيها ، فوق خلفية سوداء ، آلهة بدينة موردة تقود عربة مركبة على كرة أو تعلو جبينها نجمة ، كتلك الآلهة التى أحبها الناس فى عهد الأمبراطورية الثانية ، لأن شكلها يذكرهم ببومبيى ، ثم كرهوها ، ثم أحبوها مرة أخرى ، لسبب واحد ، بالرغم من الأسباب التى تساق ، هو أن شكلها يذكرهم بالامبراطورية الثانية . وبقيت مع العم أدولف إلى أن أتى خادمه وسأله عن الساعة التى يجب أن يعد السائق العربة فيها للخروج . عندئذ ، غاص عمى فى تأمل خشى الخادم المعجب أن يقطعه بحركة واحدة ، وانتظر بفضول النتيجة ، وهى لا تتغير أبداً : فى النهاية ، نطق عمى بهذه الكلمات ، بعد تردد فائق ، وبدون أن يخطىء : « الساعة الثانية والربع » . وردد الخادم هذه الكلمات وهو مندهش ، ولم يناقشها : « الثانية والربع ؟ حسن . . . سأقول له ذلك ؟ »

وكنت فى تلك الفترة أحب المسرح حبا أفلاطونياً ، لأن والدى لم يسمحا لى بالذهاب اليه بعد ، وكنت أتخيل المتع التى يشعر بها المرء وهو فيه ، لكن خيالى كان يفتقر إلى الدقة ، لدرجة أننى كدت أعتقد أن كل متفرج يشاهد ديكوراً خاصاً به فى شىء أشبه بالستريوسكوب . وهكذا يفعل المتفرجون الآخرون .

كنت أسرع كل صباح إلى عامود « موريس » لأطلع على العروض التى يعلن عنها . مامن شىء كان منزهاً عن الغرض ، وأسعد من الأحلام التى تقدمها لخيالى كل مسرحية معلن عنها . وكانت هذه الأحلام تتوقف فى آن واحد على صور الكلمات التى لاتنفصل ويتكون منها العنوان ، ولون الملصقات التى لاتزال مبتلة ومنتفخة بالصمغ ويبرز فوقها العنوان . وفيما عدا بعض المسرحيات الغريبة مثل « وصية سيزار جيرودو » و « أوديب — ملكاً » ، التى تعلن عنها ، لا ملصقات الاوبرا كوميك الخضراء ، وإنما ملصقات الكوميدى فرانسيز الحمرية ، لم يكن هناك شىء يبدو لى أكثر إختلافاً عن حروف « ماسة التاج » البيضاء المتألقة من حروف « القناع الأسود » الملساء الغامضة . وبما أن والدى قالا لى أننى سأختار بين هاتين المسرحيتين عندما أذهب إلى المسرح لأول مرة ، كنت أحاول أن أعمق عنوانيهما على التوالى ، مادمت لا أعرف منها إلا العنوان ، لأحاول أن أقف على المتعة التى تعدنى بها إحداهما وأقارنها بالمتعة التى تخبؤها لى الأخرى . لذا ، كنت أتخيل من ناحية مسرحية باهرة سامية ، ومن ناحية أخرى مسرحية ناعمة هادئة ، لدرجة أننى كنت عاجزاً عن أن أقول أيها سأفضل ، وكأنه مطلوب منى أن أختار بين نوعين من الحلوى : الأرز على « طريقة الامبراطورة » و « الكريمة بالشيكولاتة : »

وكانت كل أحاديثى مع زملائى تنصب على الممثلين . وكان فنهم الذى مازلت جاهلا به ، أول شكل ، دون الأشكال الأخرى ، أحسست من خلاله بالفن .

كان الفرق الدقيق بين طريقة إلقاء هذا الممثل أو ذاك ، وتنغيمه للمقطع ، يبدو لى ذو أهمية كبرى لايمكن تقديرها . وكنت ارتب الممثلين حسب موهبتهم ، فى قوائم استرجعها طوال اليوم ، إستناداً إلى ماقيل لى عنهم . وفى نهاية المطاف ، تجمدت القائمة فى عقلى وعاقته بجمودها .

فيما بعد ، عندما ذهبت إلى المدرسة ، كنت فى كل مرة أتحدث فيها إلى صديق جديد ، أبادر بسؤاله عما إذا كان قد ذهب إلى المسرح ، وهل يرى أن جوت

أحسن ممثل ، ويأتى ديلونيه من بعده . . . الخ ، حالما يدير المدرس ظهره. وإذا رأى أن فيفر لايأتى إلا بعد تيرون ، أو أن ديلونيه لايأتى إلا بعد كوكلان ، كان كوكلان يفقد فجأة جمود الحجر ، ويستعيد قدرته على الحركة ، وينتقل فى ذهنى إلى الصف الثانى ، بينما يكتسب ديلونيه خفة معجزة وحياة خصبة تجعلانه يتراجع إلى الصف الرابع ، مما يعيد الإحساس بالإزدهار والحياة إلى عقلى الذى استرد مرونته وخصوبته .

وإذا كان الممثلون يشغلوننى إلى هذا الحد ، وإذا كانت رؤية مويون وهو خارج ذات يوم ، بعد الظهر ، من الكوميدى فرانسيز ، قد أصابتنى بدهشة الحب وعذابه ؛ فلكم خلف فى إسم نجمة يلمع على باب أحد المسارح ، أو وجه امرأة ظننتها ممثلة رأيته فى مرآة عربة تمر فى الشارع بجيادها التى ازدانت جباهها بالورود ، آثاراً بعثت فى اضطراباً ممتداً ، وجعلتنى أبذل جهداً عاجزاً أليماً لأتخيل حياتها . كنت أرتب الممثلات حسب موهبة كل منهن : سارة برنار ، لابرما ، بارتيه ، مادلين بروهون ، جان سامارى ، وكن جميعا يثرن اهتمامى ، وكان عمى ادولف يعرف كثيرات منهن ، ويعرف أيضاً بنات هوى لا أفرق بينهن وبين الممثلات. كان يستقبلهن فى داره . وكنا لانذهب لزيارته إلا فى أيام محدودة ، لأنه كان يستقبل فى الأيام الأخرى نسوة لا يمكن أن يلتقى بهن أفراد أسرته ، من وجهة نظرهم على الأقل . وكانت السهولة البالغة التى قدم بها عمى لجدتى ، من باب الأدب ، أرامل جميلات لم يتزوجن أبداً ، وكونتيسات ذوات أسماء رنانة ، لكنها مستعارة ، والسهولة التى أعطى بها لهن شيئاً من مجوهرات الأسرة ، أدت إلى الخصومة بينه وبين جدى ، أكثر من مرة . وكثيراً ماكنت أسمع أبى يقول لأمى وهو يبتسم ، إذا ذكر اسم إحدى الممثلات : « إنها صديقة لعمك » . وكنت أرى أن عمى يمكن أن يعفى صبياً فى مثل سنى من ذلك الانتظار الذى استسلم له عبثاً رجال مرموقون ، سنين طويلة ، أمام باب امرأة لم ترد على خطاباتهم ، وأمرت بواب بيتها بطردهم ، ويقدمه فى بيته إلى ممثلة لا يمكن أن يقترب منها الآخرون بوصفها صديقة حميمة له .

لذلك — بحجة أن درساً تغير موعده قد حال عدة مرات ، وسيحول مستقبلا دون رؤيتى لعمى — انتهزت فرصة تناول والدى للغداء فى وقت مبكر ، فى يوم غير الأيام المخصصة لزيارة عمنا ، وخرجت . وبدلا من أن أذهب لعامود الملصقات — وكان مسموحاً لى بالذهاب اليه بمفردى — سارعت إلى بيت عمى . ولاحظت أمام

بابه عربة يجرها حصانان وضعت على غمامتهما قرنفلة حمراء كتلك التى وضعها السائق فى عروة سترته . وسمعت امرأة تضحك ، وأنا أصعد السلم . وما كدت أدق الجرس حتى ساد الصمت . ثم سمعت صوت أبواب تغلق . وفتح الخادم الباب ، وأحس بالحرج عندما رآنى ، وقال لى إن عمى مشغول جداً ، ولن يستطيع إستقبالى بلاشك . وبينما ذهب لإخبار عمى بأننى هنا ، قال الصوت الذى سبق أن سمعته : «! أوه ! دعه يدخل ! دقيقة واحدة فقط ! سيسلينى ذلك كثيراً . إنه يشبه أمه ، ابنة أخيك كثيراً ، وأرى صورتها إلى جانب صورته على مكتبك ، اليس كذلك ؟ أود أن أرى هذا الصبى ، ولو دقيقة واحدة ! »

سمعت عمى يغضب ويدمدم . وفى النهاية ، أذن لى الخادم بالدخول . رأيت على المائدة طبق « اللوزية » المعتاد . كان عمى يرتدى نفس السترة التى يرتديها كل يوم ، لكنى رأيت أمامه أمرأة شابة ترتدى ثوباً حريرياً وردياً ، ويحيط بعنقها عقد من اللؤلؤ ، كادت تنتهى من أكل يوسفية . وأحمر وجهى خجلا ، لأننى لا أدرى ماإذا كان يجب أن أقول لها ياآنسة أم ياسيدة ؟ واتجهت إلى عمى لأقبله ، لأننى لم أجرؤ على النظر اليها كى لا أضطر إلى الحديث معها . فنظرت لى وهى تبتسم ، وقال لها عمى : « ابن ابنة أخى » ، ولم يقل لها إسمى ، ولم يقل لى إسمها ، لأنه كان يحاول بقدر الامكان ، بلاشك ، أن يتجنب إقامة جسر بين أسرته وهذا النوع من معارفه ، منذ أن نشأت بينه وبين جدى بعض الخلافات .

قالت : « إنه يشبه أمه كثيراً ! »

و قال عمى بحدة ولهجة خشنة : « لكنك لم ترى ابنة أخى إلا فى الصورة » .

— «آسفة ، يا صديقى العزيز ، لقد التقيت بها فى السلم العام الماضى ، عندما كنت مريضاً . صحيح أننى لم أرها إلا لحظة خاطفة ، وسلم بيتك مظلم ، لكن ذلك كان كافيا لإعجابى بها . وهذا الصبى له عيونها الجميلة و ذلك . . . »

وعندما قالت « ذلك » خطت بإصبعها خطاً أسفل جبينها ، وسألت عمى : « هل تحمل ابنة أخيك نفس الإسم الذى تحمله انت ياصديقى ؟ »

تذمر عمى ، وكان لايأبه بذكر اسم أمى ، كما لا يأبه بتقديم الناس إلى بعضهم بعض ، عن بعد أو قرب : « إنه يشبه أبيه بصفة خاصة ، إنه صورة طبق الأصل من أبيه ومن أمى المسكينة » .

قالت ذات الثوب الوردى وهى تميل قليلا برأسها : « لا أعرف والده ، ولم أعرف أمك ياصديقى العزيز . ألا تذكر أن كل منا تعرف بالآخر بعد موتها بقليل ؟ »

شعرت بشئ من خيبة الأمل لأن هذه المرأة الشابة لاتختلف عن النسوة الجميلات الأخريات اللاتى رأيتهن أحياناً فى أسرتى ، لاسيا ابنة واحد من أبناء عمومتنا كنت أقضى عنده ليلة رأس السنة كل عام . كل ماهنالك أن صديقة عمى كانت أكثر أناقة منها وإن كانت لها نفس النظرة اليقظة الطيبة ، ونفس المظهر الصريح الودود . لم أجد فيها شيئاً من الطابع المسرحى الذى أعجبت به فى صور الممثلات ، ولا التعبير الشيطانى الذى قد يكون له علاقة بالحياة التى تحياها . كان من الصعب أن أصدق أنها عاهرة . ولولا رؤيتى للحصانين ، والثوب الوردى ، وعقد اللؤلؤ ، وعلمى أن عمى لا يعرف من العاهرات إلا أرفعهن شأناً ، لما صدقت أنها عاهرة انيقة . لكنى كنت أتساءل : كيف يجد المليونير الذى يعطيها العربة ، والبيت ، والجواهر ، متعة فى تبديد ثروته من أجل امرأة تبدو بسيطة محترمة إلى هذا الحد ؟ ومع ذلك ، كان فجورها ، عندما أفكر فى حياتها ، يجعلنى اضطرب أكثر مما لوكان قد تجسد أمامى فى شكل خاص ، لكونه لا يرى ، كلغز إحدى الروايات ، أو فضيحة أخرجت من دار والديها البورجوازية تلك التى كنت أعتبرها ، نظراً لتعبيرات وجهها ، ونبرات صوتها الشبيهة بنبرات كثيرة عرفتها ، فتاة من أسرة محترمة ، رغما عنى ، فى حين لاتنتمى إلى أى أسرة وأسلمتها للجميع ، . . . ورفعتها إلى الطبقة المتوسطة والشهرة .

كنا قد انتقلنا إلى « المكتب » . وشعر عمى بشئ من الحرج لوجودى ، وقدم لها بعض السجائر . فقالت : « لا ياعزيزى ، أنت تعرف أننى أعتدت تدخين السجائر التى يرسلها لى « الجران دوق» وقلت له إنك شعرت بالغيرة لذلك » . وأخرجت من علبتها سجائر تغطيها كتابة مذهبة بلغة أجنبية . واستطردت ، بلهجة متواضعة حسنة : « لابد أننى التقيت عندك بوالد هذا الشاب ! كيف استطعت نسيان ذلك ؟ كم كان طيباً ! كم كان لطيفاً معى ! » وعندما فكرت فى اللقاء الخشن التى وصفته بأنه كان لطيفاً ، لقاؤها بأبى الذى أعرف تحفظه وبروده ، شعرت بالحرج ، وكأن والدى قد أتى فعلا سمجاً ، نظراً للتفاوت بين الإمتنان الفائق الذى ابدته تجاهه ، ولطفه الذى لم يكن كافياً . وخيل إلى فيا بعد أن هذا جانب من الجوانب المؤثرة فى دور هؤلاء النسوة اللاتى لايعملن ، أن يكرسن كرمهن ، وموهبتهن ، وحلماً متاحاً بالجمال العاطفى — لأنهن كالفنانين ، لايحققن هذا الحلم ، ولايدخلنه فى أطر الحياة العادية — وذهباً لايكلفهن إلا القليل ، لإثراء حياة الرجال الخشنة التى لم تهذب وترصع بأحجار كريمة رقيقة بعد . وهذا مافعلته تلك المرأة فى الصالون الذى استقبلها فيه عمى وهو يلبس سترته . كانت

تبسط جسدها الناعم ، وثوبها الحريرى الوردى وأناقتها المنبثقة من صداقة « الجران دوق».
كانت قد توقفت أيضاً عند كلمة تافهة قالها أبى ، وعالجتها برقة ، وأعطتها شكلا ، وتسمية قيمة ، وركبت فيها نظرة من نظراتها الجميلة الصافية المشوبة بالتواضع والعرفان، فحولتها إلى جوهرة صاغها فنان ، إلى شئ « جميل للغاية » . وقال لى عمى : « هيا ،لقد حان موعد رحيلك » .

نهضت ، وتملكتنى رغبة لاتقاوم فى تقبيل يد السيدة ذات الثوب الوردى . لكن ، خيل إلى أن ذلك قد يكون شيئاً جريئاً أشبه بالاختطاف . ودق قلبى وأنا أقول لنفسى : « هل أفعل أم لا ؟ » ثم توقفت عن التساؤل عما يجب أن أفعله لكى أتمكن من فعل شئ ما . وبحركة مجنونة عمياء ، مجردة من كل الأسباب التى شفعت لها منذ لحظة ، قبلت شفتاى اليد التى مدتها لى السيدة .

— « يا له من شاب لطيف ! إنه يعرف الغزل أيضاً ، ويعرف كيف ينظر إلى النساء : الولد لعمه» ، ثم أضافت ، وهى تكز على أسنانها لتعطى الجملة لهجة بريطانية خفيفة : ألا يستطيع أن يأتى مرة لتناول a Cup of Tea كما يقول جيراننا الإنجليز ؟ ما عليه إلا أن يرسل لى « بطاقة » فى الصباح ».

لم أكن أعرف معنى كلمة «بطاقة » ولم أفهم نصف الكلمات التى قالتها السيدة . لكن خوفى من أن يكون وراءها سؤال يستوجب الأدب الرد عليه ، حال دون الإمتناع عن الإنصات إليها بانتباه ، وشعرت بتعب هائل نتيجة لذلك .

قال عمى وهو يهز كتفيه : « لا ، هذا مستحيل ، فهو مشغول جداً ، ويعمل كثيراً » ، وأضاف بصوت منخفض ، لكى لا أسمع هذه الكذبة وأناقضه : « إنه يفوز بكل الجوائز فى المدرسة . من يدرى ؟ ربما أصبح مثل ڤيكتور هيجو أو فولابيل » .

وردت ذات الثوب الوردى قائلة : «اعبد الفنانين فهم الوحيدون الذين يفهمون النساء هم وأهل الصفوة الذين يشبهونك ، لكن أعذر جهلى يا صديقى . من يكون فولابيل هذا ؟ أهو صاحب المجلدات المذهبة التى توجد فى المكتبة الزجاجية الصغيرة فى الصالون الصغير ؟ تعلم أنك وعدتنى باعارتها لى ، وسأعنى بها كل العناية».

لم يقل عمى شيئاً لأنه كان يكره إعارة كتبه لأحد ، ثم قادنى إلى المدخل ، ولأننى كنت ولها بالسيدة ذات الثوب الوردى ، غطيت وجنتى عمى المملوءتين بالتبغ بقبلات مجنونة . وفى الوقت الذى لمح لى فيه بشىء من الحرج ، وإن لم يجرؤ على قوله لى صراحة

بألا أخبر والدى بهذه الزيارة ، قلت له والدمع فى عينى ، إن ذكرى طيبته قوية فى نفسى بحيث يمكننى أن أجد يوماً الوسيلة التى أعبر بها عن امتنانى له . وبالفعل، كانت هذه الذكرى من القوة بحيث رأيت بعد ذلك بساعتين ، وبعد بضع جمل غامضة لم تعط لوالدى ، فى رأيى ، فكرة واضحة عن الأهمية الجديدة التى اكتسبتها، أن الصراحة تقتضى أن أروى لهما الزيارة التى قمت بها لتوى ، بأدق تفاصيلها . ولم اعتقد أننى بفعلى هذا ، سأسبب بعض المتاعب لعمى . وكيف اعتقد ذلك ، وأنا لم أسع إليه ؟ كيف أفترض أن والدى قد يسيئان تأويل زيارة لا أجد فيها ضيراً؟ ألا يحدث كل يوم أن يطلب منا أحد الأصدقاء ألا ننسى تقديم عذره لامرأة لم يتمكن من الكتابة لها ، وأن نهمل الأمر ، لأننا نرى أن هذه المرأة لا يمكن أن تولى أية أهمية لصمت لا أهمية له ، فى نظرنا نحن ؟ وتصورت ، مثل كل الناس ، أن عقل الآخرين وعاء جامد مطيع، لا يستطيع أن يتفاعل تفاعلا نوعياً مع ما ندخله فيه. ولم أشك فى أننى ، عندما نقلت إلى عقل والدى ، خبر تعرفى على هذه السيدة عن طريق عمى ، نقلت إليهما فى الوقت نفسه ، وكما كنت أتمنى ، رأيى الحسن فيها . لكن والدى رجعا ، مع الأسف؛ إلى مبادىء مختلفة كل الإختلاف عن المبادىء التى أوحيت إليهما باتباعها ، عندما أراداتقييم فعل عمى. طلب والدى وجدى من عمى تفسير الأمر ، فى جو من العنف ، وعرفت ذلك بطريقة غير مباشرة . وبعد ذلك ببضعة أيام التقيت فى الخارج بعمى الذى كان مارا فى عربة مكشوفة فأحسست بالألم والإمتنان ، والندم الذى كنت أود أن أعبر عنهم . وإلى جانب قدرهم الهائل ، رأيت أن رفع قبعتى قد يكون فعلا متدانيا ، يفترض عمى إزاءه أننى لا أدين له إلا بالأدب العادى . لذا امتنعت عن اتيان هذه الحركة التى لا تكفى ، فى نظرى ، وأدرت رأسى ، وظن عمى أننى بسلوكى هذا اتبع أوامر والدى ، ولم يغفر لهما ذلك . ومات بعد ذلك بعدة سنين ، ولم يكن أى منا قد رآه بعد تلك الحادثة أبداً .

لذا كنت لا أدخل مكتب عمى أدولف ، وهو مغلق الآن . وبعد أن توقفت بعض الوقت بالقرب من المطبخ الخلفى، قالت لى فرانسواز التى ظهرت على عتبته : « سأدع الخادمة تقدم القهوة ، وتصعد الماء الساخن ، فلا بد أن أسرع إلى مدام اوكتاف» . لذا، قررت أن أعود أدراجى ، وأصعد إلى غرفتى مباشرة ، وأقرأ. وكانت الخادمة شخصية معنوية ، ومؤسسة دائمة تضمن لها بعض الصفات التى لا تتغير نوعاً من الإستمرارية والهوية، من خلال تتابع الأشكال العابرة التى تتجسد فيها ، لأنها كانت تتغير دائماً كل عامين. وفى العام الذى أكلنا فيه كثيراً من الهليون ، كانت الخادمة التى كلفت عادة بتقشيره فتاة مسكينة، معتلة ، وكانت فى حالة حمل متقدمة عندما وصلنا فى عيد الفصح. وكان البعض يدهش لأن فرانسواز تدعها تقوم

بكل هذه الأعمال و« المشاوير »، فى حين بدأت تحمل أمامها بصعوبة السلة الغامضة التى تزداد امتلاء يوماً بعد يوم ، ويحدس شكلها الرائع تحت ثوبها الفضفاض. وكان هذا الثوب يشبه الثياب الفضفاضة التى ترتديها بعض الشخصيات ذات الوجوه الرمزية فى لوحات چيوتو . وكان مسيو سوان قد اعطانى صورا لها ، وهو الذى لفت نظرنا إلى ذلك . وكان يقول لنا ، عندما يسألنا عن أخبار الخادمة : « كيف حال صورة « المحبة » » ؟ كان الحمل قد كسا هذه الفتاة المسكينة بالشحم حتى وجهها، حتى وجنتيها المربعتان المتدليتان فى خط مستقيم. كانت تشبه بالفعل إلى حد كبير العذارى البدينات المسترجلات ، أو بالأحرى السيدات المسنات اللائى يجسدن الفضيلة فى « الأرينا». وأدرك الآن أن«فضائل»بادوفا و«رذائلها» كانت تشبه هذه الفتاة بطريقة أخرى أيضاً . فكانت صورة هذه الفتاة تشتمل على شيء زائد يتمثل فى الرمز المضاف الذى تحمله أمام بطنها ، بدون أن يبدو عليها أنها تفهم معناه ، أو يعبر أى شىء فى وجهها عن جماله وروحه ، كأنه مجرد حمل ثقيل . كذلك ، تجسد هذه الفضيلة ، بدون أن تدرك للأمر كنها ، فيما يبدو ، ربة البيت القوية المصورة فى « الأرينا » تحت اسم « كاريتاس » ، وكانت صورتها معلقة على حائط الغرفة التى استذكر فيها دروسى فى كومبريه . ويبدو أن وجهها الصارم العادى لم يستطع التعبير أبداً عن أية فكرة ،خاصة المحبة . واخترع الرسام شيئاً جميلا عندما جعلها تدوس بقدميها على كنوز الأرض ، كما لو كانت تدوس العنب بقدميها لتستخرج عصيره أو بالأحرى ، صعدت فوق بعض الأكياس لترتفع . وهى تمد للرب قلبها الملتهب ، أو بعبارة أفضل « تعطيه له » كما تعطى الطاهية فتاحة من نافذة بدرومها لشخص يطلبها منها ، ويطل من نافذة الدور الأرضى . كان الحسد فى حاجة إلى مزيد من التعبير عن الحسد . لكن الرمز كان يحتل، فى هذه اللوحة أيضاً ، مكاناً كبيراً، وكان تصويره واقعياً جداً . والثعبان الذى يصفر فى شفاة الحسد غليظ للغاية ، ويملأ فمه المفتوح لدرجة أن عضلات وجهه تتمدد لتتمكن من احتوائه ، كما يفعل طفل ينفخ بالونة بأنفاسه ، وأن انتباه الحسد ، وانتباهنا نحن بالتالى يتركز كلية على حركة شفتيه ولا يفسح المجال للافكار الحسودة .

وبالرغم من الإعجاب الذى كان مسيو سوان يخص به صورة چيوتو هذه، لم أجد لفترة طويلة أى متعة فى النظر إلى صورة المحبة هذه الخالية من المحبة فى قاعة الإستذكار ، حيث علقت بين الصور التى أتى بها إلى . وكان الحسد أشبه بلوحة تعطى مثالا ، فى كتاب من كتب الطب ، لضغط فم الحنجرة نتيجة لورم فى اللسان أو إدخال أداة الجراح، وكان وجه العدالة الرمادى المنتظم فى ضعة صورة طبق الأصل

، من الوجه الذى تتميز به، فى كومبريه، بعض البورجوازيات المليحات التقيات الحافات اللائى كنت أراهن أثناء القداس، وكانت كثيرات منهن قد انخرطن سلفاً فى ميلشيات الظلم الإحتياطية . وفهمت فيما بعد أن الشيء الغريب الأخاذ فى هذه اللوحات ، وجمالها الخاص ، يرجع إلى المكان الكبير الذى يحتله الرمز فيها ، وأن تصوير هذا الأخير ، لا كرمز ، مادام التعبير عن الفكرة التى يرمز إليها غائباً ، وإنما كواقع أو شيء تم الخضوع له فعلا أو معالجته مادياً ، يجعل العمل أكثر حرفية ودقة ، ويعطى الدرس الذى يستخلص منه لمسة محسوسة وأكثر تأثيراً . وبالنسبة للخادمة ، أو لم يكن الإنتباه يعود باستمرار إلى بطنها بسبب الحمل الثقيل الذى يسترعيه ؟ كذلك ، كثيراً ما يلتفت فكر المحتضرين إلى الجانب الفعلى ، الأليم ، الغامض ، العميق ، إلى الوجه الآخر للموت . الوجه الذى يقدمه لهم بالذات ، ويشعرهم به بعنف ، ويشبه حملا يئنون تحته ، أو صعوبة التنفس ، أو الحاجة إلى الشراب ، أكثر مما يشبه ما نسميه فكرة الموت .

لا بد أن فى الفضائل والرذائل الخاصة بپادوڤا قدر لا يستهان به من الواقع ، ما دامت تبدو لى حية كالخادمة الحامل، وما دامت الخادمة نفسها لا تقل رمزية عنها. وربما كان لعدم مشاركة روح الكائن (ظاهرياً على الأقل) فى القوة التى يؤثر بها على هذا النحو ، فيما عدا القيمة الجمالية ، حقيقة ظاهرية على الأقل، كما يقال ، إن لم تكن سيكولوجية . وعندما أتاحت لى الحياة فيما بعد فرصة الإلتقاء فى الأديرة مثلا بتجسيدات مقدسة حقاً للمحبة الفعالة، وجدت أنها تتميز عامة بشكل إيجابى مرح لا يبالى ، نزق كأنه جراح متعجل ، وأن لها هذا الوجه الذى لا يعبر عن أى شفقة ، أو أى تعاطف مع آلام البشر ، أو أى خوف من الإصطدام بهذه الآلام ، وأن هذا الوجه السامى الخالى من الرقة الثقيل الظل هو وجه الطيبة الحقة .

وبينما كانت الخادمة التى تبرز لاإرادياً تفوق فرانسوازعليها — كما يجعل الخطأ انتظار الحقيقة أكثر تألقاً ، بالتناقض — تقدم القهوة التى لا تعدو أن تكون ماء ساخناً ، فى رأى أمى ، وتصعد بعد ذلك إلى غرفنا ماء ساخنا بالكاد فاترا ، تمددت على فراشى ، وأمسكت بكتاب ، فى غرفتى التى تحمى ، وهى ترتجف، طراوتها الشفافة الواهنة من شمس بعد الظهيرة وراء شيشها المغلق تقريباً ، وإن كان ظل من ظلال النهار قد وجد السبيل إلى تمرير أجنحته الصفراء من خلاله ، وظل ثابتاً فى ركن كفراشة استقرت بين الزجاج والخشب . كان النور يكفى بالكاد للقراءة، ولم تعطنى الإحساس بروعته

إلا ضربات كامى فى شارع « لاكور » (وكانت فرانسواز قد نبهته إلى أن عمتى « لا ترتاح » وأن إثارة الضجيج ممكنة) على بعض الصناديق المغبرة التى كانت تبدو وكأنها تطير بعيداً بعض الكواكب القرمزية : عندما ترن فى الجو الخاص بأيام الحر ، كما اعطانى الإحساس بروعة النور الذباب بالذى يعزف أمامى ، فى كونشرتو صغير ، موسيقى كأنها موسيقى الحجرة فى الصيف : لكن هذه الموسيقى لا تذكر الصيف على طريقة اللحن الموسيقى البشرى ، اللحن الذى يذكرك بها بعد ذلك إذا سمعته بالصدفة فى نهاية الربيع والصيف ، وإنما ترتبط بالصيف ارتباطاً أكثر حتمية : فهى تولد مع الأيام الصحو ، ولا تبعث إلا معها ، وتشتمل على شىء من جوهرها ولا تقتصر على إيقاظ صورة هذه الأيام فى ذاكرتنا ، بل تؤكد ايضاً عودتها ، ووجودها الفعلى الذى يحيط بها ويمكن الوصول إليه مباشرة .

كانت هذه الطراوة الغامضة فى غرفتى بالنسبة لشمس الشارع الساطعة ، بمثابة الظل لشعاع الشمس ، أى أنها كانت مضيئة مثله ، وكانت تقدم لخيالى مشهد الصيف كاملا . ولو أننى كنت فى نزهة ، لما استمتعت حواسى إلا بأجزاء منه فقط . ومن ثم ، كانت تتفق كل الإتفاق مع راحتى (بفضل المغامرات التى ترويها كتبى وكانت تثير انفعالها) التى لا تحتمل ، كراحة اليد الثابتة وسط الماء الجارى ، صدمة شلال من النشاط والحيوية .

لكن جدتى كانت تأتى ، وتتوسل إلى أن أخرج ، حتى لو كان الجو قد تغير ، حتى لو هبت عاصفة فجأة ، أو سقطت قطرة مطر . ولأننى كنت لا أريد أن أترك القراءة ، كنت أواصلها فى الحديقة على الأقل ، تحت شجرة الكستناء ، فى كوخ صغير من القماش السميك ، أجلس بداخله وأنا اعتقد أننى اختفيت عن أنظار الناس الذين قد يحضرون لزيارة والدى .

أو لم يكن فكرى أيضاً أشبه بمهد أشعر أننى أغوص فى أعماقه ، حتى للنظر إلى ما يجرى خارجه؟ وعندما كنت أرى شيئاً خارجه ، كان وعيى برؤيته يظل بينى وبينه ، ويحده بخط روحى رفيع يمنعنى دائماً من لمس مادته مباشرة . وكان هذا الوعى يتبخر بطريقة ما قبل أن اتصل به . كذلك ، لا يلمس الجسم المشتعل الذى يقترب من شىء مبتل رطوبة هذا الشىء لأن منطقة تبخر تسبقه دائماً . وعلى الشاشة المتعددة الألوان التى تكونها حالات مختلفة ، ويبسطها الوعى فى نفس الوقت الذى أقرأ فيه تلك الحالات التى تتراوح بين التطلعات التى أخفيها فى أعماق اعماق نفسى والرؤية

الخارجية البحتة للافق الذى يقع تحت عينى ، فى طرف الحديقة ، كان الشىء الحميم جداً فى ، أى القبضة التى لا تكف عن الحركة وتحكم ما تبقى ، هو إيمانى بجمال الكتاب الذى أقرأه ، وثراؤه الفلسفى ، ورغبتى فى امتلاكهما ، أيا كان هذا الكتاب. حتى لو كنت قد اشتريت الكتاب من كومبريه ، كنت ، إذا لمحته أمام بقالة بوروننج ، وبينها وبين المنزل مسافة تمنع فرانسواز من الشراء منها كما تشترى من بقالة كامو ، وإن كانت أغنى بالكتب والأدوات المكتبية ، وهو مثبت بالخيوط فى فسيفساء الكتيبات والكتب التى تكسو ضلفتى بابها ، وهو باب غامض نثرت فوقه الأفكار أكثر مما تنثر على باب الكاتدرائية ، كنت أتعرف عليه لأن الأستاذ أو الزميل الذى خيل إلى آنذاك أنه يملك سر الحقيقة والجمال قد ذكره لى باعتباره كتاباً جديراً بالملاحظة ، وكانت معرفة هذا السر هى الهدف المبهم الدائم لتفكيرى .

بعد هذا الإيمان المركزى الذى كان يقوم بحركات لا تتوقف تتجه من الداخل إلى الخارج ، لكى يكتشف الحقيقة أثناء قراءتى ، كانت تأتى الانفعالات التى يولدها فى الحدث الذى اشترك فيه ، لأن فترات بعد الظهر كانت فى كثير من الأحيان مليئة بالأحداث الدرامية أكثر من حياة بأكملها ، وكانت تلك الأحداث ترد فى الكتاب الذى أقرأه . صحيح أن الشخصيات التى كانت تتأثر بها لم تكن « حقيقية » على حد قول فرانسواز ، لكن كافة الأحاسيس التى نشعر بها أمام سعادة الشخصية الحقيقية أو شقائها لا تولد فينا إلا بواسطة صورة هذه السعادة أو هذا الشقاء . وتمثلت براعة أول كاتب روائى فى إدراكه أن التبسيط الذى يلغى بكل بساطة الشخصيات الحقيقية فى مجموعة انفعالاتنا قد يكون تطوراً حاسماً نحو الكمال ، لأن الصورة هى العنصر الجوهرى الوحيد . فحواسنا تدرك إلى حد كبير تعاطفنا مع الكائن الحقيقى ، مهما كان عميقاً ، بمعنى أنه يظل فى نظرنا غير شفاف ، ثقيلا ميتاً ولا يستطيع إحساسنا أن يرفعه . فالمصيبة التى تصيبه لا تثير انفعالنا إلا فى جزء صغير من الفكرة الشاملة التى كوناها عنه ، بل لا تثير انفعاله هو إلا فى جزء من الفكرة الشاملة التى كونها عن نفسه. والشىء القيم الذى عثر عليه الكاتب الروائى هو فكرة استبدال هذه الأجزاء التى لا تنفذ إليها الروح بكمية مساوية من الأجزاء اللامادية ، أى أن روحنا يمكن أن تشبه نفسها . إذن ، ما هى أهمية أن تبدو لنا أفعال وانفعالات هذه الكائنات الجديدة وكأنها حقيقية ، ما دمنا قد اتحدنا نحن معها ، وما دامت تولد فينا نحن ، وما دامت سرعة تنفسنا وقوة نظرتنا تخضع لتبعيتها ، فى الأثناء التى نقلب فيها صفحات الكتاب

ونحن منفعلين ؟ وبعد أن يضعنا الكاتب الروائى فى هذه الحالة التى يتضاعف فيها الانفعال عشر مرات ، كما يحدث فى كل الحالات الحميمة الصرفة ، والتى يثير كتابه اضطرابنا فيها كما يفعل الحلم ، وإن كان الحلم هنا أكثر وضوحاً من أحلامنا أثناء النوم ، تلك التى تبقى ذكراها فترة أطول ، ها هو يطلق فينا العنان لمدة ساعة لكل أنواع السعادة والشقاء الممكنة ، وقد تمر سنوات من حياتنا بدون أن نعرف بعضاً منها ، وقد لا نكتشف أقواها أبداً ، لأن البطء الذى تولد به يحول دون إدراكنا لها . (هكذا يتغير قلبنا فى الحياة ، وهذا أسوأ أشكال الألم، لكننا لا نعرفه إلا أثناء القراءة، فى الخيال : فالقلب يتغير فى الواقع ، كما تحدث بعض الظواهر فى الطبيعة ، ولكن ببطء بحيث نعفى من الإحساس بالتغيير ذاته ، إذا استطعنا أن نقف تباعاً على كل حالة من حالاته المختلفة) .

والمنظر الطبيعى الذى تقع فيه الأحداث ويؤثر على فكرى أكثر من المنظر الآخر الذى تقع عينى عليه عندما أرفعهما من فوق الكتاب ، كان يأتى بعد ذلك، ويعرض أمامى تقريباً ، لكنه يدخل جسمى أقل من حياة الشخصيات هذه . هكذا شعرت طوال صيفين ، فى حرارة حديقة كومبريه ، بسبب الكتاب الذى كنت أقرأه آنذاك ، بحنين إلى بلد فيه جبال وأنهار ومياه جارية ، قد أرى فيه كثيراً من ورش نشر الخشب وتعفنت فى مياهه الصافية قطع من الخشب تحت خصل من الحشائش . وبالقرب منها تصعد بطول الجدران المنخفضة عناقيد من الزهور البنفسجية المحمرة . وبما أن الحلم بامرأة تكون قد أحبتنى كان ماثلا فى ذهنى دائماً ، تشبع ذلك الحلم فى هذين الصيفين بطراوة الماء الجارى . وسرعان ماكانت ترتفع بجانب المرأة التى أذكرها ،أياً كانت، عناقيد من الزهور البنفسجية المحمرة ، تبدو كما لو كانت ألواناً تكميلية .

لم يحدث ذلك فقط لأن الصورة التى نحلم بها تظل مطبوعة فى ذهننا ، وتستفيد من انعكاس الألوان الغريبة التى تحيط بها صدفة فى أحلامنا . وذلك لأن المناظر الطبيعية فى الكتب التى كنت أقرأها لم تكن فى نظرى مجرد مناظر تصور لخيالى بقوة تفوق تلك التى تصور بها المناظر التى تضعها كومبريه تحت عينى ، وإن كانت شبيهة بها . فاختيار المؤلف لها ، والإيمان الذى كان فكرى يتجه به إلى كلمة هذا الأخير كما لو كانت الوحى ، كان يجعل هذه المناظر تبدو — وهذا انطباع لا يعطيه لى البلد الذى أوجد فيه ، لا سيما حديقتنا ، وهى نتاج جادت به نزوة معتدلة للبستانى الذى تحتقره جدتى — كقطعة حقيقية من الطبيعة ذاتها ، جديرة بأن تدرس وبأن تعمق دراستها .

ولو أن والدى سمحا لى ، عندما كنت أقرأ كتاباً ، بزيارة المنطقة التى يصفها ، لظننت أننى أخطو خطوة لا تقدر بثمن فى سبيل غزو الحقيقة . فاذا أحس المرء بأنه محاط دائماً بروحه ، أحس أن ما يحيط به ليس سجناً ثابتاً لا يتحرك ، بل أحس بالأحرى أنه محمول مع روحه فى انطلاقة دائمة ليتجاوزها ، ويبلغ الخارج ، فى شىء من اليأس ، عندما يسمع دائماً حوله هذا الصوت الذى لا يتغير ، وما هو بصدى الخارج ، وإنما رنين موجة صوتية داخلية . ونحاول أن نعثر ثانية فى الأشياء التى أصبحت قيمة نتيجة لذلك على الظل الذى ألقته روحنا عليها ، ونشعر بخيبة أمل عندما ندرك أنها تبدو فى الطبيعة خالية من السحر الذى كانت تدين به ، فى فكرنا ، لجوارها لبعض الأفكار . وأحياناً ، نحول قوى هذه الروح إلى مهارة ، وروعة ، لنؤثر على كائنات نشعر جيداً أنها توجد خارجنا ولن نصل إليها أبداً . وبالتالى ، إذا كنت قد تخيلت دائماً ، حول المرأة التى أحبها ، الأماكن التى كنت أرغب فيها آنذاك ، وأردت أن تدعونى هى إلى زيارة تلك الأماكن ، وأن تفتح لى أبواب عالم مجهول ، فان ذلك لم يأت بالصدفة ، نتيجة لتوارد الخواطر . لا ، فحلمى بالحب والسفر لم يكن سوى لحظات — أفصل اليوم بينها بطريقة مفتعلة وكأننى أقوم بعمليات قطع فى مستويات مختلفة ، فى نافورة ثابتة ظاهرياً لها ألوان قوس قزح — من انبثاق واحد لا يميل لكل قوى حياتى .

أخيراً ، عندما كنت أتابع فى وقت واحد ، من الداخل إلى الخارج ، الحالات التى وضع بعضها بجانب البعض الآخر فى وعيى ، كنت أجد متعاً من نوع آخر قبل أن أصل إلى الأفق الحقيقى الذى يلتف حولها ، متعة الجلسة المريحة وشم رائحة الهواء الجميلة وعدم إزعاج أى زائر لى ؛ وعندما كانت أجراس سانت هيلير تعلن عن الساعة الواحدة ، كنت أشعر بالمتعة إذ أرى فترة بعد الظهر تسقط قطعة قطعة ، إلى أن أسمع الدقة الأخيرة التى تمكننى من جمع شتات كل هذا ، يليها صمت طويل يبدأ ، فيما يبدو ، فى السماء الزرقاء ، وهو الجزء الذى أعطى لى للقراءة ، حتى تحين ساعة العشاء الشهى الذى تعده فرانسواز ، وكان يريحنى من التعب الذى شعرت به طوال قراءتى للكتاب ، وأنا أتابع البطل . كنت ، فى كل ساعة ، أظن أن التى سبقتها دقت من بضع لحظات فقط . كانت آخر ساعة تسجل بالقرب من التى سبقتها فى السماء ، ولم يكن فى استطاعتى أن أصدق أن ستين دقيقة يمكن أن تتلخص فى هذا القوس الأزرق الصغير الواقع بين علامتيهما الذهبيتين ، وأحياناً ، كانت هذه الساعة السابقة لأوانها تدق

دقتين أكثر من آخر ساعة . دقت ساعة لم أسمعها إذن ، وحدث شيء ، لكنه لم يحدث لى . كانت أهمية القراءة ، السحرية كالنوم العميق ، قد خدعت أذنى ، ومحت الجرس الذهبي على سطح الصمت اللازوردى . يا أيام بعد الظهر الجميلة ، أيام الآحاد تحت شجرة كستناء حديقة كومبريه التى أفرغتها بعناية من الأحداث التافهة فى حياتى الشخصية ، واستبدلتها بحياة مغامرات وتطلعات غريبة فى بلد ترويه المياه الحية ، ما زالت تذكرينى بتلك الحياة عندما أفكر فيك ، وتحتوينها لأنك التففت حولها شيئاً فشيئاً ووضعت حولها سياجاً — بينما كنت أتقدم فى قراءتى وكانت حرارة النهار تزول — من بللور ساعاتك الصامتة ، الرنانة ، العطرة ، الصافية ، الذى يتغير ببطء ، وتمر به أوراق الشجر .

وكانت ابنة البستانى تخرجنى أحياناً من قراءتى ، فى منتصف فترة بعد الظهر ، لأنها تعدو كالمجنونة ، أو تقلب فى طريقها شجرة برتقال ، أو تقطع أصبعها ، أو تكسر سناً لها ، وتصيح : « ها هم . ها هم . » ، لكى نسرع أنا وفرانسواز ولا يفوتنا شيء من المشهد . كان ذلك يحدث فى الأيام التى تعبر فيها الفرقة كومبريه ، وهى فى طريقها للقيام ببعض المناورات ، وكانت تسير عامة فى شارع سان هيلدجرد . وبينما كان خدمنا يجلسون فى صف على الكراسى خارج السور ، ليروا متنزهى يوم الأحد فى كومبريه ، ويراهم المتنزهون ، كانت ابنة البستانى تلمح لمعان الخوذات من فتحة بين منزلين بعيدين فى شارع المحطة . أدخل الخدم مقاعدهم بسرعة ، لأن المدرعين كانوا قد ملأوا شارع سان هيلدجرد عندما مروا به . وكان ركض الجياد يكاد يلامس المنازل ، ويغطى الأرصفة المغمورة كشطآن تقدم لشلال جامح مجرى ضيقاً للغاية .

ولا تكاد فرانسواز تصل إلى السور حتى تدمع عينيها وتقول : « يا للمساكين ! يا للشباب المساكين الذين سيحصدون كالقمح ! » ، وتضيف وهى تضع يدها على قلبها ، حيث تلقت هذه الصدمة : « مجرد تفكيرى فى هذا يصدمنى . » وكان البستانى يقول ليزيد من تأثرها : « أوليس جميلا ، يا مدام فرانسواز ، أن نرى شباباً لا يتمسكون بالحياة ؟ » وبالفعل ، لم تذهب كلماته هباء : « لا يتمسكون بالحياة ؟ بأى شيء يجب أن نتمسك إذن ، إن لم يكن بالحياة ، الهدية الوحيدة التى لا يقدمها الله لنا مرتين . وا أسفاه ! يا إلهى ! ومع ذلك ، فهم لا يتمسكون بها حقاً . لقد رأيتهم عام ٧٠ . إنهم لا يخافون الموت ، فى هذه الحروب المشئومة . إنهم مجانين ، لا أكثر ولا أقل . ثم إنهم لا يستحقون حتى الحبل الذى يجب أن يشنقوا به . إنهم أقرب إلى

الأسود منهم إلى البشر » (تشبيه الرجل بالأسد ليس فيه أى شىء يدعو للفخر ، فى نظر فرانسواز) .

وكان شارع سان هيلدجرد ينعطف فجأة بحيث لا يمكن أن نرى من يأتى من بعيد . وكنا نلمح دائماً ، من خلال الفتحة التى تفصل بين منزلين فى شارع المحطة ، خوذات جديدة تجرى وتلمع فى الشمس . كان البستانى يريد أن يعرف ما إذا كان عدد كبير منهم سيمر ، وكان يشعر بالعطش ، لأن الشمس حامية . وعندئذ ، كانت ابنته تنطلق فجأة ، وكأنها فى ميدان محاصر ، وتبلغ ناصية الشارع ، وبعد أن تتحدى الموت مائة مرة ، تعود إلينا بإبريق فيه شراب جوز الهند ، وتنبأ يقول : إنهم ألف جندى يأتون بلا توقف من ناحية تيبرزى ميزجليز . وعندئذ ، كانت فرانسواز تتصالح مع البستانى ، ويتناقشان عن السلوك الذى يجب أن يتبعانه فى حالة الحرب. كان البستانى يقول : « أرى ، يا فرانسواز ، أن الثورة أفضل . فعندما يعلن عنها ، لا يرحل إلا الذين يريدون الرحيل » .

— « آه ! نعم . نعم . أفهم هذا على الأقل لأنه أكثر صراحة » .

كان البستانى يعتقد أن كل السكك الحديدية تتوقف عندما تعلن الحرب . وكانت فرانسواز تقول : « طبعاً . لكى لا يهرب الناس . » . فيقول البستانى : « آه ! يا لدهائهم» لأنه لا يسلم بأن الحرب مجرد نوع من الحيل الخبيثة تحاول الدولة أن تخدع به الشعب ، وبأن كل الناس سيهربون ، لو وجدوا السبيل إلى ذلك .

لكن فرانسواز كانت تسرع لكى تلحق بعمتى . وكنت أعود إلى كتابى ، ويعود الخدم إلى الجلوس أمام الباب ، ليروا الغبار والانفعال الذى أثارهما الجنود وهم يهبطون . وبعد عودة الهدوء بفترة طويلة ، كانت موجة غير عادية من المتنزهين لا تزال تملأ شوارع كومبريه . وأمام كل المنازل ، حتى تلك التى لم تعتد ذلك ، كان الخدم ، بل والسادة ، يجلسون ، وينظرون ، ويرسمون عند عتبة الباب خطاً متعرجاً داكناً كخط الطحالب والقواقع التى يترك المد القوى نسيجها المجعد وتطريزها عند الشاطئ ، بعد أن يبتعد .

وباستثناء هذه الأيام ، كنت أستطيع أن أقرأ بهدوء . لكن سوان قطع ذات مرة قراءتى بزيارته ، وعلق عليها ، وكان الكتاب الذى أقرأه كتاباً لمؤلف جديد

تماماً بالنسبة لى ، يدعى برجوت . وترتب على ذلك أننى رأيت ، مدة طويلة ، صورة إحدى النسوة اللاتى أحلم بهن تبرز ، لا أمام حائط تزينه زهور بنفسجية على شكل مغزل ، وإنما أمام خلفية مختلفة تماماً ، أمام بوابة كاتدرائية غوطية .

سمعت أول مرة عن برجوت من بلوك ، أحد زملائى ، وكان يكبرنى سنا ، وكنت معجباً به أشد الإعجاب . وعندما سمعنى أعترف له بأننى معجب « بليلة أكتوبر » ، صدرت عنه ضحكة رنانة كالطبل ، وقال لى : « لا تثق فى حبك الوضيع للسيد دى موسيه . فهو واحد من أولئك الرجال الذين يتركون أثراً ضاراً ، وإنسان فظ كئيب نسبياً . لكنى أعترف بأنه ، هو والمدعو راسين ، كتبا فى حياتهما بيتى شعر أتقنا إيقاعهما إلى حد ما ، وميزتهما الكبرى ، فى نظرى ، أنهما لا يعنيان شيئاً على الإطلاق : « أولوسون البيضاء » و « كامير البيضاء » ، « وابنة مينوس وپازيفاييه » ، أشار اليهما مقال أستاذى الجليل ، الأب ليكونت ، المعجب بالآلهة الخالدة . بالمناسبة ، هذا كتاب لا يتسع وقتى لقراءته الآن ، وإن كان هذا الرجل العظيم قد زكاه لى . وقيل لى : إنه يعتبر مؤلفه مسيو برجوت ، من أبرع الكتاب. وبالرغم من أنه يبدى أحياناً وداعة لا تفسر تماماً ، فان كلمته كالنبوءة ، فى نظرى. اقرأ مثلا هذا النثر الغنائى. وإذا كان جامع الإيقاعات العملاق الذى كتب « باجافات » و « كلب ماجنوس » قد صدق ، بحق أبولو ، فلسوف تتذوق لذة شراب الآلهة التى تسكن الأولمب ، يا أستاذى العزيز » . وكان قد طلب منى بنبرة ساخرة أن أدعوه « أستاذى العزيز » ، وهكذا كان يدعونى أيضاً . وكنا فى الواقع نجد شيئاً من المتعة فى هذه اللعبة ، لأننا كنا أقرب إلى السن التى يعتقد فيها المرء أنه يخلق ما يسميه .

لسوء الحظ ، لم أستطع وأنا أتحدث إلى بلوك وأطلب منه بعض التفسيرات ، أن أزيل الاضطراب الذى أشاعه فى ، عندما قال لى : إن الأبيات الجميلة (ولم أكن أنتظر منها شيئاً أقل من الكشف عن الحقيقة) تزداد جمالا كلما خلت من المعنى . ولم يدع بلوك إلى المنزل مرة أخرى . فى البداية ، استقبل استقبالا حسناً . صحيح أن جدى كان يزعم أن ، فى كل مرة ارتبطت فيها بأحد الزملاء أكثر من الآخرين ، ودعوته إلى منزلنا ، اتضح أن هذا الزميل يهودياً . وهذا شىء لا ينبغى أن يغضبه من حيث المبدأ — حتى صديقه سوان كان من أصل يهودى — لولا أنه رأى أننى لا أختار هذا الزميل عادة من بين أفضلهم . لذا ، كان من النادر ألا يدندن ويقول هذه العبارة المأخوذة من مسرحية « اليهودية » : « يارب آبائنا » ، عندما اصطحب زميلا جديداً ،

أو يقول : « حطم قيدك يا إسرائيل » ، وكان لا يترنم إلا باللحن ، بطبيعة الحال ، لكنى كنت أخشى أن يتعرف عليه زميلى ويسترجع كلماته .

كان لمجرد سماعه أسماءهم ، حتى قبل أن يراهم — لم يكن فى أغلب الأحيان فى هذه الأسماء شىء يهودى بصفة خاصة — يحدس لا الأصل اليهودى لأصدقائى اليهود فعلا فقط ، وإنما ما يعيب أسرهم أيضاً .

— « ما اسم صديقك الذى سيحضر هذا المساء » ؟

— « دومون يا جدى » .

— « دومون ؟ آه ! » وكان يقول : « أحسنوا الحراسة ، يا أيها الرماة . اسهروا بلا أناة وبلا ضجيج » ، ويصيح : « إلى بالحرس . إلى بالحرس » بعد أن يوجه إلينا بضعة أسئلة أدق ، بمهارة . وإذا كان المريض نفسه قد وصل ، وأجبر على الاعتراف بأصله باستجواب مقنع وبدون أن يدرى ، كان جدى يكتفى بالنظر إلينا ، لكى يبين لنا أن ليس لديه أى شك ، ويتغنى بالعبارات الآتية : « ماذا ؟ أتقود خطى هذا الإسرائيلى الخجل إلى هنا ؟ » ، أو « يا حقول الآباء ، يا خليل ، يا أيها الوادى الهادئ » أو « نعم ، أنا من الجنس المختار » .

ولم تكن عادات جدى هذه تشتمل ضمناً على أى شعور بالعداوة تجاه زملائى . لكن بلوك لم يعجب والدى لأسباب أخرى . فى البداية ، ضايق أبى الذى قال له باهتمام ، عندما رآه خجلا : « قل لى يا مسيو بلوك ، كيف حال الجو إذن ؟ هل سقط المطر ؟ لا أفهم فى الأمر شيئاً ، فالبارومتر كان يعلن عن جو ممتاز » ، ولم يحصل منه إلا على هذا الجواب : « لا أستطيع أن أجزم أن المطر قد سقط ، يا سيدى ، فأنا أعيش متعمداً بعيداً عن الاحتمالات المادية ، لدرجة أن حواسى لا تتكبد مشقة الإشارة إليها . » وقال لى أبى ، عندما انصرف بلوك : « مسكين يا بنى ، صديقك هذا عبيط . ماذا ؟ لا يستطيع حتى أن يحدثنى عن حالة الجو ؟ ! فى حين لا يوجد شىء أهم منها ! إنه لأحمق . » .

ولم يعجب بلوك جدتى ، لأنه انتحب بصوت مكتوم ، ومسح دموعه ، عندما قالت بعد الغداء : إنها متعبة قليلا . فلقد قالت لى : « كيف يمكن أن يكون صادقاً ، ما دام لا يعرفنى ؟ وإلا ، فهو مجنون ! » .

وأخيراً ، أغضب الجميع عندما جاء متأخراً ساعة ونصف عن موعد الغداء ، وقد غطاه الوحل ، وبدلا من أن يعتذر ، قال :

— « أنا لا أتأثر أبداً بتقلبات الجو أو تقسيمات الجو المتعارف عليها . وقد أعيد عن طيب خاطر استخدام غليون الأفيون . لكنى أجهل استخدام أدوات كالساعة ، أو المظلة ، وهى أكثر ضرراً منه ، فضلا عن أنها بورجوازية تافهة » .

كان يمكن أن يعود إلى كومبريه ، رغم كل شيء ، ومع إنه الشخص الذى لا يتمنى والدى أن يكون صديقاً لى . وانتهى بهما الأمر إلى اعتقاد أن الدمع الذى سكبه عندما شعرت جدتى بوعكة لم يكن مفتعلا ؛ وكانا يعرفان عن تجربة أو غريزياً أن انطلاقات إحساسنا لا تسيطر إلا قليلا على بقية أفعالنا وسلوكنا فى الحياة ، وأن احترام الالتزامات المعنوية ، والإخلاص للأصدقاء ، وتنفيذ أى عمل ، واتباع « الريجيم » لهم أساس أكيد يستندون إليه فى بعض العادات العمياء أكثر من تلك الفورات العابرة ، العقيمة الملتهبة . كانا يفضلان أن يكون لى ، بدلا من بلوك ، رفاقاً لا يعطوننى أكثر مما اصطلح على إعطائه للأصدقاء ، وفقاً للقواعد الأخلاقية البورجوازية ، رفاقاً لا يرسلون لى فجأة سلة فواكه لأنهم ذكرونى بمودة يوماً ، ولا يتلاعبون بميزان الواجبات والالتزامات — وهو ميزان دقيق — التى تفرضها الصداقة بحركة بسيطة من خيالهم وإحساسهم ، لإلحاق الضرر بى ، لأنهم عاجزين عن أن يميلوه لصالحى . حتى أخطاءنا ، يصعب عليها أن تجعل أولئك الذين تعتبر عمتى الكبرى نموذجاً لهم يتنازلون عما يدينون لنا به. وكانت عمتى هذه قد تخاصمت منذ سنوات مع ابنة أختها ولا تتحدث إليها أبداً ، ومع ذلك لم تغير الوصية التى تركت لها بها كل ثروتها ، لأنها كانت أقرب أقربائها ، ولأن هذا « واجب » .

كنت مع ذلك أحب بلوك . وكان والدى يريدان إدخال السرور إلى نفسى . كانت المشاكل العويصة التى أفكر فيها ، وتتعلق بجمال ابنة « مينوس » و « پازيفاييه » الخالى من المعنى تتعبنى وتزيد من آلمى أكثر من أحاديثى الجديدة معه ، وإن كانت أمى ترى أنها ضارة . كان يمكن أن يستمر أهلى فى استقباله فى كومبريه لولا أنه أخبرنى ذات يوم ، بعد العشاء — وكان لهذا الخبر تأثير كبير على حياتى فيما بعد ، جعلها أسعد ثم أشقى — أن كل النساء لا يفكرن إلا فى الحب ، وأنه لا توجد امرأة تستطيع أن تقاومنا ، وأكد لى إنه سمع بما لا يقبل الشك أن عمتى الكبرى عاشت فى شبابها حياة

صاخبة ، وأن الرجال كانوا ينفقون عليها علناً . ولم أستطع أن أمنع نفسى من ترديد هذا القول على مسامع والدى . لذا ، طردوه عندما عاد . ولما قابلته بعد ذلك فى الشارع ، كان فى غاية البرود معى .

لكنه كان صادقاً فيما قاله عن برجوت .

فى الأيام الأولى ، لم يظهر لى ما أحببته كثيراً بعد ذلك فى أسلوبه ، كأننى أمام لحن موسيقى سأولع به ولم أتبينه بعد . لم أستطع ترك روايته التى كنت أقرأها وظننت أننى مهتم بموضوعها فحسب ، كما يحدث فى لحظات الحب الأولى ، عندما نذهب كل يوم للقاء امرأة فى اجتماع أو سباق مسلى ، ظناً منا أنهما يجذباننا . ثم لاحظت العبارات النادرة ، البالية تقريباً ، التى يحب أن يستخدمها فى بعض اللحظات التى يسمو فيها أسلوبه بموجة خفية من الانسجام ، ومقدمة موسيقية داخلية . فى هذه اللحظات أيضاً ، كان يبدأ الحديث عن « حلم الحياة العابث » ، و « شلال المظاهر الجميلة الذى لا ينضب معينه » ، و « عذاب الوفاق والحب ، وهو عذاب عقيم لذيذ » ، و « الصور المؤثرة التى تسمو إلى الأبد بواجهة الكاتدرائيات الجليلة الساحرة » . كان يعبر عن فلسفة جديدة كل الجدة على بصور رائعة ، تبدو وكأنها هى التى أيقظت غناء الهارپ الذى علا ، وأعطت لمصاحبته طابعاً سامياً . وأسعدنى أحد هذه المقاطع فى رواية برجوت ، وهو الثالث أو الرابع الذى عزلته عن بقية النص ، سعادة لا تقارن بتلك التى شعرت بها عندما قرأت المقطع الأول، سعادة أحسست بها فى منطقة أعمق من نفسى ، أكثر توحداً ، واتساعاً ، أزيلت فيها العقبات والفواصل ، فيما يبدو ؛ تعرفت عندئذ على نفس الحب ، حب العبارات النادرة ، ونفس التدفق الموسيقى ، ونفس الفلسفة المثالية التى كانت سبباً لمتعتى ، فى المرات الأخرى ، بدون أن أدرك للأمر كنهاً . لذا ، لم أشعر أننى أمام مقطع خاص من كتاب من كتب برجوت يرسم على سطح فكرى شكلا خطياً صرفاً ، وإنما شعرت بالأحرى أننى أمام « مقطع مثالى » ، تشترك فيه كل كتب برجوت ، وقد تعطيه المقاطع المماثلة له التى تختلط به نوعاً من السمك ، وتوسع فكرى ، فيما يبدو .

لم أكن المعجب الوحيد ببرجوت . فلقد كان أيضاً الكاتب المفضل عند صديقة لوالدتى مثقفة للغاية . أخيراً ، كان الدكتور بولبون يجعل مرضاه ينتظرون حتى يقرأ آخر كتاب صدر له . ومن عيادة هذا الطبيب ، ومن متنزه قريب من كومبريه ، طارت البذور الأولى للإعجاب ببرجوت ، وكانت من نوع نادر آنذاك ، لكنها

اليوم منتشرة عالمياً ، ونجد زهرتها العالمية المشتركة فى كل مكان فى أوروبا وأمريكا ، حتى فى أصغر القرى . إن ما أحبته صديقة أمى ، وأحبه الدكتور بولبون بصفة خاصة فى كتب برجوت ، وأحببته أنا أيضاً ، كان ذلك الفيض الموسيقى ، وتلك العبارات القديمة ، وعبارات أخرى بسيطة جداً وشائعة ، لكن المكان الذى يبرزها فيه الكاتب يكشف عن ذوقه الخاص . أخيراً ، كنا نجد فى المقاطع الحزينة شيئاً من المباغتة ، ونبرة تكاد تكون مبحوحة ، ولا شك أنه أحس هو نفسه أن فى ذلك تكمن أكبر محاسنه . فى كتبه التالية ، كان يوقف السرد ، إذا التقى بحقيقة كبرى ، أو اسم كاتدرائية شهيرة ، ودعاء ، أو نداء ، أو رجاء طويل ، يطلق العنان لذلك التدفق الذى كان يظل داخل نثره فى كتاباته الأولى ، ولا تكشف عنه إلا تموجات السطح ، وربما كانت أرق وأكثر انسجاماً عندما تحجب على هذا النحو ،ولا نستطيع أن نشير بدقة إلى المكان الذى ينشأ فيه همسها ويموت. كانت هذه المقاطع التى يتلذذ بها مقاطعنا المفضلة . كنت أحفظها عن ظهر قلب ، وأشعر بخيبة أمل عندما يعود إلى مواصلة السرد . كان فى كل مرة يتحدث فيها عن شىء ظل جماله خافياً على ، غابات الصنوبر أو البرد ، أو نوتردام دى باريس ، أو « آتالى » أو « فيدرا » ، يفجر الجمال بصورة ويوصله إلى . لذا ، أدركت إلى أى مدى توجد أجزاء من الكون يعجز إدراكى عن تبينها ، لولا أنه قربها إلى . كنت أود أن يكون له رأى فى كل شىء ، وأن يعبر تعبيراً مجازياً عن كل شىء ، لا سيما عن الأشياء التى ستتاح لى فرصة رؤيتها بنفسى ، ومن بينها الفكرة الخاصة ببعض المبانى الفرنسية القديمة وبعض المناظر البحرية ، لأن التأكيد الذى كان يذكرها به فى كتبه يدل على أنه يعتبرها غنية بالمعانى والجمال . لكنى كنت لسوء الحظ أجهل رأيه فى كل شىء تقريباً . لم يكن لدى شك فى أنه مختلف تماماً عن رأيى ، لأنه يهبط من عالم مجهول أحاول أن أرتقى إليه : كنت متأكداً إن أفكارى ستبدو حمقاء لهذا الفكر الكامل . وكنت قد ضربت صفحاً عنها جميعاً ، وعندما كنت أجد بالصدفة فى كتابه هذا أو ذاك ، فكرة سبق أن خطرت لى ، كان قلبى ينتفخ ، كأن إلهاً طيباً ردها لى وأعلن أنها جميلة مشروعة . وكان يحدث أحياناً أن تقول إحدى صفحاته نفس الأشياء التى أكتبها كثيراً فى الليل لجدتى وأمى ، عندما يستعصى على النوم ، ومن ثم تصبح الصفحة التى كتبها برجوت أشبه بمجموعة من العبارات التى يمكن أن أضعها أعلى خطاباتى . حتى فيما بعد ، عندما كنت ابدأ فى تأليف كتاب ، كنت أجد عند برجوت معادلا لبعض الجمل التى لا تكفى نوعيتها لكى أقرر الاستمرار فيه . عندئذ فقط ، كنت أستطيع أن أستمتع بها، عندما أقرأها

فى كتابه . وعندما كنت أجدها ، وأحرص على أن تعكس بالضبط ما فى ذهنى ، خشية ألا « تكون مشابهة » ، كنت أجد أمامى متسعاً من الوقت لكى أتساءل عما إذا كان ما أكتبه مقبولا . وفى الواقع ، لم أكن أحب حقاً إلا هذا النوع من الجمل ، وهذا النوع من الأفكار . كانت جهودى القلقة التى لا ترضى ، فى حد ذاتها ، علامة للحب ، حب بلا متعة لكنه عميق . لذلك كنت ، عندما أجد فجأة جملا كهذه فى كتاب كاتب آخر ، بعد تخلصى من التدقيق ، والتشدد ، وبدون أن يكون هناك داع لكى أقلق ، استسلم أخيراً للذة حبى لها ، كأننى طاهى أضطر مرة إلى عدم الطهى ، ووجد أخيراً الوقت الكافى لكى يكون نهماً . وذات يوم ، وجدت فى كتاب من كتب برجوت ، فى معرض حديثه عن خادمة عجوز ، دعابة زادت من سخريتها لغته الرائعة الراقية . وكانت نفس الدعابة التى كثيراً ما قلتها لجدتى وأنا أتحدث عن فرانسواز . وفى مرة أخرى ، أدركت أنه رأى أن ملحوظة تشبه تلك التى أتيحت لى فرصة إبدائها عن صديقنا مسيو لوجراندان جديرة بأن ترد فى مؤلفاته التى تعكس الواقع . (وهى ملحوظات عن فرانسواز ومسيو لوجراندان كان يمكن ، بطبيعة الحال ، أن أضحى بها عن طيب خاطر لاقتناعى بأن برجوت قد يراها بلا أهمية) . عندئذ ، خيل إلى فجأة أن حياتى المتواضعة ليست منفصلة عن ممالك الحقيقة ، كما أظن ، بل تتفق معها فى بعض النقاط ، وبكيت على صفحات الكاتب لفرط الثقة والفرح ، وكأننى بين أحضان أب التقيت به ثانية .

تخيلت ، من خلال كتب برجوت ، أنه عجوز ضعيف خائب الأمل فقد أبناءه ولم يتعز عن فقدانهم أبداً . لذا ، كنت أقرأ نثره ، وأغنيه فى داخلى ، ربما بطريقة أعذب وأبطأ من الطريقة التى كتب بها . وكانت أبسط جملة تخاطبنى بنبرة حنون . كنت أحب فلسفته أكثر من أى شىء آخر ، ووهبت نفسى لها إلى الأبد . وكانت تجعلنى أتعجل اللحظة التى أبلغ فيها سن دخول المدرسة ، والقسم المسمى قسم الفلسفة . لكنى كنت أريد أن تدرس فيه الحياة بفكر برجوت . ولو أنه قيل لى آنذاك : إن علماء الميتافيزيقا الذين سأتعلق بهم يشبهونه فى شىء ، لأحسست بخيبة أمل العاشق الذى يريد أن يحب مدى الحياة ، ويحدثونه عن العشيقات الأخريات اللاتى سيعشقهن فيما بعد .

وفى يوم أحد ، بينما كنت أقرأ فى الحديقة ، أزعجنى سوان ، وكان قد جاء لرؤية والدى :

— « ماذا تقرأ ؟ ممكن أن أرى ؟ آه ، كتاباً لبرجوت ، من الذى أشار عليك بقراءة مؤلفاته ؟ »

فقلت له : « بلوك » .

— « آه ! الصبى الذى رأيته هنا مرة ، ويشبه كثيراً الصورة التى رسمها بلليني لمحمد الثانى . إنه لشىء ملفت للنظر ، فهو يشبهه بحاجبيه المرفوعين ، وأنفه المقوس ، ووجنتيه البارزتين . وسيكون نفس الشخص ، عندما تنبت لحيته . ذوقه حسن ، على أية حال ، لأن برجوت كاتب ذو فكر ساحر » . وإذ رأى سوان إلى أى حد أحب برجوت ، خالف القاعدة التى تجعله لا يتحدث أبداً عن الناس الذين لا يعرفهم ، وقال لى :

— « أعرفه معرفة وثيقة ، وإذا كان يسرك أن يكتب لك كلمة فى مقدمة كتابك ، يمكن أن أطلب منه ذلك » .

لم أجرؤ على القبول ، لكنى سألته عن برجوت : « هل تستطيع أن تقول لى أى الممثلين يفضل ؟ » .

— « لا أدرى ، لكنى أعرف أنه لا يقارن أى فنان بالفنانة لا برما التى يضعها فوق الجميع . أسمعتها ؟ »

— « لا يا سيدى ، فوالدى لا يسمحان لى بالذهاب إلى المسرح » .

— « شىء مؤسف . يجب أن تطلب منهما ذلك . فى « فيدرا » و « السيد » ، لا برما ممثلة ليس إلا ، إذا شئت ، لكنى لا أومن كثيراً « بتدرج » الفنون كما تعلم (ولاحظت ، وكثيراً ما لفت نظرى فى أحاديثه مع أخوات جدتى أنه ، عندما يتحدث عن الأشياء الجادة ، أو يستخدم عبارة تتضمن رأياً فى موضوع هام ، يعنى بعزلها بنبرة خاصة ، آلية ساخرة ، كأنه يضعها بين قوسين ، ويتظاهر بأنه لا يريد أن تحسب عليه ، فيقول : « التدرج كما يقول السفهاء » لكن ، إذا كان ذلك سفهاً ، لم استخدم كلمة التدرج إذن ؟ واضاف قائلا ، بعد ذلك بلحظة : « سيقدم لك ذلك رؤية تعادل فى سموها أى عمل رائع ، قد يكون . . — وأخذ يضحك — « ملكات شارتر » . كانت كراهيته للتعبير جدياً عن رأيه قد بدت لى حتى هذه اللحظة وكأنها شىء أنيق باريسى حتماً ، شىء يتعارض مع النزعة العقائدية الريفية عند أخوات جدتى . وأحسست أيضاً

أنها شكل من الأشكال الذهنية السائدة فى الزمرة التى يعيش بينها سوان ، تلك التى تبالغ فى ردالاعتبار إلى الوقائع الصغيرة المحددة التى قيل فيما مضى إنها مبتذلة ، وتحرم « الحمل » . لكنى أجد الآن شيئاً يصدمنى فى هذا الموقف الذى يتخذه سوان أمام الأشياء. كان لا يجرؤ ، فيما يبدو ، على إبداء رأيه ، ولا يرتاح إلا إذا استطاع أن يعطى بعض المعلومات المحددة بدقة . لكن ، أو لم يكن يدرك إذن أن هذا يعنى المجاهرة بالرأى ، والتسليم بأن صحة هذه التفاصيل ذات أهمية ؟ فكرت عندئذ مرة أخرى فى ذلك العشاء الذى حزنت له كثيراً لأن أمى لم تتمكن بسببه من الصعود إلى غرفتى ، والذى قال أثناءه إن الحفلات الراقصة عند الأميرة دى ليون ليست لها أية أهمية . ومع ذلك ، كان يشغل حياته بهذا النوع من المتع . رأيت أن كل هذا متناقضاً . لأى حياة أخرى كان يحتفظ بابداء رأيه جدياً فى الأشياء ، وإصدار الأحكام التى لا يستطيع وضعها بين قوسين ، وعدم الاستسلام بأدب جم لمشاغل يعلن ، فى الوقت نفسه ، أنها سخيفة ؟ لاحظت أيضاً ، فى الطريقة التى حدثنى بها سوان عن برجوت ، شيئاً لم يكن خاصاً به ، بل كان ، على عكس ذلك ، مشتركاً بينه وبين كل المعجبين بهذا الكاتب ، وصديقة أمى ، والدكتور بولبون . كانوا يقولون عن برجوت ، كما يقول سوان : « إنه صاحب فكر ساحر ، وخاص للغاية ، وله طريقة فريدة فى قول الأشياء ، مع طنطنة بعض الشىء ، لكنها لطيفة جداً . لسنا بحاجة إلى رؤية التوقيع ، فنحن نعرف على الفور أن الكتاب من تأليفه » . لكن ما من أحد منهم كان يذهب إلى حد قول « إنه كاتب كبير ، ذو موهبة فائقة » ، بل كانوا لا يقولون حتى أنه موهوب. كانوا لا يقولون ذلك لأنهم لا يعرفونه . فنحن لا نتعرف ، فى الوجه الخاص بكاتب جديد ، على النموذج الذى يقال إنه موهوب جداً ، فى متحف أفكارنا العامة ، إلا بعد فترة طويلة جداً . ولأن هذا الوجه بالذات جديد ، لا نرى تماماً أنه يشبه ما نسميه موهبة ، بل نقول بالأحرى إنه ابتكار ، أو سحر ، أو رقة ، أو قوة . وذات يوم ، ندرك أن كل هذا هو الموهبة . سألت سوان :

— « هل كتب برجوت كتباً تحدث فيها عن لا بيرما » ؟

— « اعتقد أنه تحدث عنها فى كتيب صغير عن راسين ، لكن طبعته نفذت بلاشك . وربما أعيد طبعه . سأسأل عن ذلك . فضلا عن أننى أستطيع أن أطلب من برجوت كل ما تريد . فلا يمضى أسبوع بدون أن يتناول العشاء عندنا . إنه صديق عزيز لإبنتى وهما يذهبان معاً لزيارة المدن القديمة ، والكاتدرائيات ، والقصور » .

وبما أننى كنت افتقر إلى أية فكرة عن السلم الإجتماعى ، كانت استحالة مخالطتنا لمدام ومدموازيل سوان ، فى رأى أبى ، قد أدت ، من مدة طويلة ، إلى إعطائهما شيئاً من الهيبة فى نظرى ، وجعلتنى أتخيل مسافات كبيرة بينهما وبيننا . وندمت لأن أمى لا تصبغ شعرها ، ولا تضع أحمر الشفاه ، عندما سمعت جارتنا مدام سيزراه تقول إن مدام سوان تفعل ذلك لتعجب مسيو دى شارلوس لا زوجها . وظننت أنها تحتقرنا بلا شك . وكان هذا يؤلمنى بصفة خاصة بسبب مدموازيل سوان ، التى قيل لى إنها فتاة حلوة ، وكثيراً ما كنت أحلم بها وأعطيها فى كل مرة نفس الوجه الساحر . لكن ، عندما علمت فى ذلك اليوم أن الآنسة سوان مخلوق نادر إلى هذا الحد ، وأنها تسبح وسط كل هذه الامتيازات كما لو كانت فى بيئتها الطبيعية ، وأن والديها يقولان لها ، عندما تسألهما عما إذا كان أحد قد دعى إلى تناول العشاء ، بحروف مليئة بالنور ، إن الضيف الغالى ليس سوى صديق قديم للاسرة : برجوت ، وإن الحديث الحميم حول المائدة ، وهو يقابل حديث عمتى الكبرى بالنسبة لى ، هو كل ما سيقوله برجوت فى الموضوعات التى لم يتطرق إليها فى كتبه وكنت أود سماع رأيه فيها ، وإنه يسير بجانبها ، مجهولا ، فخوراً ، عندما تذهب لزيارة بعض المدن كالآلهة التى تنزل بين البشر ، كنت أحس فى آن واحد بقيمة مدموازيل سوان كانسان ، وأننى قد أبدو لها فظاً جاهلا . وتملكنى شعور قوى بحلاوة مصادقتى لها واستحالتها ، لدرجة أننى امتلأت بالرغبة واليأس فى نفس الوقت . ويحدث فى أغلب الأحيان الآن ، عندما أفكر فيها ، أن أراها أمام مدخل كاتدرائية وهى تشرح لى معنى التماثيل ، وتقدمنى لصديقها برجوت بابتسامة تقول عنى خيراً . ودائماً سحر الأفكار التى تولدها فى الكاتدرائيات ، وسحر منحدرات ليل دى فرانس وسهول نورماندى ، سحر تنعكس ظلاله على الصورة التى كونتها عن الآنسة سوان : وكان هذا يعنى الاستعداد التام لحبها . وأن نعتقد أن إنساناً يساهم فى حياة مجهولة قد يدخلنا فيها حبه هو أكثر شيء يحرص عليه الحب ، من بين كل ما يتطلبه لكى يولد ، هو الشى الذى يجعله يتغاضى عن كل ما تبقى . حتى النسوة اللاتى يزعمن أنهن لا يحكمن على الرجل إلا من شكله ، يرين فى الشكل انبثاقاً لحياة خاصة . لذا ، يشعرن بالحب نحو العسكريين ، ورجال المطافئ . فالزى الموحد يجعلهن أقل تشدداً بالنسبة للوجه ، ويعتقدن أنهن يقبلن تحت الدرع قلباً مختلفاً ، مغامراً ، رقيقاً . والعاهل الشاب أو ولى العهد ليس فى حاجة إلى الشكل المتسق المنسجم ، وربما كان لابد منه لسمسار فى البورصة لكى يقوم بأنجح غزواته فى البلاد الأجنبية التى يزورها .

وبينما كنت أقرأ فى الحديقة ، وهو عمل لم تكن عمتى الكبرى تفهم أن أقوم به فى يوم غير يوم الأحد ، أى يوم ممنوع فيه على المرء أن يقوم بعمل جاد ، وتتوقف فيه عن الحياكة (ولو أننى فعلت ذلك فى يوم من أيام الأسبوع لقالت لى : « ماذا ؟ أما زلت تلهو بالقراءة ، مع أن اليوم ليس الأحد ؟ » وهى تعطى كلمة تلهو معنى التصرف الصبيانى وضياع الوقت) ، كانت العمة ليونى تتحدث إلى فرانسواز وهى فى انتظار أولالى ، وأخبرتها أنها رأت لتوها مدام جوبى تمر « بلا مظلة ، فى الثوب الحريرى الذى فصلته فى شاتودان . وإذا كان لديها مشوار طويل قبل صلاة العصر ، فمن الممكن جداً أن تبتل من المطر » .

— « يمكن ، (وربما كانت تقصد « لا ») » ، هذا ما قالته فرانسوار ، لكى لا تستبعد نهائياً امكانية اختيار أفضل من هذا. قالت العمة وهى تضع يدها على جبينها :

— « آه ! يذكرنى ذلك بأننى لم أعرف ما إذا كانت قد وصلت إلى الكنيسة بعد رفع كأس القربان أم لا . يجب أن أسأل أولالى عن ذلك . . . انظرى ، يا فرانسواز ، إلى هذه السحابة السوداء خلف برج الأجراس ، وهذه الشمس الكريهة فوق الأردواز . طبعاً ، لن يمر النهار بدون أن يسقط المطر . لم يكن من الممكن أن يظل الجو على هذا الحال لأنه كان حاراً جداً . ولو أن المطر سقط فى وقت مبكر ، لكان ذلك أفضل ، لأن ماء ڤيشى لن ينزل طالما أن العاصفة لم تنفجر . هذاما أضافته عمتى ، وكانت رغبتها فى التعجيل بنزول ماء ڤيشى تفوق كثيراً ، فى ذهنها ، خوفها على ثوب مدام جوبى من البلل .

— « ربما ، ربما » .

وصاحت عمتى فجأة وقد شحب لونها : « وعندما يسقط المطر على الميدان ؟ لا توجد ظلة كبيرة . ماذا ؟ الساعة الآن الثالثة ؟ ؟ بدأت صلاة العصر إذن ؟ ونسيت البيبسين ؟ فهمت الآن لماذا ظل ماء فيشى فى معدتى ! »

وسارعت إلى كتاب القداس المجلد بالمخمل البنفسجى المذهب . وفى عجلتها ، سقطت منه بعض هذه الصور التى يحيط بها شريط من الورق المفرغ المصفر وتشير إلى صفحات الأعياد . وفى الوقت الذى ابتلعت العمة فيه دواءها ، أخذت تقرأ بأسرع ما يمكن ، النصوص المقدسة التى ازدادت غموضاً فى نظرها ، إلى حدما ، لأنها لا تعرف

ما إذا كانت البيبسين لا تزال قادرة على اللحاق بماء ڤيشي وإنزاله ، بعد أن شربتها بعده بمدة طويلة : « الساعة الثالثة ؟ غير معقول ! كم يمر الوقت بسرعة ! »

ضربة خفيفة على الزجاج ، كأن شيئاً قد اصطدم به ، تلاها سقوط خفيف ، كأن حبات من الرمال قد سقطت من نافذة عليا ، ثم امتد السقوط ، وانتظم ، واتخذ ايقاعاً ، وأصبح منساباً ، رناناً ، موسيقياً ، لا يحصى ، عالمياً : سقط المطر . —

— « أرأيت يافرانسواز ؟ ماذا قلت لك ؟ كم هو غزير ! لكني اعتقد أنني سمعت جرس باب الحديقة . اذهبي ، وتبيني من يمكن أن يكون خارج داره فى جو كهذا » . عادت فرانسواز .

— « إنها مدام أميديه (جدتى) . قالت إنها ستقوم بجولة ،مع أن المطر غزير» . قالت عمتى وهى ترفع عينيها إلى السماء :

— « تصرفها هذا لا يدهشنى . لقد قلت دائماً إنها لا تفكر كسائر البشر . أفضل ان تكون فى الخارج الآن بدلا منى » .

قالت فرانسواز برقة ، واحتفظت للحظة التى تنفرد فيها بالخدم الآخرين بقولها إن جدتى « مجنونة » إلى حد ما :

— « مدام اميديه تناقض الآخرين دائماً » .

وتنهدت العمة وقالت : « ها هو ذا السلام قد انتهى ! لن تحضر أولالى . لاشك أن الجو هو الذى أخافها » .

—« لكن الساعة لم تبلغ الخامسة ، يا مدام أوكتاف ! الساعة الآن الرابعة والنصف فقط » .

— «الرابعة والنصف فقط ؟ واضطررت أن أرفع الستائرالصغيرة لأرى شعاعاً باهتاً من النهار ؟ فى الرابعة والنصف ؟ وقبل صلوات الربيع بثمانية أيام ؟ آه ، يا مسكينتى فرانسواز لاشك أن الله غاضب جداً علينا . كما أن الناس يبالغون اليوم . وكما قال عزيزى أوكتاف نسى الناس الله كثيراً . لذا ، فهو ينتقم » .

علا وجنتى عمتى احمرار واضح . وجاءت أولالى ، ولسوء الحظ ، لم تكد تدخل حتى عادت فرانسواز . وبابتسامة تهدف بها إلى الإشتراك فى الفرحة التى ستبعثها

كلماتها فى نفس عمتى بلا شك ، نقلت ، وهى تلفظ مقاطع الكلمات بوضوح لتثبت أنها ، رغم استخدامها الأسلوب غير المباشر ، تنقل كخادمة ممتازة ، نفس الكلمات التى تنازل الزائر واستخدمها :

— «سيكون الخورى سعيداً ومسروراً ، لو أن مدام أوكتاف استقبلته ، هذا إذا كانت لم تخلد إلى الراحة بعد . فالخورى لايريد أن يزعجها . الخورى تحت ، وقلت له أن يدخل إلى الصالة » .

فى الواقع ، كانت زيارات الخورى لا تمتع عمتى كما تظن فرانسواز . والفرح التى كانت فرانسواز تعتقد أن لا بد من ارتسامه على وجهها ، فى كل مرة تعلن فيها عن قدومه لم يكن متفقاً كل الاتفاق مع مشاعر المريضة. فالخورى (وهو رجل ممتاز أندم لأننى لم أتحدث معه كثيراً، لأنه لا يفقه شيئاً فى الفنون ، ويعرف الكثير عن أصول الكلمات) الذى اعتاد أن يقدم لكبار الزوار معلومات عن الكنيسة (بل كان ينوى أن يكتب كتاباً عن ابراشية كومبريه)، كان يرهق عمتى بالتفاصيل التى لا تنتهى ، فضلا عن أنها كانت هى هى دائماً . كانت زيارته تثقل على نفس عمتى صراحة إذا ما اتفقت زمنياً مع زيارة أولا لى . فلقد كانت تفضل أن تستفيد من أولالى ، وألا يأتى الاثنان فى وقت واحد . لكنها لا تجرؤ على عدم استقبال الخورى ، وكانت تكتفى بالإشارة إلى أولالى حتى لا تذهب عندما يذهب ، وتبقى قليلا معها على انفراد ، بعد رحيله .

— « يا سيدى الخورى ، أصحيح ما قيل ، إن فناناً وضع حامله فى كنيستك لينقل زجاجية ؟ يمكن أن أقول إننى لم أسمع عن شىء كهذا طوال حياتى . ما الذى يبحث عنه الناس اليوم ؟ فضلا عن إنها أقبح شىء فى الكنيسة ! »

— «لن أذهب إلى حد القول إنها أقبح شىء فى الكنيسة ! فاذا كانت توجد فى سانت هيلير ، كنيستى المسكينة ، أجزاء جديرة بالزيارة ، فان فيها أيضاً أجزاء قديمة للغاية ؛ إنها الوحيدة فى الأسقفية كلها التى لم ترمم . صحيح أن مدخلها قذر قديم ، لكنه جليل الطابع . دعنا من اللوحات التى تمثل « استير » ، ولا يمكن أن أدفع شخصياً مللييمين ثمناً لها ، وإن كان الخبراء يضعونها بعد لوحات سانس مباشرة . وأعترف بأن فيها بعض التفاصيل التى تشهد على قدرة حقيقية على الملاحظة ، إلى جانب تفاصيل واقعية إلى حدما . لكن ، بالله عليكم ، لا تحدثونى عن الزجاجيات ! هل يعقل أن

تترك نوافذ لا يدخل منها النور ، بل تخدع البصر بانعكاسات لون لا أستطيع أن أحدده فى كنيسة لا توجد فيها بلاطتان فى نفس المستوى ، ويرفضون استبدال بلاطها بآخر بحجة أنه يضم رفات قساوسة كومبريه وسادة جرمونت وآل دى برابون ؟ وهم الأسلاف المباشرون لدوق جرمونت والدوقة ، مادام زوجها ابن عمها (كانت جدتى قد انتهت إلى خلط كل الأسماء لعدم اكتراثها بالأشخاص الذين يحملونها . وفى كل مرة كانت تسمع فيها اسم الدوقة دى جرمونت ، كانت تزعم أنها بلا أدنى شك قريبة لمدام دى ڤلياريزيس . عندئذ ، كان الجميع ينفجرون فى الضحك ، وتحاول هى أن تدافع عن نفسها ، وتتحجج بدعوة تلقتها وتقول : « يخيل إلى ، على ما أذكر ، أن كان فيها شيء عن جرمونت . عندئذ فقط ، كنت اتفق مع الآخرين ولا اتفق معها ، لأننى لا أستطيع أن أسلم بوجود أى علاقة بين زميلتها فى الدراسة وسليلة جنفييف دى برابون) . انظروا إلى روسانفيل . لم تعد اليوم إلا ابراشية مزارعين ، مع أنها كانت فيما مضى مدينة بشهرتها لتجارة القبعات الجوخ وساعات الحائط (لست متأكداً من أصل كلمة روسانفيل ، وأميل إلى اعتقاد أن اسمها الحقيقى كان « روڤيل — رادولفى ڤيلا » ، لكن ، سأحدثكم عن ذلك فى مقام آخر) . زجاجيات كنيستها رائعة ، وكلها تقريباً حديثة ؛ وانظروا إلى اللوحة المهيبة المسماة « دخول لوى فيليب إلى كومبريه » ! قد تكون كومبريه مكاناً أكثر ملاءمة لها ، ويقال إنها تعادل زجاجيات شارتر الشهيرة . لقد رأيت بالأمس فقط أخا الدكتور برسبييه ، وهو هاوى ، ينظر إليها باعتبارها عملا رائعاً . لكن ، كما قلت لذلك الفنان الذى يبدو مؤدباً جداً ، ويقال إنه رسام بارع حقاً : أى شيء خارق للعادة ترى فى هذه الزجاجية التى تفوق قتامتها قتامة الأخريات ؟ »

قالت عمتى بتراخى ، لأنها بدأت تعتقد أنها ستتعب : « أنا متأكدة أن الأسقف لن يرفض إعطاءك زجاجية جديدة ، إذا طلبت منه ذلك » . ورد الخورى قائلا : « دعك من الآمال يا مدام أوكتاف ! فالأسقف بالذات هو الذى بادر بلغت النظر إلى هذه الزجاجية التعسة ، عندما أثبت أنها تمثل چيلبر لى موڤيه ، سيد جرمونت ، السليل المباشر لجنفييف دى برابون التى كانت من آل جرمونت ، وهو يتلقى غفران سانت هيلير .

— « لكنى لا أرى سانت هيلير . أين هو ؟ »

— « فى ركن الزجاجية . أو لم تلاحظى أبداً سيدة تلبس ثوباً أصفر ؟ إنها سانت هيلير ، الذى يدعى أيضاً ، كما تعلمون ، فى بعض المقاطعات ، سان ايلييه و سان إلييه ، بل و سان ايلى ، فى مقاطعة الجوراه . وهذا التحريف لعبارة « Sanctus Hilarius » ليس أغرب تحريف طرأ على أسماء القديسين . على سبيل المثال ، أتعرفين ياعزيزتى أولالى إلى أى اسم تحول اسم راعيتك ، القديسة أولاليا ، فى مقاطعة بورجونى ؟ أصبح اسمها سان ايلواه ، بكل بساطة : القديسة أصبحت قديساً . هل تتصورين يا أولالى تحولك إلى رجل بعد مماتك ؟ » — « سيدى الخورى دائم المزاح » — « كان شارل لى بيج ، أخو چلبير ، أميراً تقياً فقده والده — بيبان المعتوه الذى مات نتيجة لإصابته بمرض عقلى — وهو بعد صغير ، فمارس السلطة العليا بتهور الشباب الذى يفتقر إلى النظام . فعندما كان لا يروقه وجه شخص فى إحدى المدن ، كان يأمر بقتل كل من فيها ، حتى آخر سكانها . أراد چلبير أن ينتقم من شارل ، فأمر باحراق كنيسة كومبريه ، الكنيسة الأولى ، الكنيسة التى وعد تيودبير ، وهو يغادر مع رجال بلاطه بيته الريفى القريب من هنا ، فى تيبرزى ، ببنائها فوق قبر سانت هيلير ، إذا كتب له هذا القديس النصر . ولم يبق منها إلا القبو الذى نزلت فيه مع تيودور بلا شك ، مادام چلبير قد أحرق ما بقى منها . وبعد ذلك ، هزم شارل المسكين ، بمساعدة غيوم لى كونكيرون ؛ لذا ، يأتى كثير من الانجليز للزيارة . لكن ، يبدو أنه لم يعرف كيف يكسب ود سكان كومبريه . لذلك ، انقضوا عليه وهو خارج من القداس وقطعوا رأسه . ثم إن تيودور يعير لمن يريد كتاباً صغيراً يفسر كل هذا . لكن ، أغرب شىء فى كنيستنا بلا جدال هو ذلك المنظر الذى يرى من برج الأجراس . إنه منظر رائع . وبما أن صحتك ليست على ما يرام ، لن أنصحك طبعاً بصعود درجات السلم ، وعددها سبعة وتسعين ، أى نصف قبة ميلانو الشهيرة بالضبط . حتى الشخص الذى يتمتع بصحة جيدة يمكن أن يتعب منها ، لا سيما أنه يجب أن ينحنى تماماً إذا أراد ألا يتحطم رأسه ، ويجمع بملابسه خيوط عنكبوت السلم . على أية حال ، لابد أن تتدثرى — أضاف هذا بدون أن يرى الغضب الذى استولى على عمتى لمجرد تفكيرها فى إمكانية صعودها إلى برج الأجراس — ، لأن تيارات الهواء تشتد عندما يصل المرء إلى أعلى البرج . ويؤكد البعض أنهم أحسوا فى هذا المكان ببرودة الموت . لا أهمية لهذا . فأيام الأحد ، تأتى دائماً مجموعات ، ولو من بعيد جداً ، لتتأمل جمال البانوراما ، وتعود وهى مفتونة . ويوم الأحد القادم ، إذا ظل الجو جميلا ، ستجدين بالتأكيد كثيراً من الناس ، لأنه يوم صلوات الربيع . علاوة على ذلك ،

لابد من الاعتراف بأن العين تستمتع من هنا بمنظر ساحر ، فيه أماكن ينفذ منها البصر إلى السهل ولها طابع خاص للغاية . وإذا كان الجو صحواً ، يمكن أن يمتد البصر حتى فرنوى وبصفة خاصة ، يلم المرء فى آن واحد بأشياء لا يستطيع أن يراها عادة إلا منفردة ، مثل مجرى الڤيڤون وخنادق سان اسير لى كومبريه ، ويفصل بينها وبين النهر ستار من الاشجار العالية ، أو قنوات چوى لى ڤيكونت المختلفة . وفى كل مرة ذهبت فيها إلى چوى لى فيكونت ، رأيت فعلا طرفاً من القناة ، ثم رأيت قناة أخرى ، بعد انعطاف فى أحد الشوارع ، وعندئذ ، غابت القناة الأولى عن بصرى . ولم أكن أحصل على أثر يذكر ، كلما حاولت أن أضعهما معاً ذهنياً . أما من أعلى برج أجراس سانت هيلير ، فكان الأمر مختلفاً تماماً ، لأن الناحية تدخل فى شبكة كاملة . كل ما هنالك أن العين لا تميز المياه ، كأن شقوقاً كبيرة تقسم المدينة إلى أحياء ، وتجعلها تشبه كعكة تماسكت أجزاؤها ، وإن كان قد سبق تقطيعها . ولكى يكون كل شيء على ما يرام ، كان لا بد أن يكون المرء فى آن واحد فى برج أجراس سانت هيلير وچوى لى ڤيكونت ».

كان الخورى قد أجهد عمتى لدرجة أنه لم يكد يرحل حتى اضطرت إلى أن تطلب من أولالى الانصراف . وقالت بصوت خافت ، وهى تأخذ قطعة نقود من كيس صغير قريب منها : « خذى يا عزيزتى أولالى ، لا تنسينى فى صلواتك ! »

— « لا يا مدام أوكتاف ! لا أدرى ما إذا كان يجب أن آخذها ، فأنت تعلمين حق العلم أننى لا آتى من أجل هذا ! » هذا ما كانت تقوله أولالى فى كل مرة ، بنفس التردد ونفس الحرج ، كأنها تفعل ذلك لأول مرة ، وبغضب ظاهرى كان يفرح عمتى ويروق لها . وكانت عمتى تقول ، إذا أبدت أولالى يوماً قدراً من الخجل أقل من العادة وهى تأخذ قطعة النقود :

— « لا أعرف ماذا أصاب أولالى ؛ مع أننى أعطيتها ما أعطيه لها عادة ، لم تكن مسرورة فيما يبدو » .

فكانت فرانسواز تتنهد وتقول : « اعتقد أنه ليس لديها أى سبب للشكوى » ، لأنها تميل إلى اعتبار كل ما تعطيه عمتى لها ولأولادها « فكة » ، وقطع النقود الصغيرة التى توضع كل يوم أحد فى يد أولالى ، بطريقة لا تمكن فرانسواز من رؤيتها أبداً ، كنوزاً تبددبجنون من أجل إنسانة ناكرة للجميل . ولا يعنى هذا أن فرانسواز كانت

تريد أن تعطى لها عمتى النقود التى تعطيها لأولالى . فلقد كانت تستمتع بما تملك عمتى مما فيه الكفاية ، لأنها تعرف أن ثروة السيدة ترفع فى الوقت نفسه من شأن خادمتها ، وتجملها فى نظر الجميع . وأنها ، أى فرانسواز ، عظيمة ومجيدة فى كومبريه وجوى لى ڤيكونت وأماكن أخرى ، بفضل مزارع عمتى العديدة ، وزيارات الخورى المتكررة ، وعدد زجاجات مياه ڤيشى التى تستهلكها ، وهو عدد لا نظير له . لم تكن بخيلة إلا بالنسبة لعمتى . ولو أن هذه الأخيرة عهدت إليها بالتصرف فى ثروتها ، وهذا ما كانت تحلم به ، لحافظت عليها من تعديات الغير بوحشية الأم . ومع ذلك ، قد لا ترى ضرراً كبيراً فى استسلام عمتى للعطاء ، وكانت تعلم أن لا أمل فى شفائها من هذا الداء ، لو أنه خص الأغنياء على الأقل . فربما ظنت أنه لا شك فى حب هؤلاء الأغنياء لعمتى ، لأنهم لا يحتاجون إلى هداياها ، فضلا عن أن هذه الهدايا كانت تقدم لأشخاص أثرياء ، مدام سزراه ، ومسيو سوان ، ومسيو لوجراندان ، ومدام جوبى ، أى أشخاص من « مرتبة » عمتى « يليق بعضهم بالبعض الآخر » . لذا ، كانت فرانسواز تنظر إلى هذه الهدايا على أنها من عادات الحياة الغريبة البراقة التى يحياها الأثرياء الذين يذهبون للصيد ، ويقيمون الحفلات الراقصة ، ويتزاورون ، وتعجب بهم وهى تبتسم . لكن الأمر كان يختلف إذا كان المستفيدون من كرم عمتى من أولئك الذين تسميهم فرانسواز « أناساً مثلى ، لا أحسن منى » . كان هؤلاء أكثر من تحتقرهم ، اللهم إلا إذا دعوها « مدام فرانسواز » ، واعتبروا أنفسهم « أقل منها » . وعندما رأت أن عمتى تفعل ما يحلو لها بالرغم من نصائحها ، وتبدد المال — فى رأى فرانسواز على الأقل — من أجل مخلوقات لا تستحقه ، بدأت ترى أن المبالغ التى تهبها لها عمتى قليلة ، إذا ما قورنت بالمبالغ الخيالية التى تهبها لأولالى . لم توجد فى ضواحى كومبريه مزرعة كبيرة لم تفترض فرانسواز أن أولالى قادرة على شرائها بسهولة ، بكل ما تدره عليها زياراتها . والواقع أن أولالى كانت تظن أن فرانسواز تملك ثروة طائلة خفية . وعادة ما كانت فرانسواز لا تترفق باولالى عندما تتحدث عنها بعد رحيلها . كانت تكرهها ، لكنها تخاف منها ، وتعتقد أن عليها أن تبدو « بوجه بشوش » عندما تحضر . كانت تسترد حقها بعد رحيلها ، لكن بدون أن تنطق باسمها ، بل تنطق بنبوءات غامضة ، أو أحكام عامة كأحكام سفر العهد القديم ، ولم يكن اسم المقصودة بها يغيب عن عمتى ، بطبيعة الحال . كانت تقول ، وهى ترفع طرف الستار لترى ما إذا كانت أولالى قد أغلقت الباب : « يعرف المنافقون كيف يحوزون الرضا ، ويجمعون المال . لكن ، صبراً فسينزل الله

بهم العقاب ذات يوم » ، بنظرة جانبية وتلميح كأنه تلميح جواس الذى لا يفكر إلا فى آتالى وهو يقول : « سعادة الأشرار تسيل كالشلال » .

ولما كان الخورى يحضر ، وينهك قوى عمتى بزياراته التى لا تنتهى ، كانت فرانسواز تخرج من الغرفة خلف أولالى وتقول : « مدام أوكتاف ، سأذهب لكى ترتاحى. يبدو أنك متعبة جداً » . وكانت عمتى لا تتكبد مشقة الرد عليها ، وتتنهد تنهيدة تبدو وكأنها التنهيدة الأخيرة ، وهى مغمضة العينين ، وشبه ميتة . لكن ، لا تكاد فرانسواز تهبط الدرج حتى ترن فى البيت أربع دقات عنيفة كل العنف . كانت عمتى تنتصب فوق فراشها وتصرخ قائلة : « هل ذهبت أولالى ؟ تخيلى أننى نسيت أن أسألها عما إذا كانت مدام جوبى قد وصلت إلى الكنيسة بعد رفع كأس القربان ؟ ! اسرعى والحقى بها ! »

وكانت فرانسواز تعود بخفى حنين ، لأنها لم تتمكن من اللحاق بأولالى .

فتهز عمتى رأسها وتقول : « أنا مغتاظه ؛ فهذا هو الشىء الوحيد الهام الذى كنت أريد أن أسألها عنه ! » .

هكذا كانت تمضى حياة العمة ليونى ، متماثلة دائماً ، فى رتابة هادئة تسميها بازدراء مفتعل وحنان عميق « رتابة بسيطة » . كان الجميع يحافظون على هذه الرتابة ، لا فى البيت فحسب ، حيث أحس الجميع بأن لا جدوى من نصحها بحياة صحية أفضل ، واستسلموا تدريجياً لاحترام تلك الرتابة ، وإنما فى القرية أيضاً . فلقد كان المكلف بتغليف الطرود يسأل فرانسواز عما إذا كانت عمتى « ترتاح » ، قبل أن يدق المسامير فى صناديقه ، على بعد ثلاثة شوارع منا . وتعكر صفو هذه الرتابة مرة واحدة فى تلك السنة . ذات ليلة ، جاء فجأة الخلاص للخادمة ، كأنه ثمرة خفية نضجت ولم تر ، وسقطت فجأة . كانت آلامها لا تحتمل . ولأنه لا توجد « داية » فى كومبريه ، اضطرت فرانسواز أن تذهب للإتيان « بداية » من تيبرزى قبل طلوع النهار . ولم تتمكن عمتى من الراحة ، لأن الخادمة كانت تصرخ. ولم تعد فرانسواز إلا فى وقت متأخر جداً ، بالرغم من قصر المسافة . لذا ، افتقدتها عمتى كثيراً ، وقالت لى أمى فى الصباح : « اصعد لترى ما إذا كانت عمتك فى حاجة إلى شىء » . دخلت الغرفة الأولى ، ومن خلال الباب المفتوح ، رأيت عمتى ترقد على جنبها وهى نائمة ؛ سمعتها تشخر قليلا . وأوشكت على عودة أدراجى بهدوء . لكن ، لاشك

أن صوت دخولى تدخل فى نومها و « غير سرعته » ، كما يقال عن السيارات، لأن موسيقى الشخير توقفت لحظة ، وعادت بدرجة أقل . ثم استيقظت العمة ، وأدارت نصف وجهها الذى استطعت أن أراه عندئذ . كان يعبر عن لون من الرعب . من الواضح أنها كانت تحلم حلماً فظيعاً . وكان وضعها لا يسمح لها برؤيتى . فبقيت فى مكانى ، لا أدرى هل أتقدم أم أنصرف . لكنها عادت إلى الإحساس بالواقع فيما يبدو ، وأدركت أن الرؤى التى أفزعتها كاذبة . فأضاءت وجهها ابتسامة فرح وامتنان تقى لله الذى يسمح بأن تكون الحياة أقل قسوة من الأحلام . وهمست ، كما اعتادت أن تحدث نفسها بصوت خافت كلما اعتقدت أنها بمفردها : « شكراً لله . لا متاعب لدينا ، إلا الخادمة التى تلد . كنت أحلم بأن أوكتاف المسكين قد عاد إلى الحياة وأنه يريد منى أن أقوم بنزهة كل يوم » . ومدت يدها إلى مسبحتها فوق المنضدة الصغيرة ، لكن النعاس العائد جعلها تعجز عن الوصول إليها : فعاودت النوم وهى مطمئنة . وخرجت بلا ضجة من الغرفة ، ولم أخبرها ، ولم أخبر أحداً أبداً بما سمعت .

وعندما أقول : إن حياة عمتى الرتيبة لم تخضع أبداً للتغيير ، فيما عدا بعض الأحداث النادرة للغاية ، كحادث الولادة هذا ، لا أقصد بقولى هذا التغييرات التى تتكرر دائماً على فترات منتظمة ، ولا تدخل بالتالى إلا نوعاً من الرتابة الثانوية على الرتابة ذاتها . على سبيل المثال ، كان الجميع يتناولون الغداء قبل موعده بساعة ، أيام السبت ، لأن فرانسواز تذهب بعد الظهر إلى سوق روسانفيل لوبان . وكانت عمتى قد اعتادت هذا الخروج الأسبوعى عن عاداتها ، لدرجة أنها كانت تتمسك به بقدر ما تتمسك بعاداتها الأخرى . وأصبح الأمر « روتينياً » بالنسبة لها ، على حد قول فرانسواز ، لدرجة أن انتظارها لساعة الغداء المعتادة يوم السبت كان « يزعجها » بنفس القدر الذى تنزعج به إذا اضطرت إلى تناول الغداء بعد موعده بساعة فى يوم آخر . علاوة على أن تقديم موعد الغداء كان يعطى لوجه يوم السبت ، بالنسبة لنا جميعاً ، وجهاً خاصاً ، طيباً ظريفاً . ففى اللحظة التى كان يتبقى لنا فيها ، عادة ، ساعة نحياها قبل راحة الغداء ، كنا نعرف أننا سنجد بعد بضع لحظات ، « بشائر » لعاع ، وعجة خاصة ، « وبفتيك » مخصوص . وكانت عودة يوم السبت الخارج عن التنظيم أحد تلك الأحداث الداخلية المحلية الصغيرة الوطنية تقريباً ، التى تخلق فى الحياة الهادئة والمجتمع المغلق ، نوعاً من الرابطة ، وتصبح مادة مختارة للحديث والدعابة والقصص المبالغ فيها بلا داع . ولو أن أحدنا كان ملحمى التفكير ، لأصبح يوم السبت نواة

مهيأة تماماً للقصائد الأسطورية . كان بعضنا يقول للبعض الآخر ببشاشة ومودة ، بل ووطنية ، منذ الصباح ، قبل أن نرتدى ملابسنا ، بلا داع ، ولمجرد الاستمتاع بالإحساس بقوة التضامن : « يجب ألا نضيع الوقت ، وألا ننسى أن اليوم يوم سبت . » بينما تقول عمتى لفرانسواز وهى تتباحث معها ، وتذكر أن النهار سيكون أطول من المعتاد : « ما رأيك فى طهى قطعة « بتلو » لهم ، بما أن اليوم السبت ؟ » وإذا شرد ذهن أحدنا ، وأخرج ساعته فى العاشرة والنصف وقال : « هيه ، علينا أن ننتظر ساعة و نصف قبل تناول الغداء ! » ، كان يسرنا جميعاً أن نقول له : « فيم تفكر ؟ هل نسيت أن اليوم السبت ؟ » وكنا نسخر منه بعد ذلك بربع ساعة ، ونعد برواية هذا السهو لعمتى لتسليتها . حتى وجه السماء كان يبدو متغيراً . كانت الشمس تتسكع ساعة إضافية بعد الغداء فى أعلى السماء ، لأنها تعى أن اليوم السبت . وعندما كان يقول واحد منا ، لاعتقاده أننا تأخرنا عن موعد النزهة : « ماذا ؟ الساعة الثانية فقط ؟ . » ، وهو يسمع دقتى ساعة برج سانت‌هيلير (وجرت العادة على ألا تلتقيا بأحد فى الطرقات المهجورة بسبب وجبة الغداء أو النوم بعد الظهر ، بطول الترعة اللامعة البيضاء التى هجرها حتى الصياد ، وأن تمرا وحيدتين فى السماء الخالية إلا من بعض السحب الكسولة) ، كان الجميع يردون عليه فى وقت واحد بقولهم : « لقد خدعت ، لأننا تناولنا الغداء قبل موعده بساعة . فأنت تعلم حق العلم أن اليوم السبت » . وكانت دهشة البرابرة (كنا نطلق هذا الاسم على الذين لا يعرفون الوضع الخاص ليوم السبت) الذين يحضرون فى الحادية عشرة للتحدث إلى والدى ، ويجدوننا حول المائدة ، من أكثر الأشياء إشاعة للبهجة فى حياة فرانسواز . كانت تضحك لأن الزائر الحائر لا يعرف أننا نتناول الغداء قبل موعده بساعة يوم السبت . لكنها كانت تضحك أكثر (وهى متعاطفة من أعماق نفسها مع هذا التعصب) إذا سمعت والدى ، الذى لا يخطر على باله أن البربرى قد يجهل الأمر ، يرد بلا أدنى تفسير على دهشته لرؤيتنا فى غرفة الطعام بقوله : « الله ! اليوم سبت . » وعندما كانت فرانسواز تصل إلى هذا الجزء من روايتها كانت تمسح دموعها من فرط الضحك ، وتطيل الحوار لتزيد من المتعة التى تحس بها ، وتختلق رد الزائر الذى لا تعنى كلمة « السبت » شيئاً بالنسبة له . وبدلا من أن نشكو من إضافاتها ، كانت لا تكفينا ونقول : « لكن ، يخيل إلى أنه قال شيئاً آخر . كانت القصة أطول عندما رويتها أول مرة » . حتى عمتى الكبرى ، كانت تترك ما تطرزه ، وترفع رأسها وتنظر من فوق نظارتها . وكان ليوم السبت وضع خاص لأننا كنا نخرج فيه بعد العشاء ، فى شهر مايو ، ونذهب إلى « الشهر المريمى » .

وبما أننا كنا نلتقى خلاله ، أحياناً ، بمسيو ڤانتوى ، وهو صارم للغاية مع « هيئة الشبان المهملين الذين يسايرون أفكار العصر » ، كانت أمى تحرص على ألا يكون فى هيئتى شىء يؤخذ على ، ثم نذهب إلى الكنيسة . وأذكر أننى بدأت أحب زهرة الزعرور فى الشهر المريمى . لم تكن هذه الزهور توضع فقط على الهيكل ، فى الكنيسة المقدسة التى نستطيع الدخول فيها ، ولا تنفصل عن الأسرار التى تشترك فى الاحتفال بها ، بل كانت تجرى بين المشاعل والزهريات المقدسة ، بفروعها التى ربط بعضها بالبعض الآخر أفقياً ، استعداداً للاحتفال ، وتزيد من جمالها أكاليل أوراقها المتعرجة التى نثرت عليها بكثرة ، كما تنثر باقات صغيرة من البراعم البيضاء الناصعة على ذيل ثوب العروس . لكنى كنت أشعر ، وأنا لا أجرؤ على النظر إلى هذه الاستعدادات الفخمة إلا خلسة ، أنها حية ، وأن الطبيعة نفسها ، عندما قطعت أوراق الشجر على هذا النحو ، وأضافت إليها الزينة العليا المتمثلة فى هذه البراعم البيضاء ، جعلت هذه الزخارف جديرة بما كان عيداً شعبياً واحتفالا دينياً فى آن واحد . وكلما تفتحت تويجاتها هنا وهناك بسحر لا يبالى ، وأمسكت بباقة الأسدية الرفيعة باهمال ، كأنها زينة أخيرة شفافة ، وكلما تابعت وحاولت أن أقلد حركة ازدهارها فى أعماق نفسى ، تصورت أنها حركة رأس سريعة شاردة ، ذات نظرة لعوب ، وحدقات ضيقة ، تصدر عن فتاة بيضاء ، حية ، ساهية . جاء مسيو ڤانتوى مع ابنته ، و جلس بجوارنا. كان ينتمى إلى أسرة طيبة ، ودرس البيانو لأخوات جدتى . وبعد أن ماتت زوجته وورثها ، جاء ليعيش بالقرب من كومبريه . وكثيراً ما كنا نستقبله فى دارنا . لكنه ، لحيائه البالغ ، كف عن زيارتنا حتى لا يلتقى بسوان ، الذى عقد ما أسماه « زيجة غير لائقة ، حسب الموضة » . ولما عرفت أمى أنه يلحن ، قالت له من باب المجاملة : إنها تود أن تستمع إلى شىء لحنه ، عندما تذهب لزيارته . سر مسيو ڤانتوى لذلك كثيراً ، لكنه كان يبالغ فى الأدب والطيبة لدرجة أنه كان يضع نفسه دائماً مكان الآخرين ، ويخشى أن يصيبهم الملل ، أو يبدو لهم أنانياً ، إذا أسلم نفسه لرغبته أو جعلهم يحدسونها فقط . ورافقت والدى عندما ذهبا يوماً لزيارته فى بيته ، وسمحا لى بالبقاء فى الخارج . وبما أن منزل مسيو ڤانتوى ، مونجوڤان ، كان يقع أسفل تل صغير كثير الأدغال ، اختبأت فيها ، ووجدت نفسى فى مستوى صالون الطابق الثانى ، على بعد خمسين سنتيمتراً من النافذة . ورأيت مسيو ڤانتوى يسرع ، ويضع على البيانو مقطوعة موسيقية فى مكان بارز ، عندما قيل له : إن والدى قد حضرا . لكن بعد أن دخلا ، سحب المقطوعة ووضعها فى ركن . لا شك أنه خشى أن يفترضا أنه

لم يسعد برؤيتهما إلا لكى يعزف لها بعضاً من مؤلفاته . وكلما عادت أمى إلى هذا الموضوع ، أثناء الزيارة ، كرر قوله : « لا أدرى من وضع هذه على البيانو ، هذا ليس مكانها » ، ووجه الحديث إلى موضوعات أخرى ، لأن اهتمامه بهذه الموضوعات بالذات أقل . كانت ابنته حبه الوحيد . وكانت تشبه الصبية ، وتبدو قوية لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام عندما يرى الاحتياطات التى يحيطها بها والدها . وكان لديه دائماً شالا إضافياً يلقيه على كتفها . ولاحظت جدتى التعبير الهادئ الرقيق ، الخجول إلى حد ما الذى تتسم به ، فى أغلب الأحيان ، نظرات هذه الفتاة الخشنة التى نثر النمش على وجهها . كانت ، عندما تنطق بكلمة ، تسمعها بروح من قيلت له ، وتقلق لأنه قد يسيء فهمها . كان وجه هذا « الشيطان الطيب» المسترجل يخفى وراءه ، تحت ستار شفاف ، ملامح رقيقة ، دقيقة ، مضيئة ، لفتاة حزينة .

ولما ركعت أمام الهيكل وأنا أتأهب لمغادرة الكنيسة ، أحسست فجأة ، و أنا أنهض برائحة مرة حلوة كرائحة اللوز تنبعث من زهر الزعرور . عندئذ ، لاحظت فى الزهر أماكن صغيرة أكثر اصفراراً ،وتصورت أن هذه الرائحة تختبيء تحتها بلاشك ، كما يختبئ مذاق اللوزية تحت الأجزاء المبروشة ، أومذاق وجنتى الآنسة فانتوى تحت نمشهما . وبالرغم من ثبات زهر الزعرور الصامت ، كانتهذه الرائحة المتقطعة أشبه بهمس حياته الفائقة التى ينبض بها الهيكل كما ينبض سور النبات عندما تزوره قرون الاستشعار الحية . وكنت أفكر فيها وأنا أرى أن بعضالأسدية الحمراء تقريباً تبدو وكأنها قد احتفظت بالعنف الربيعى والقوة المثيرة التى تتمتع بهماحشرات تحولت اليوم إلى زهور .

تحدثنا بعض الوقت مع مسيو فانتوى أمام المدخل ، ونحن خارجين من الكنيسة . كان يتدخل بين الغلمان الذين يتشاجرون فى الميدان ، ويدافع عن الصغار ، ويعظ الكبار . وإذا قالت له ابنتهبصوتها الخشن : إنها سرت كثيراً لرؤيتنا ، بدا فى الحال أن أختاً لها أكثر حساسية تحمر خجلا فى داخلها ، من هذه الكلمات ، كلمات نطق بها صبى طائش ، وقد نظن أنها طلبت بها دعوتها إلى منزلنا . وضع مسيو فانتوى معطفاً على كتفى ابنته ، وركبا « كارتة » تقودها بنفسها ، وعادا إلى مونجوفان . أما نحن ، فبما أن اليوم التالى كان يوم أحد ، ولن نستيقظ إلا للذهاب إلى القداس الكبير ، جعلنا والدى — حباً فى المجد — نقوم بنزهة طويلة، واعتبرتها أمى التى لا تجد وجهتها ولا تعرف طريقها إلا بصعوبة ، عملا بطولياً ينم عنعبقرية استراتيجية . كنا نذهب أحياناً حتى القنطرة التى تبدأ درجاتها الحجرية عند المحطة ، وتصور لى

النفى والضياع خارج العالم المتحضر ، لأنهم كانوا يوصوننا كل عام، ونحن قادمين من باريس ، بأن ننتبه عندما نصل إلى كومبريه، وألا تمر المحطة بدون أن ننزل فيها ، وأن نستعد مقدماً ، لأن القطار يعاود السير بعد دقيقتين ، ويسير فوق القنطرة، مخلفاً وراءه البلاد المسيحية التى تعتبر كومبريه فى نظرى حدها الأقصى . وكنا نعود عن طريق شارع المحطة ، حيث توجد أجمل ڤيلات المنطقة . كان ضوء القمر ينثر ، مثل هوبير روبير ، درجاته المرمرية البيضاء المتكسرة ، ونافوراته، وأسواره المواربة فى كل حديقة . كان نوره قد هدم مكتب التلغراف ، فلم يبق منه إلا عمود نصف محطم ، احتفظ مع ذلك بجمال الأطلال الخالدة . سرت بخطى ثقيلة ، وكدت أسقط لحاجتى إلى النوم ، وكانت رائحة التليو التى تعبق الجو تبدو لى كمكافأة لا يمكن الحصول عليها إلا بكثير من التعب الذى لا تستحق أن يبذل من أجلها . أسوار بعضها بعيد جداً عن البعض الآخر ، وكلاب أيقظتها خطانا المنفردة ، يتناوب نباحها الذى ما زلت أسمعه أحياناً فى المساء ، ولا شك أن شارع المحطة (عندما أنشئت حديقة كومبريه العامة مكانه) قد وجد ملجأ بين نباح الكلاب . فأينما كنت ، أراه ، بأشجار الزيزفون التى كانت فيه ، ورصيفه الذى يضيئه القمر ، كلما دوى نباح الكلاب ، ورد بعضها على البعض الآخر .

فجأة ، أوقفنا أبى ، وسأل أمى : « أين نحن ؟ » كان المشى قد أنهك قواها ، لكنها كانت فخورة بوالدى ، فاعترفت له بحنان بأنها لا تعرف عن ذلك شيئاً قط . فهز كتفيه وضحك ، وعندئذ ، أشار إلى الباب الخلفى لحديقتنا ، الواقف أمامنا ، وكأنه أخرجه من جيب سترته مع المفتاح ، وكان الباب قد جاء مع ناصية شارع الروح القدس لينتظرنا فى طرف هذه السبل المجهولة ، وقالت له أمى باعجاب : « أنت رائع » . ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد على أن أخطو خطوة واحدة . كانت الأرض تسير بدلا منى فى هذه الحديقة التى لم يعد يصحب أفعالى فيها أى انتباه إرادى منذ زمن طويل : كانت العادة قد جاءت وأخذتنى بين ذراعيها ، وحملتنى إلى فراشى كما يحمل الطفل الصغير

كان يوم الأحد، الذى يبدأ ساعة قبل الميعاد ، وتحرم فيه عمتى من فرانسواز ، يمر ببطء أكثر من غيره بالنسبة لها . ومع ذلك، كانت تنتظر عودته بفارغ الصبر ، منذ بداية الأسبوع ، باعتباره مشتملا على الجدة والتسلية التى لا يزال جسمها الضعيف قادراً على احتمالها . لكن هذا لا يعنى أنها لم تتطلع أحياناً إلى مزيد من التغيير ، وأنها لم تعرف تلك الساعات الاستثنائية التى يتعطش فيها المرء إلى شىء آخر ، ويطلب فيها

أولئك الذين يمنعهم افتقارهم إلى الطاقة والخيال من استخلاص مبدأ للتجديد من أنفسهم : من اللحظة الآتية ، أو ساعى البريد الذى يدق الباب ، أن يأتيا بشىء جديد مهما كان سيئاً ، أو انفعال ، أو ألم ؛ ساعات يريد فيها الإحساس الذى جعلته السعادة يصمت كالهارپ العاطلة ، أن يرن تحت اليد ، حتى لو كانت غليظة ، حتى لو حطمته ؛ ساعات تود فيها الإرادة التى اكتسبت بصعوبة بالغة الحق فى استسلامها بلا عوائق لرغباتها ، وآلامها ، أن تلقى بزمامها إلى يد الأحداث القهرية ، مهما كانت قاسية ، ولا شك أن الحزان كان يستغرق وقتاً طويلا لكى يمتلىء ، لأن قوى عمتى التى ينضب معينها لأقل جهد لا ترد إليها إلا قطرة قطرة أثناء راحتها . وكانت تنقضى شهور طوال قبل أن يكون لديها هذا الفائض الذى يحوله الآخرون إلى نشاط ، أو تقرر كيف تستخدمه . ولا شك أنها كانت عندئذ — كما كانت رغبتها فى استبدال البطاطس « البوريه » التى لا تمل منها ببطاطس « بيشاميل » تنشأ بعض الوقت عن ذات المتعة التى تبعثها فيها عودة « البوريه » اليومية — تستخلص من تراكم الأيام الرتيبة التى تتمسك بها إلى هذا الحد ، كارثة منزلية متوقعة ، لا تستغرق إلا لحظة ، لكنها تجبرها على أن تجرى نهائياً أحد هذه التغييرات التى تعترف بأنها ناجعة ، ولاتستطيع أن تقررها من تلقاء نفسها . كانت تحبنا حقاً ، وربما سرت للبكاء علينا . أن يطرأ فى لحظة تشعر فيها أنها على ما يرام ولا تتصبب فيها عرقاً ، خبر يقول : إن البيت وقع بين براثن حريق قضى علينا جميعاً ، ولن يبقى بعد قليل على حجر واحد من الجدران ، واتسع الوقت أمامها لكى تفلت منه بلا عجلة ، بشرط أن تنهض فى التو واللحظة ، أمر كثيراً ما ألح على آمالها بلا شك ، باعتباره يجمع بين المزايا الثانوية التى تجعلها تتذوق حبها لنا ، فى أسى طويل ، وتذهل القرية وهى تقود موكب الحداد علينا بشجاعة مثقلة بالحزن ، وتكاد تحتضر وهى واقفة ، وميزة أخرى ذات قيمة أكبر ، أن تضطر فى الوقت المناسب ، وبدون أن تضيع الوقت ، وبدون أن تتردد ذلك التردد الذى يثير أعصابها ، إلى قضاء فترة الصيف فى مزرعتها الجميلة فى ميروجران ، حيث يوجد مسقط للمياه . وربما أنه لم يطرأ أبداً حدث من ذلك النوع الذى كانت تفكر بالتأكيد فى نجاحه ، عندما تستغرق فى وحدتها فى ألعاب الورق التى لا تعد ولا تحصى (ولسوف يحملها على اليأس إذا تحقق ، أو وقعت واقعة مفاجئة ، أو جاءت كلمة تعلن عن خبر سىء ، ولا يمكن نسيان اللهجة التى قيلت بها أبداً ، أو كل ما يحمل بصمات الموت الحقيقى ، وهو مختلف كثيراً عن إمكانية حدوثه المنطقية المجردة) ، كانت تكتفى ، لكى تجعل حياتها أكثر جاذبية ، بإدخال بعض الأحداث الخيالية فيها ، من وقت لآخر ، وتتابعها بشغف . كان يحلو لها أن تفترض فجأة أن فرانسواز

تسرقها ، وأنها تلجأ إلى الحيلة لتتأكد من ذلك ، وتضبطها متلبسة . وبما أنها اعتادت أن تلعب دورها ودور خصمها عندما تلعب الورق بمفردها ، كانت تنطق بأعذار فرانسواز المحرجة وترد عليها بحدة وغيظ ، لدرجة أن من كان يدخل منا في هذه اللحظات ، كان يراها تتصبب عرقاً ، ويطير الشرر من عينيها ، وتزحزح شعرها المستعار ، وتكشف عن جبهتها الصلعاء . وبما سمعت فرانسواز أحياناً وهى فى الغرفة المجاورة عبارات ساخرة لاذعة موجهة إليها . ولو أن هذه العبارات ظلت فى حالتها اللامادية الصرفة ، ولولا أن عمتى أعطتها مزيداً من الواقع بهمسها بها ، لما ارتاحت لاختراعها لها . كانت عمتى لا تكتفى أحياناً بهذا العرض « المقدم فى الفراش » ، وتود أن تمثل مسرحياتها . لذا ، كانت تغلق الأبواب بطريقة غامضة ، يوم الأحد ، وتفضى إلى أولالى بشكها فى أمانة فرانسواز ، ونيتها فى التخلص منها . ومرة أخرى ، كانت تفضى إلى فرانسواز بشكها فى إخلاص أولالى ، وتقول : إنها ستغلق الباب فى وجهها بعد قليل . وبعد ذلك بأيام ، كانت تشمئز ممن ائتمنتها على سرها بالأمس وتتواطأ مع الخائنة . وكانت الاثنتان تتبادلان الأدوار فى العرض التالى . لكن الشكوك التى كانت تساورها أحياناً بالنسبة لأولالى لم تكن إلا شكوكاً عابرة سرعان ما تزول لعدم وجود شىء يغذيها ، لأن أولالى لا تسكن المنزل . وكان الأمر مختلفاً بالنسبة لفرانسواز التى تشعر عمتى باستمرار أنها تعيش فى نفس المنزل . وبما أنها كانت تخشى أن تصاب بالبرد ، كانت لا تجرؤ على النزول إلى المطبخ لتتأكد من صحة هذه الشكوك . وشيئاً فشيئاً ، لم تشغل بالها إلا بمحاولة تخمين ما تفعله فرانسواز فى كل لحظة وتخفى أمره عنها . كانت تلاحظ أى حركة عابرة من حركات وجهها ، وأى تناقض فى كلماتها ، وأى رغبة تخفيها فيما يبدو . كانت تثبت لفرانسواز أنها أزاحت القناع عن وجهها ، بكلمة واحدة يشحب لها وجه الخادمة ، وتتسلى بغرسها بقسوة فى قلبها . وفى يوم الأحد التالى ، كان ما تكشف عنه أولالى — مثل تلك الاكتشافات التى تفتح فجأة مجالا غير متوقع أمام علم ناشئ لا يتقدم — يثبت لعمتى أن افتراضاتها كانت أقل من الحقيقة بكثير . « لابد أن فرانسواز تعرف ذلك ، ما دمت قد أعطيتها عربة ! » وتصيح عمتى : « أعطيتها عربة ؟ » — « أوه ، لا أدرى . ظننت ذلك ، لأننى رأيتها تمر الآن فى عربة ، وهى منفوشة كالديك الرومى ، فى طريقها إلى سوق روسانفيل . ظننت أنك أنت التى أعطيتها لها ، يا مدام أوكتاف » . وشيئاً فشيئاً ، كانت كل منهما تحاول أن تتقى شر حيل الأخرى ، كما يفعل الحيوان والصياد . وكانت أمى تخشى أن تنمو فى فرانسواز كراهية حقيقية لعمتى التى تهينها ما استطاعت.

وعلى أية حال ، كانت فرانسواز تولى أكثر وأكثر انتباهاً خاصاً لأقل كلمة أو حركة تصدر عن عمتى . وعندما كانت تريد أن تطلب منها شيئاً ، كانت تتردد طويلا فى اختيار الطريقة التى يجب أن تطلبه بها ، وتلاحظ عمتى خلسة ، بعد أن تتقدم بطلبها ، لتحاول أن تستشف من تعبير وجهها ما رأته وستقرره . وهكذا — فى حين أن الفنان الذى يقرأ مذكرات القرن السابع عشر ، ويريد أن يتقرب إلى الملك العظيم ، يظن أنه يسلك هذا السبيل باختلاق نسب يجعله ينحدر من أسرة تاريخية ، أو مراسلة حاكم من حكام أوروبا الحاليين ، فى حين أن هذا الفنان يدير ظهره بالذات لما يخطئ ويبحث عنه فى أشكال مماثلة ، وميتة بالتالى — كانت سيدة ريفية عجوز — لا تنساق بصدق إلا لبعض العادات المستهجنة التى لا تقاوم ولنزعة شريرة ناتجة عن الفراغ — ترى بدون أن تفكر أبداً فى لويس الرابع عشر ، أتفه مشاغل يومها المتعلقة باستيقاظها ، وغدائها ، وراحتها ، وتراها تتخذ شيئاً من أهمية ما أسماه سان سيمون « آلية » الحياة فى ڤرساى ، نتيجة لغرابتها الاستبدادية . كان يمكن أن تظن أيضاً أن فرانسواز تعلق على صمتها ، أو اعتدال مزاجها ، أو شيء من التعالى فى وجهها ، تعليقاً يعادل بما فيه من حماس وخشية ، التعليق على صمت الملك ، أو اعتدال مزاجه ، أو تعاليه ، عندما يقدم له أحد جلسائه أو حتى كبار النبلاء التماساً ، عند منعطف ممر ، فى ڤرساى.

وفى يوم أحد، استقبلت عمتى الخورى وأولالى فى وقت واحد، ثم خلدت إلى الراحة . وصعدنا جميعاً لنقول لها : مساء الخير . وقدمت لها أمى العزاء ، لأن حظها السيء يجعل زوارها يحضرون دائماً فى وقت واحد . وقالت لها برفق :

— « اعرف يا ليونى أن الأمور لم تكن على ما يرام ، فلقد جاء كل زوارك فى وقت واحد» . وقاطعتها عمتى الكبرى بقولها : « خير كثير . . . » ، لأنها كانت تعتقد ، منذ أن مرضت ابنتها ، أن من واجبها أن تحسن حالتها المعنوية ، وأن تقدم لها دائماً الجانب الحسن من الأشياء . لكن والدى قال :

— « أريد أن أستغل فرصة اجتماع الأسرة كلها لأقص عليكم شيئاً بدون أن أحتاج إلى تكراره لكل منكم ، أخشى أن يكون بيننا وبين لوجراندان شيء ما . فلقد قال لى بالكاد : صباح الخير اليوم ».

لم أبق للاستماع إلى رواية والدى ، لأننى كنت معه بعد القداس ، عندما التقى بلوجراندان . ونزلت إلى المطبخ لأسأل عن وجبة العشاء التى تسلينى كل يوم ، كالأخبار التى تقرأها فى الصحف ، وتثيرنى كبرامج أحد الاحتفالات . وبما أن

مسيو لوجراندان كان قد مر بجوارنا عند خروجنا من الكنيسة ، وبصحبته سيدة نبيلة من الجيران لا نعرفها ، حياه أبى تحية ودودة متحفظة ، بدون أن يتوقف . ورد مسيو لوجراندان بالكاد ، وهو مندهش ، وكأنه لا يعرفنا ، وفى عينيه تلك النظرة الخاصة بالأشخاص الذين يتعمدون ألا يظهروا الود ، ويبدون وكأنهم يرونك ، من عمق عيونهم الذى إمتد فجأة ، وكأنك فى نهاية طريق لا ينتهى ، وعلى مسافة بعيدة لدرجة أنهم يكتفون بأن يوجهوا إليك هزة رأس خفيفة تتناسب مع حجمك ، حجم الدمية .

كانت السيدة التى تسير بصحبة لوجراندان سيدة فاضلة محترمة . لم يكن هناك إذن مجالا لسوء الظن بعلاقته بها ، والاعتقاد بأنه أحرج لأن أحداً فاجأه . وتساءل أبى كيف استطاع أن يغضب وقال : « ومما زاد من أسفى على غضبه أنه يبدو ، وسط أولئك المتأنقين ، بسترته القصيرة المستقيمة ، ورباط عنقه الرشيق ، قليل التكلف ، بسيطاً حقاً ، بل وساذجاً تقريباً ، مما يجعله جذاباً للغاية » . إلا أن آراء مجلس العائلة أجمعت على أن والدى توهم الأمر ، وعلى أن لوجراندان كان يفكر فى شىء ما فى تلك اللحظة . على أية حال ، تبددت مخاوف أبى مساء اليوم التالى . فعندما كنا عائدين من نزهة طويلة ، لمحنا ، بالقرب من الجسر العتيق ، لوجراندان ، الذى بقى فى كومبريه عدة أيام بسبب الأعياد . فاتجه إلينا ، ماداً يده ، وسألنى : « هل تعرف ، يا سيادة القارئ ، هذا البيت الذى قاله بول دجردان :

اسودت الغابات ، وما زالت السماء زرقاء ؟

ألا يشير بدقة إلى هذه الساعة ؟ ربما لم تقرأ شيئاً لبول دجردان . اقرأ له ، يا بنى . فلقد قيل لى : إنه تحول الآن إلى الوعظ ، بعد أن كان رساماً صافياً لفترة طويلة . « اسودت الغابات ، وما زالت السماء زرقاء . فلتظل السماء زرقاء دائماً فى عينيك ، يا صديقى . حتى فى الساعة التى حانت لى الآن ، واسودت فيها الغابات ، وحل فيها الليل بسرعة ، تعزى كما أفعل بالنظر إلى السماء » . وأخرج من جيبه سيجارة ، ونظر طويلا إلى الأفق . وقال لنا فجأة : « وداعاً يا رفاق » ، وذهب .

كان العشاء قد بدأ فى الساعة التى نزلت فيها لأسأل عن قائمته . كانت فرانسواز تأمر قوى الطبيعة التى أصبحت مساعداً لها ، كما يحدث فى الحكايات التى يعمل فيها العمالقة طهاة . كانت تضرب الفحم ، وتقدم البطاطس للبخار ، وتضع على النار

روائح الطهى التى أعدتها أولا فى أوان خزفية تتراوح بين الحوض الكبير ، والمرجل والقدر ، وأوانى طهى السمك ، وطواجن الصيد ، وقوالب الحلوى ، وأوعية الكريمة مروراً بمجموعة كاملة من الطناجر، من كافة الأحجام . وتوقفت لأنظر إلى المائدة، حيث فصصت الخادمة لتوها حبات البازلاء المرصوصة ، المعدودة ككرات خضراء فى لعبة ما . وتملكنى الإعجاب أمام الهليون ، المغموس فى اللونين اللازوردى والوردى ، وكانت سنبلته التى يكسوها لون أزرق بنفسجى رقيق ، تتدرج بطريقة لا نحسها — وهى لا تزال تحمل آثار الأرض التى نبتت فيها — بألوان متقزحة لا تنتمى إلى عالمنا . وخيل إلى أن هذه الألوان السماوية تكشف عن المخلوقات الجميلة التى تسلت بتحويل نفسها إلى خضروات ، وكشفت ، بتنكرها فى ذلك اللحم المتماسك اللذيذ ، وألوانها الناشئة التى تشبه ألوان الفجر ، ورسمها المبدئى لقوس قزح ، وأمسياتها الزرقاء المنطفئة ، عن ذلك الجوهر القيم الذى ظللت أتعرف عليه عندما كانت تلهو ، فى مسرحياتها الشاعرية الخشنة الشبيهة بمسرحيات شكسبير ، بتحويل مبولتى إلى إناء فيه عطر ، طوال الليلة التى آكل فيها هليوناً على العشاء .

كانت فرانسواز قد كلفت « عذراء جيوتو المسكينة » ، على حد قول سوان ، بتقشير الهليون الذى وضعته فى سلة بجوارها ، وكانت تبدو متألمة كما لو كانت تقاسى من آلام الأرض كلها . وكانت التيجان اللازوردية الخفيفة التى تحيط بالهليون حول إهابه الوردى مرسومة بدقة ، نجمة نجمة ، مثل الأزهار الملفوفة حول الجبين أو المثبتة فى السلة فى لوحة الفضيلة فى بادوفا . بينما كانت فرانسواز تحمر دجاجة لا يعرف أحد أن يحمرها مثلها ، الأمر الذى نقل بعيداً عن كومبريه رائحة مقدرتها ، وأعطى الغلبة للرقة ، فى مفهومى الخاص لطباعها ، فى الأثناء التى كانت تقدم لنا فيها الطعام ونحن حول المائدة ، لأن نكهة هذا اللحم الذى تعرف كيف تجعله ليناً ولذيذاً إلى هذا الحد لم تكن فى نظرى إلا نكهة إحدى فضائلها الخاصة .

وكان اليوم الذى نزلت فيه إلى المطبخ ، بينما كان والدى يستشير مجلس العائلة فى أمر لقائه بلوجراندان، يوما من تلك الأيام التى لا تستطيع فيها « عذراء جيوتو » أن تنهض ، لمرضها بعد ولادتها الحديثة . وكانت فرانسواز متأخرة، لعدم وجود أحد يساعدها . وعندما وصلت إلى المطبخ ، كانت تذبح دجاجة فى الجزء الخلفى منه ، المطل على حظيرة الدواجن . وكانت الدجاجة ، بمقاومتها اليائسة الطبيعية جداً، المصحوبة بصرخات فرانسواز التى استشاطت غضباً : « أيها الطائر القذر ! أيها الطائر القذر ! » ، وهى تحاول أن تشق رقبتها تحت الأذن، سبباً فى عدم إبراز رقة خادمتنا القدسية

وعذوبتها، بالقدر الذى يبرزها به جلدها المحفوف بالذهب كحلة القداس، وعصيرها النفيس الذى يبدو وكأنه يقطر من حقة القربان. بعد أن ماتت الدجاجة، تلقت فرانسواز دمها الذى سال ولم يطفىء نارها، وانتفضت وهى مغتاظة مرة أخرى، وقالت وهى تنظر إلى جثة عدوها : « أيها الطائر القذر » . صعدت وأنا أرتجف ، ووددت أن تطرد فرانسواز فى التو واللحظة . لكن، من يعد لى الحلوى الساخنة، والقهوة العطرة، وحتى . . . هذا الدجاج، فى الواقع؟، إضطر الجميع إلى حساب هذه الحسبة الجبانة ، مثلى ، لأن العمة ليونى كانت تعرف — وكنت لا أزال أجهل ذلك — أن فرانسواز قد تهب حياتها بلا أدنى شكوى لابنتها، وأولاد أخيها، وكانت مع الآخرين قاسية قسوة فريدة من نوعها. ومع ذلك احتفظت بها . فهى تعرف قسوتها ، لكنها تقدر خدماتها أيضا . وأدركت شيئا فشيئا أن رقة فرانسواز ، ورصانتها المصطنعة ، وفضائلها ، تخفى مآس تدور فى خلفية المطبخ كما يكشف التاريخ عن ملوك وملكات يرسمهم الرسامون وهم مضمومى الأيدى ، على زجاجيات الكنائس ، مع إن حكمهم اتسم بالأحداث الدامية . وأدركت أن البشر عند فرانسواز ، باستثناء من يمتون لها بصلة قرابة، يثيرون شفقتها كلما كانوا يعيشون بعيداً عنها . كانت شلالات الدموع التى تسكبها وهى تقرأ فى الصحيفة مصائب قوم لا تعرفهم تجف بسرعة إذا استطاعت أن تتصور الشخص الذى تبكى عليه بطريقة محددة واضحة إلى حد ما . وفى إحدى الليالى التى تلت وضع الخادمة لمولودها أصيبت هذه الأخيرة بمغص فظيع . سمعتها أمى تتأوه ، فنهضت وأيقظت فرانسواز ، التى أعلنت ، وقد انعدم إحساسها ، أن كل هذه الصرخات تمثيل ، وأن من تصدر عنها تريد أن « تلعب دور السيدة » . وكان الطبيب قد خشى هذه الأزمات فوضع ، فى كتاب طب عندنا ، علامة فى الصفحة التى توصف فيها هذه الأزمات ، وأشار بالرجوع إليها لمعرفة الإرشادات الخاصة بالإسعافات الأولية . طلبت أمى من فرانسواز إحضار الكتاب ، وأوصتها بعدم إسقاط العلامة منه . وبعد ساعة ، لم تكن فرانسواز قد عادت بعد . فثارت أمى ، وظنت أنها عاودت النوم ، وطلبت منى الذهاب بنفسى إلى المكتبة . وهناك ، وجدت فرانسواز التى أرادت أن ترى ما تشير إليه العلامة وأخذت تقرأ الوصف الطبى للأزمة وتنتحب ، ما دام الأمر متعلقا بمريضة نمطية لا تعرفها . كانت تصرخ عند كل عرض أليم يذكره المؤلف : « آه يا مريم ! هل يمكن أن يعذب الله مخلوقة بائسة كل هذا العذاب ؟ آه ، يا لها من مسكينة ! » .

لكن ، لم أكد أناديها ، ولم تكد تعود بجوار « فراش عذراء جيوتو » حتى كفت دموعها عن السيل . ولم تستطع الإحساس لا بهذه الشفقة ، ولا بهذا الحنان ، وكانت قد عرفتهما

جيدا وأحست بهما كثيرا من قراءتها للصحف ، ولا بأى متعة من هذا القبيل نظرا لإحساسها بالضيق والغيظ ، لأن الخادمة أيقظتها من عز نومها .

وعندما رأت نفس الآلام التى بكت لوصفها ، لم تبد إلا التذمر والتبرم ، بل والسخرية البشعة ، وقالت ، عندما ظنت أننا ذهبنا ، وأننا لا نستطيع أن نسمعها : «ما كان عليها إلا أن تتجنب ما أدى بها إلى هذا الحال . لقد سرت له . وعليها الآن بعدم التمثيل ولا شك أن الفتى الذى اجتمع بامرأة مثلها مغضوب عليه . آه ! صدقت أمى المسكينة عندما قالت : « القرد فى عين أمه غزال» . ولما كان حفيدها يصاب بقليل من الزكام ، كانت تذهب فى الليل ، حتى لو كانت مريضة ، بدلا من أن تنام ، لترى ما إذا كان يحتاج إلى شىء ، وتقطع أربعة فراسخ سيرا على الأقدام قبل طلوع النهار لكى تعود إلى عملها . لكنها كانت تترجم حبها لذويها ، ورغبتها فى إعلاء شأن أسرتها مستقبلا ، فى سياستها تجاه الخدم الآخرين ، إلى حكمة دائمة مفادها ألا تدع أحدهم يستقر عند عمتى أبدا . علاوة على أنها كانت تفخر بطريقة ما بعدم اقتراب أحد غيرها من عمتى ، وتفضل ، إذا كانت مريضة ، أن تنهض لتعطيها ماء فيشى على السماح للخادمة بدخول غرفة سيدتها . لاحظ فابر أن انثى الزنبور الحفار تحرص على أن يأكل صغارها لحما طازجا بعد موتها ، فتطلب من التشريح نجدة قسوتها ، وتثقب المركز العصبى الذى تتوقف عليه حركة أرجل الخنافس والعناكب التى تطاردها ولا تتوقف عليه وظائف الحياة الأخرى بفن ومهارة رائعة . ومن ثم ، تقدم الحشرة المشلولة التى تضع الأنثى بيضها بجوارها ، لليرقات عندما يفقس البيض ، طعاما مطيعا ، لا يؤذى ، ولا يستطيع أن يهرب أو يقاوم ، ولا يفسد أبدا . كذلك ، كانت فرانسواز تهتدى ، إشباعا لرغبتها الدائمة فى عدم احتمال أى خادم للحياة فى منزلنا ، إلى حيل بارعة لا ترحم ، لدرجة أننا عرفنا ، بعد سنوات طوال ، أننا أكلنا الهليون كل يوم تقريبا ، فى فصل من فصول الصيف ، لأن رائحته كانت تصيب الخادمة المسكينة المكلفة بتقشيره بأزمات ربوية عنيفة اضطرتها إلى الرحيل ، فى نهاية المطاف .

وا أسفاه ! تحتم علينا أن نغير رأينا فى لوجراندان نهائيا . فى يوم من أيام الأحد التالية للقائنا به عند الجسر العتيق ، ذلك اللقاء الذى اعترف بعده أبى بخطئه ، كان القداس يوشك على الإنتهاء ، عندما دخل الكنيسة مع الشمس وضجة الخارج شىء غير مقدس جعل مدام جوبى ومدام برسبييه (وكل الذين ظلوا مستغرقين فى صلواتهم عندما وصلت متأخرا منذ قليل ، ولولا أن أقدامهم دفعت قليلا المقعد الصغير الذى كان يحول

دون وصولى إلى الكرسى الخاص بى ، لظننت أنهم لم يرونى وأنا داخل) تتحدثان معا بصوت عال عن موضوعات دنيوية خالصة ، وكأننا وسط الميدان . عندئذ ، رأينا لوجر انداان عند عتبة المدخل الحارقة ، وقد علا صوته على ضوضاء السوق وأصواته المتنافرة ، وكان زوج السيدة الذى رأيناها معه مؤخرا يقدمه لزوجة مالك كبير آخر فى المنطقة . وكان وجه لوجرانداان يعبر عن حيوية وحماس خارق للعادة . وحيا تحية عميقة بحركة ثانوية إلى الخلف أعادت ظهره فجأة إلى وضعه الأول ، ومما لا شك فيه أن زوج أخته هو الذى علمها له . وأعاد هذا الإعتدال السريع أرداف لوجرانداان ولم أكن أتصور أنها مكتنزة إلى هذا الحد، إلى وضعها الأول ، بموجة عاتية من العضلات. ولا أدرى لماذا أيقظ فجأة كل من هذا التموج المادى الخالص ، وتلك الموجة اللحمية الصرفة ، الخاليان من أى تعبير عن الروحانية وتعصف بهما ملاطفة مليئة بالخسة ، فى ذهنى ، احتمال أن يكون لوجرانداان مختلفا كل الإختلاف عن لوجرانداان الذى نعرفه. رجته هذه السيدة أن يقول شيئا لسائق عربتها . فاتجه إلى العربة ، ووجهه لا يزال محتفظا بأثر الفرحة الخجولة المخلصة التى أشاعها فيه تقديمه للسيدة . كان يبتسم ، وقد فتنه شىء أشبه بالحلم ، ثم عاد إلى السيدة مسرعا . وبما أنه كان يسير أسرع مما أعتاد ، كان كتفاه يتأرجحان على اليمين واليسار بطريقة مضحكة ، وبدا كلعبة آلية جامدة بين يدى السعادة لفرط استسلامه لها وعدم اكتراثه بكل ما عداها . كنا خارجين من المدخل ، ونوشك أن نمر بجواره . وكان مهذبا لدرجة أنه لم يستطع أن يدير رأسه ، بل ثبت نظراته التى حملها فجأة بحلم عميق على نقطة فى الأفق بعيدة لدرجة أنه لم يتمكن من رؤيتنا ولم يضطر إلى تحيتنا . وظل وجهه بريئا فوق سترة رخوة مستقيمة تبدو وكأنها ضلت رغم أنفها وسط بذخ مكروه . وظل رباط العنق المنقط الذى يحركه هواء الميدان يرفرف فوق لوجرانداان وكأنه لواء عزلته الفخورة واستقلاله النبيل . وفى اللحظة التى وصلنا فيها إلى المنزل أدركت أمى أننا نسينا حلوى « سان أونوريه » وطلبت من أبى ومنى أن نعود أدراجنا ونطلب ارسالها حالا . فالتقينا بلوجرانداان بالقرب من الكنيسة ، وكان آتيا فى الاتجاه المعاكس ويصحب نفس السيدة إلى عربتها . مر بجوارنا ، ولم يتوقف عن الحديث مع رفيقته ، ووجه إلينا بطرف عينه الزرقاء إشارة سريعة من داخل جفونه ، ولأن الإشارة لا تهم عضلات وجهه ، لم تلمحها محدثته قط . ولأنه حاول أن يعوض بقوة الإحساس المجال الضيق الذى حصر فيه التعبير عنه ، فى ذلك الركن الأزرق الذى خصنا به ، فجر كل ما فى اللطف من حيوية تجاوزت الإبتهاج واقتربت من المكر . واختلس رقة الود إلى أن بلغت غمز التواطؤ والإيماء ، والتلميح ، وخبايا التآمر ، وفى النهاية ، امتلأ الثقة بالصداقة إلى أن بلغت

التصريح بالحب . وعندئذ ، أضاء انا وحدنا ، بخدر خفى لا تراه السيدة ، حدقة عاشقة فى وجه بارد كالثلج .

وكان قد طلب من والدى أمس بالذات إرسالى لتناول العشاء معه هذا المساء . كان قد قال لى : « تعالى ورافق صديقك العجوز. دعنى أشم من أبعاد شبابك تلك الزهور الربيعية التى مررت بها أنا أيضاً من سنين ، كأنها باقة ورد يرسلها لنا مسافر من بلد لن نعود إليه . تعالى بزهرة الربيع ، وذقن الباشا ، تعالى بالحيون الذى صنعت منه باقة المودة فى نباتات بلزاك ، وزهرة يوم البعث ، وزهرة اللؤلؤ ، وكرة ثلج الحدائق التى بدأت تعطر الجو بأريجها فى حديقة عمتك الكبرى ، قبل أن تذوب كرات الثلج الأخيرة التى أسقطتها عواصف عيد الفصح . تعالى برداء الزنبق ، رداء حريرى مجيد يليق بسليمان ، وميناء الأفكار المتعددة الألوان ، تعالى بصفة خاصة ومعك النسمة التى رطبتها آخر موجات الصقيع ، النسمة التى ستفتح الباب للفراشتين اللتان تنتظران منذ الصباح أولى ورود القدس » .

تساءل أهل الدار عما إذا كان يجب أن يرسلونى ، رغم ذلك ، لتناول العشاء مع لوجراندان . لكن جدتى رفضت أن تصدق أنه كان قليل الأدب : « تعترفون بنفسكم بأنه يحضر إلى هنا بملابس بسيطة لا تمت إلى رجال المجتمع بصلة». وأعلنت أنه من الأفضل ، على أية حال ، وعلى أسوأ الفروض ، التظاهر بعدم ادراك قلة أدبه ، إن وجدت . وفى الواقع ، كان أبى نفسه ، مع إنه أكثرنا ثورة على موقف لوجراندان ، يحتفظ — ربما — بشك أخير فى المعنى الذى تضمنه . فلقد كان كأى موقف أو فعل ، يكشف عن طباع الشخص العميقة الخفية : فهو لا يرتبط بكلماته السابقة ، ولا نستطيع أن نؤكده بشهادة المذنب الذى لن يعترف . لذا ، يجب أن نكتفى بالحدس ونتساءل ، إزاء هذه الذكرى المنفردة غير المتماسكة ، عما إذا كان الوهم قد لعب بها . هكذا ، كثيراً ما تخلف فينا مثل هذه المواقف — وهى المواقف الوحيدة الهامة — بعض الشك .

تناولت العشاء مع لوجراندان فى الشرفة ، وكان القمر مضيئاً . وقال لى : « يوجد نوع جميل من الصمت ، أليس كذلك ؟ يزعم كاتب روائى سيتقرأ له فيما بعد أن الظل والصمت فقط يناسبان القلوب الجريحة التى تشبه قلبى . واعلم يابنى أنه يحين فى الحياة ساعة ، بعيدة جداً عنك الآن ، لا يحتمل للعيون المتعبة فيها إلا نوراً

واحداً ، نور تعده ليلة جميلة كهذه ، وتقطره مع الظلمة ، ولا تستطيع الأذن أن تسمع فيها أية موسيقى ، إلا الموسيقى التى يعزفها ضوء القمر على ناى الصمت » .
انصت إلى كلمات لوجراندان التى كانت تبدو لى لطيفة جداً دائماً . لكن ، اقلقتنى ذكرى امرأة لمحتها مؤخراً لأول مرة ، وظننت أنه يعرفها ، ما دمت أعرف الآن أنه كان على صلة بعديد من الشخصيات الأرستقراطية فى المنطقة . لذا ، استجمعت شجاعتى ، وقلت له : « هل تعرف يا سيدى . . . سيدات جرمونت ؟ » ، وأنا سعيد أيضاً بسيطرتى على هذا الإسم لمجرد النطق به ، وإخراجه من حلمى ، واعطائه وجوداً موضوعياً رناناً .

وعندما سمع صديقنا اسم جرمونت ، رأيت فى عينيه الزرقاوين حزاً صغيراً أسمر اللون ، كأن سناً لا يرى قد ثقبهما لتوه ، بينما ردت بقية الحدقة بافراز موجات من اللازورد . واسودت الدائرة التى تحيط بجفنه وانخفضت ، وكان فمه الذى ارتسمت عليه ثنية مرة أسرع فى تمالك نفسه ، فابتسم ، بينما ظلت النظرة أليمة كنظرة شهيد جميل غرست السهام فى جسده ، وقال : « لا ، لا أعرفهن ! » لكن ، بدلا من أن يعطى لمعلومة بهذه البساطة ، ورداً لا يدعو إلى الدهشة ، اللهجة الطبيعية العادية التى تناسبهما ، أكد على الكلمات وهو ينحنى ، ويحيى برأسه ، بذلك الإصرار الذى نؤكد به شيئاً غير معقول ليصدقنا الآخرون — وكأن عدم معرفته لآل جرمونت لا يمكن أن ينتج إلا عن الصدفة النادرة — وبلهجة التفخيم التى يعمد إليها من لا يستطيع تكتم أمر موقف يثقل عليه ، فيفضل الإعلان عنه لكى يظن الآخرون أن اعترافه به لا يسبب له أى حرج ، وأنه سهل ، تلقائى ، محبب إلى النفس ، وأنه لم يخضع للموقف — أى عدم وجود علاقة بينه وبين آل جرمونت — ، بل سعى إليه ، وكان نتيجة لبعض التقاليد العائلية ، أو مبدأ أخلاقى ، أو نذر يحرم عليه مخالطة آل جرمونت بالذات . واستطرد قائلا ، ومفسراً لهجته الخاصة : « لا ، لا أعرفهن ، ولم أسع إلى ذلك أبداً ، وحرصت دوماً على المحافظة على استقلالى التام . الحقيقة أننى يعقوبى التفكير ، كما تعلم . وحدثنى الكثيرون فى نفس الموضوع ، وقالوا لى إننى مخطئ لأننى لا أذهب إلى جرمونت ، وإننى أبدو المدلك سمجاً ميالا إلى العزلة . لكن هذه السمعة لا تخيفنى ، لأنها تطابق الواقع حقاً . فى الواقع ، لم أعد أحب فى العالم إلا بضعة كنائس ، وثلاثة أو أربعة كتب ، وبعض اللوحات ، وضوء القمر عندما تأتى نسمة شبابك إلى برائحة الحدائق التى لا تميزها حدقة عينى العجوز » . لم أفهم جيداً لماذا يصبح من الضرورى

أن يتمسك المرء باستقلاله ، لكي لا يذهب عند أناس لا يعرفهم ، ولماذا يجعله ذلك يبدو ميالا إلى الوحشة والعزلة . لكن الذى فهمته هوأن لوجراندان لم يكن صادقاً كل الصدق عندما قال إنه لايحب إلا الكنائس ، وضوء القمر ، والشباب . فلقد كان يحب الناس والقصور كثيراً ، وكان يستولى عليه أمامهم قدر من الخوف من عدم إرضائهم يجعله لا يجرؤ أن يقول لهم إن له أصدقاء ينتمون إلى الطبقة البورجوازية ، وأبناء كتاب العدل والصيارفة ، مفضلا أن يكتشفوا الحقيقة فى غيابه ، بعيداً عنه ، « وبالصدفة » ، إذا اكتشفت . كان يقلد أبناء الطبقة الراقية ومما لا شك فيه أنه لم يقل شيئاً من كل هذا باللغة التى نحبها كثيراً ، أنا ووالدى . فاذا سألته : « هل تعرف آل جرمونت ؟ » ، رد لوجراندان الميال للحديث بقوله : « لا ، لم أسع أبداً إلى معرفتهم ! » ولسوء الحظ ، كان هذا الرد لا يأتى إلا متأخراً ، لأن لوجراندان آخر كان يخفيه بعناية فى أعماق نفسه ، ولا يظهره ، لأنه يعرف عن لوجراندان الذى نعرفه نحن ، وعن حبه لتقليد الطبقة الراقية ، قصصاً مشبوهة ، قد سبقه ورد بجرح النظرة ، وبسمة الفم الهازئة ، وخطورة الرد المبالغ فيها ، والأسهم الألف التى صوبت فى لحظة إلى لوجراندان الذى نعرفه ، وأضنته ، كأنه سان سبستيان وقد راح ضحية لتقليد الطبقة الراقية : « وا أسفاه ! كم تؤلمنى ! لا ، لا أعرف آل جرمونت ، لا توقظ ألم حياتى الأكبر ! » وكان لوجراندان هذا ولداً متعباً ، مزعجاً ، نصاباً ، لا ينمق الكلام مثل لوجراندان الآخر ، لكنه سريع البديهة . وكان رده مكوناً مما يسمى « ردود فعل » . وإذا أراد لوجراندان المحب للحديث أن يفرض عليه الصمت ، يكون قد سبقه وتكلم . ومهما أسف صديقنا للانطباع السيئ الذى تخلفه تصريحات نصفه الآخر ، لم يكن ليتسنى له بلاشك إلا العمل على تخفيف حدته .

ولا يعنى هذا بالطبع أن لوجراندان لم يكن صادقاً عندما هاجم من يقلدون الطبقة الراقية . لم يكن فى استطاعته أن يعرف إنه كذلك ، بنفسه على الأقل ، ما دمنا لا نعرف أهواء الآخرين ، وما دام ما نتوصل إلى معرفته عن أهوائنا ، لايعرف إلا منهم هم . فالأهواء لاتؤثر فينا إلا تأثيراً ثانياً ، بالخيال الذى يستبدل الدوافع الأولى بدوافع بديلة أنسب منها . وحب لوجراندان لتقليد الطبقة الراقية لم ينصحه أبداً بزيارة دوقة جرمونت كثيراً . وكان يكلف خياله باظهار هذه الدوقة وهى مزدانة بكافة الفضائل . كان لوجراندان يتقرب إلى الدوقة ، ويظن أنه يستسلم لجاذبية الفكر والفضيلة التى لا يعرفها من يقلدون الطبقة الراقية الأدنياء . الآخرون فقط كانوا يعرفون أنه واحد منهم . ولأنهم كانوا عاجزين عن فهم العمل الوسيط الذى يقوم به خياله ، كانوا يرون نشاط لوجراندان الاجتماعى ، وسببه الأول ، الواحد فى مواجهة الآخر .

أصبح أهل بيتنا الآن لا ينخدعون بلوجراندان قط . وكان اتصالنا به يأتى على فترات متباعدة للغاية . كانت أمى تسر سروراً بالغاً عندما تضبطه متلبساً بارتكاب الخطيئة التى لم يعترف بها أبداً ، وظل يسميها الخطيئة التى لا تغتفر : تقليد الطبقة الراقية . أما أبى ، فكان من الصعب عليه أن ينظر إلى ازدراء لوجراندان نظرة مرحة لا تبالى . وعندما فكرت الأسرة ، فى سنة من السنين ، فى إرسالى مع جدتى إلى بلبيك لقضاء العطلة الصيفية ، قال والدى : « لابد أن أخبر لوجراندان أنك ذاهب إلى بلبيك ، لأرى ما إذا كان سيعرض عليك الاتصال بأخته . لا شك أنه لا يذكر أنه قال لنا إنها تسكن على مسافة كيلومترين من هذا المكان » . وكانت جدتى ترى أن المصيف يحتم علينا أن نبقى على البلاج ، ونستنشق ملح البحر من الصباح إلى المساء ، وأنه لا ينبغى أن نتصل بأحد فى تلك الفترة ، لأن الزيارات والنزهة تكون على حساب هواء البحر . لذا ، طلبت ألا نحدث لوجراندان عن مشروعنا ، بعكس أبى . وبعين الخيال ، رأت أخت لوجراندان تصل إلى الفندق فى اللحظة التى نتأهب فيها للخروج للصيد ، وتجبرنا على البقاء محبوسين فى الداخل لاستقبالها . لكن أمى كانت تسخر من مخاوفها ، وترى أن الخطر ليس كبيراً إلى هذا الحد ، وأن لوجراندان لن يتعجل اللحظة التى يتصل فيها بأخته . وبدون أن نحتاج إلى الكلام عن بلبيك ، وضع لوجراندان نفسه فى الفخ ، ذات مساء ، عندما التقينا به على ضفة الفيفون ، ولم تكن لديه أية فكرة عن اعتزامنا الذهاب إلى هناك .

قال لأبى : « فى السحب هذا المساء ألوان جميلة ، بنفسجية وزرقاء أليس كذلك يا رفيقى ؟ لون أزرق أقرب إلى لون الزهر منه إلى لون الهواء ، لون أزرق يكاد يكون رمادياً ، ويبدو غريباً فى السماء . وهذه السحابة الوردية ، ألا يشبه لونها أيضاً لون الزهرة ، أو القرنفل ؟ على شاطئ المانش فقط ، بين نورماندى وبريتانيا ، استطعت أن ألاحظ هذا النوع من النبات الحوى ملاحظة غنية . هناك ، بالقرب من بلبيك وهذه الأماكن الموحشة ، يوجد خليج هادئ ساحر ، يصبح غروب الشمس عنده — فى منطقة أوج — ذهبياً وأحمراً ، وأنا أبعد ما أكون عن الاستهانة به ، وتافهاً وخالياً من أى طابع مميز . لكن ، تتفتح فى المساء فى بضع لحظات ، باقات سماوية ، زرقاء ووردية ، لانظير لها ، ولا تذبل فى أغلب الأحيان إلا بعد ساعات طوال ، وتفقد باقات أخرى أوراقها فى التو واللحظة . عندئذ ، يزداد جمال السماء التى نثرت فوقها وتبعثرت بتلات وردية أو صفراء لا تعد ولا تحصى . فى هذا الخليج ، ويقال له الخليج اللبنى ، تبدو

البلاجات الذهبية أهدأ ، لأنها معلقة ، مثل اندروميد الشقراء ، فى تلك الصخور الرهيبة التى نجدها عند الشواطئ المجاورة ، وذلك الشاطئ المشئوم الشهير بحوادث الغرق الكثيرة وفقدان المراكب عنده ، فى عرض البحر ، كل شتاء . بالبيك ! أقدم هيكل جيولوجى فى أرضنا ، والبحر، وطرف الأرض، والمنطقة الملعونة التى أحسن أناتول فرانس تصويرها بضبابها الأزلى — وهو كاتب ساحر يجب أن يقرأ له صديقنا الصغير — ، وقال إنها البلد الحقيقى الذى سكنه السياريون فى « الأوديسة» . يا لمتعة التنزه فى هذه المناطق البدائية الجميلة ، على بعد خطوتين من بلبيك ، حيث تبنى الفنادق فوق الأرض القديمة الساحرة ، ولا تشوهها ! »

قال أبى : « آه ! وهل تعرف أحداً فى بلبيك ؟ سيذهب إليها هذا الصغير ليقضى شهرين مع جدته ، وربما زوجتى ؟ »

فوجىء لوجراندان بهذا السؤال ، فى لحظة كانت عيناه فيها مثبتتين على أبى . فلم يتمكن من إدارة وجهه ، بل ثبت عينيه ، بين لحظة وأخرى ، بمزيد من القوة — وهو يبتسم ابتسامة حزينة — على عينى محدثه ، بطريقة تنم عن الصداقة ، والصراحة ، وعدم الخوف من مواجهته . و بدا وكأنه عبر وجهه ، كأن هذا الوجه قد أصبح شفافاً فجأة ، وأنه يرى وراء هذا الوجه ، فى هذه اللحظة ، سحابة صارخة الألوان تمكنه من اختلاق حجة ذهنية و إثبات انه كان يفكر فى شئ آخر ولم يسمع السؤال ، عندما سئل عما إذا كان يعرف أحداً فى بلبيك . وعادة ما تحمل مثل هذه النظرات محدثه على أن يقول له : « فيم تفكر ؟ » لكن أبى استطرد قائلا ، بفضول وحدة وقسوة :

— «هل لك أصدقاء فى هذه الناحية ، ما دمت تعرف بلبيك إلى هذا الحد ؟ »

وفى محاولة أخيرة يائسة ، بلغت نظرة لوجراندان الباسمة أقصى الود ، والغموض والصدق ، والشرود . لكنه قال لنا ، إذ رأى أن لا مفر من الرد ، بلاشك :

— «لى أصدقاء حيثما وجدت فرق من الأشجار الجريحة التى لم تهزم ، وتقاربت لتستجدى معاً وباصرار مؤثر سماء لاترحم ولا تشفق عليها» .

وقاطعه أبى ، الذى كان أكثر اصراراً من الأشجار ، وأقل رحمة من السماء :

— « لم أقصد ذلك . سألتك عما إذا كنت تعرف أحداً ، لاحتمال حدوث أى شىء لحماتى ، وحاجتها إلى عدم الشعور وهى هناك بأنها فى بلد بعيد » .

— «هناك وفى أى مكان آخر ، أعرف الجميع ولا أعرف أحداً — هكذا رد لوجراندان الذى لا يسلم بسرعة — ، أعرف الأشياء كثيراً ، والناس قليلا . لكن الأشياء ذاتها تبدو هناك كالأشخاص ، أشخاص نادرين ، جوهرهم رقيق ، وخيبت الحياة آمالهم أحياناً ، تلتقى بقصر فوق الشاطئ الصخرى ، أو على حافة الطريق ، حيث توقف ليجابه حزنه المساء الذى لا يزال وردياً ، ويصعد فيه القمر الذهبى ، وتحمل الوانه المراكب العائدة ، وترفع شعلته على ساريتها وهى ترسم خطوطاً فى المياه المتعددة الألوان . وأحياناً ، ترى منزلا وحيداً ، أقرب إلى القبح ، خجول الشكل لكنه خيالى ، ويخفى عن الأبصار سراً لا يموت عن السعادة أو خيبة الأمل.» وأضاف برقة مكيافيلية : «وهذا البلد الخالى من الحقيقة ، هذا البلد الخيالى الصرف، يعد قراءة سيئة بالنسبة للطفل، ولنَ أختاره أو أوصى به لصديقى الصغير الميال بطبعه إلى الحزن . إن أجواء الأسرار العاطفية والندم الذى لا يجدى تناسب شخصا عجوزاً تحرر من الأوهام مثلى، لكنها تضر دائماً بالشخصية التى لم تتكون بعد» . واستطرد باصرار « صدقنى ، إن مياه هذا الخليج ، وهو بريتانى بنصفه ، يمكن أن تترك أثراً مخدراً ، ومشكوكاً فيه بالإضافة إلى ذلك ، فى النفس التى يمكن التأثير عليها ، النفس التى لا يعوض جرحها ، ولا ينصح بكل هذا لمن كان فى مثل سنك يا صغيرى . عمتم مساء ياجيران ! » هذا ما أضافه وهو يرحل ، بالطريقة المفاجئة التى اعتادها . والتفت إلينا ، ورفع أصبعه كما لو كان طبيباً ، ولخص استشارته بقوله : « لا داعى لبلبيك قبل بلوغ سن الخمسين ، علاوة على أن الذهاب إليها يتوقف على الحالة النفسية » .

فى لقاءاتنا اللاحقة ، عاد أبى إلى الحديث معه فى هذا الموضوع ، وعذبه بالأسئلة ، لكن بلا جدوى . وكما يفعل العلامة النصاب الذى يستخدم فى صنع رق مزيف جهداً وعلماً قد يكفى واحد فى المائة منهما ليضمن لنفسه وضعا مادياً مجزياً ومشرفاً ، كان يمكن أن يبنى لوجراندان ، فى نهاية المطاف ، لو أننا زدنا من اصرارنا ، بحثاً كاملا عن المناظر الطبيعية ، والجغرافيا السماوية فى المنطقة المنخفضة من النورماندى بدلا من أن يعترف لنا بأن أخته تسكن على مسافة كيلومترين من بلبيك ، ويضطر إلى اعطائنا خطاباً يقدمنا لها فيه . ولو أنه تأكد تماماً — وكان يجب أن يتأكد ، لأنه يعرف عن خبرة طباع جدتى — من أننا لن نستغل الخطاب ، لما ارتاع إلى هذا الحد .

كنا نعود دائماً مبكرين من نزهتنا ، لنتمكن من زيارة العمة ليونى قبل العشاء . فى بداية الفصل ، حيث كان النهار قصيراً ، كنا نرى ، عندما نصل إلى شارع الروح القدس ، ظل الغروب باقياً على زجاج المنزل ، وشريطاً ارجوانياً فى أعماق غابات كالفير ،شريط ينعكس فى البركة البعيدة . وكان هذا الإحمرار ، الذى يصحبه فى كثير من الأحيان برد شديد إلى حد ما ، يرتبط فى ذهنى باحمرار النار التى تحمر فوقها الدجاجة ، والتى ستجعل متعة الطعام اللذيذ والدفء والراحة تلى متعة النزهة الشاعرية . أما فى الصيف ، فعلى عكس ذلك ، كانت الشمس تظل مشرقة بعد عودتنا وأثناء زيارتنا للعمة ليونى. وكان نورها الذى يهبط ويلمس النافذة يتوقف بين الستائر الكبيرة وأربطتها ، وينقسم ، ويتفرع ، ويقطر ، ويرصع بقطع ذهبية صغيرة خشب شجرة الليمون الذى صنع منه الصوان ويضيء الغرفة بميل ، وبنفس الرقة التى يتسم بها تحت أشجار الغابة . وفى أيام قليلة جداً ، كنا نرى أن الصوان فقد ترصيعه المؤقت من مدة طويلة ، عند عودتنا ، ولا نرى ، عند وصولنا إلى شارع الروح القدس ، أى انعكاس للشمس الغاربة فوق زجاج النوافذ ، ونرى أن البركة فقدت احمرارها ، واتخذت لوناً لبنياً أحياناً ، وأن شعاعاً قمرياً طويلا عبرها واتسع ، بعد أن أحدثت فيه تجاعيد المياه شقوقاً صغيرة . وعندئذ ، كنا نلمح عندما نصل بجوار المنزل ، ظلا واقفاً عند الباب . وكانت أمى تقول لنا : « يا إلهى ! ها هى ذى فرانسواز تراقبنا . عمتك قلقة ، لقد تأخرنا ، فى الواقع » .

وبدون أن تتاح لنا فرصة خلع معاطفنا ، كنا نصعد بسرعة إلى غرفة العمة ليونى لنطمئنها ، ونثبت لها أنه لم يحدث لنا شئ ، بعكس ما تصورت ، لكننا ذهبنا « ناحية جرمونت » . وكانت عمتى تعلم حق العلم أنه لا يمكن أبداً أن نحدد للساعة التى سنعود فيها ، عندما نقوم بهذه النزهة . فقالت :

— « أو لم أقل لك يا فرانسواز أنهم ذهبوا ناحية جرمونت؟ يا إلهى !الا شك أنهم جوعانين ؟ والفخذ الذى اعددته تجمد بلا شك من طول الانتظار . أهذه ساعة يعود الناس فيها ؟ أذهبتم حقاً ناحية بجرمونت ؟ » وقالت أمى :

— « ظننت أنك تعرفين ذلك ، ياليونى،وأن فرانسواز رأتنا ونحن خارجين من باب البستان الصغير » .

كانت توجد حول كومبريه « ناحيتان » للنزهة ،وكانتا متعارضتين لدرجة أننا كنا نخرج دائماً من باب مختلف ، حسب ما إذا كنا نريد الذهاب إلى هذه الناحية أو تلك : ناحية ميزجليز لا فينوز ، وتسمى أيضاً ناحية بيت سوان لأنها تمر أمام ضيعة مسيو سوان ، وناحية جرمونت . لم أعرف أبداً من ميزجليز لا فينوز إلا « الناحية » ، والغرباء الذين يأتون إلى كومبريه يوم الأحد للنزهة ، وهم أناس لا نعرفهم نحن ، بل ولا تعرفهم عمتي نفسها . لذا ، كنا نعتبرهم « أناساً قدموا من ميزجليز » . أما جرمونت فعرفت المزيد عنها ، ذات يوم ، لكن بعد ذلك بكثير . وإذا كانت ميزجليز قد ظلت في نظري ، طوال فترة صباي ، شيئاً لا يمكن الوصول إليه كالأفق ، وتحجبه عن النظر ، مهما ابتعدنا عنه ، ثنايا أرض لا تشبه أرض كومبريه ، فان جرمونت بدت لي نهاية مثالية أكثر منها حقيقية لناحيتها ، بدت كنوع من التعبير الجغرافي المجرد ، مثل خط الاستواء ، أو القطب ، أو الشرق . لذا ، كانت عبارة « الذهاب إلى ميزجليز عن طريق جرمونت » أو العكس تبدو لي خالية من المعنى كعبارة لاتجاه شرقاً للذهاب إلى الغرب . وبما أن أبي كان يتحدث دائماً عن ناحية ميزجليز باعتبارها أجمل منظر يطل على السهل ، وعن ناحية جرمونت باعتبارها نموذجاً للمنظر الطبيعي الذي تشقه الترعة ، كنت أعطيهما ، بتصوري أنهما كيانين مستقلين على هذا النحو ، التماسك والوحدة الذي لا تتسم بهما إلا تخيلات العقل . كانت أقل قطعة من كل منهما تبدو لي ثمينة ومعبرة عن امتيازها الخاص ، في حين كانت الطرقات المادية الصرفة المجاورة لهما ، قبل أن تصل إلى الأرض المقدسة لهذه الناحية أو تلك ، والتي وضعت بينهما كمثال للمنظر المطل على السهل ومثال للمنظر المطل على الترعة ، لا تستحق النظر إليها ، كما لا تستحق الشوارع الصغيرة المجاورة للمسارح أن ينظر إليها المتفرج المولع بالفن الدرامي . وكنت أضع بينهما بصفة خاصة شيئاً أكثر من المسافات التي تقاس بالكيلومترات ، أضع المسافة التي تفصل بين جزئي عقلي ، حيث أفكر فيهما ، ومسافة من تلك المسافات التي لا تكتفي بالإبعاد ، والفصل ، والوضع في مستوى آخر . وكان هذا الفصل مطلقاً ، لأننا اعتدنا ألا نذهب إلى الناحيتين في يوم واحد أثناء نزهتنا ، بل كنا نذهب مرة ناحية ميزجليز ، ومرة ناحية جرمونت ، مما كان يحبس كل منهما بعيداً عن الأخرى ، ويجعل أحداهما لا تعرف الأخرى ، في آنيتين مستطرقتين فيهما فترتي بعد ظهر مختلفتين .

وعندما كنا نود الذهاب إلى ميزجليز ، كنا نخرج (ولا نبكر كثيراً ، حتى إذا كانت السماء غائمة ، لأن النزهة لم تكن طويلة ، ولا تجذبنا كثيراً) ، وكأننا ذاهبين إلى أي مكان

من الباب الكبير لبيت عمتى الذى يفضى إلى شارع الروح القدس . كان صانع الأسلحة يحيينا ، وكنا نضع الخطابات فى صندوق البريد ، ونقول لتيودور إن فرانسواز تبلغه أنها فى حاجة إلى زيت وبن ، ثم نخرج من المدينة ، من الطريق الذى يسير بمحاذاة السور الأبيض الذى يحيط بمتنزه مسيو سوان . وكنا ، قبل أن نصل إليه ، نلتقى برائحة الليلك التى تستقبل الغرباء . وكانت زهوره ترفع بطريقة غريبة ، بين قلوب أوراقها الصغيرة الخضراء النضرة ، وفوق سور المتنزه ، ريشها البنفسجى أو الأبيض الذى لمعته الشمس بعد أن سبحت فيها ، حتى فى الظل . وكان بعضها الذى حجبه قليلا البيت الصغير المسمى « بيت الرماة » ، حيث يسكن الحارس ، يطل بمئذنته الوردية من فوق واجهة غوطية . وقد تبدو حوريات الربيع عادية ، إذا قورنت بالحوريات الشابة التى احتفظت فى هذه الحديقة الفرنسية بالألوان الزاهية الصافية التى نجدها فى منمنمات فارس . ورغم رغبتى فى احتضان خصرها الرشيق ، وجذب خصلات رؤوسها العطرة ذات النجوم ، كنا نمر بها ولا نتوقف ، لأن والدى لم يذهبا إلى تونسو نفيل منذ أن تزوج سوان . ولكى لا يبدو إننا ننظر إلى المتنزه ، كنا لا نسلك الطريق الذى يسير بمحاذاة السور ويصعد إلى الحقول مباشرة ، بل نسلك طريقاً آخر يصل إلى نفس المكان ، لكن يميل ، ويذهب بنا بعيداً . وذات يوم ، قال جدى لوالدى :

— « هل تذكر أن سوان قال أمس إن زوجته وابنته ستسافران إلى رانس ، وإنه سينتهز الفرصة ويذهب لقضاء أربع وعشرين ساعة فى باريس ؟ يمكن إذن أن نسير بمحاذاة المتنزه ، ما دامت السيدات قد ذهبت . وهكذا ، نختصر الطريق » .

توقفنا لحظة أمام السور . وكان أوان الليل يقترب من نهايته . وكان بعضه لا يزال يدفق فقاعات زهوره الصغيرة فى ثريات بنفسجية عالية . واكتست بزبد أجوف ، خال من العطر ، يذبل ، ويزول ، ويسود ، أجزاء كثيرة من الأوراق ، حيث كانت تتدفق الزهور العطرة من أسبوع واحد فقط . وحدث جدى والدى عما لم يتغير فى شكل المكان ، وعما تغير فيه ، منذ تلك النزهة التى قام بها مع مسيو سوان يوم أن ماتت زوجته . وانتهز الفرصة لكى يروى الحادثة مرة أخرى .

كان أمامنا ممر تحف به زهور السلبوت ، ويصعد إلى القصر فى عز للشمس فى حين كان المتنزه يمتد على أرض مسطحة ، على اليمين . وكان والدى سوان قد حفرا حوض ماء تظلله الأشجار الكبيرة المحيطة به . لكن الإنسان يشكل الطبيعة فى أكثر أنواع

إبداعه اصطناعاً . فبعض الأماكن تجعل امبراطوريتها الخاصة تسيطر على ما حولها دائماً ، وترفع شعاراتها العريقة فى متنزه ما ، كما كان يمكن أن تفعل بعيداً عن أى تدخل بشرى ، فى عزلة تعود وتحيط بها فى كل مكان ، عزلة نابعة من ضرورة عرضها وتضاف إلى عمل الإنسان . وهكذا تكون أسفل الممر الذى يطل على البركة الصناعية ، على صفين مجدولين بزهور أذن الفار والعناقية ، تاج طبيعى أزرق رقيق يحيط بجبين المياه الظليل . وكان الجلاديولس الذى أمال سيوفه بعفوية ملكية ، يبسط فوق الغفث والشقيق المائى ذو الرجل المبتلة ، ازهار الزنبق المهلهلة ، البنفسجية والزرقاء ، التى يتكون منها صوجانه البحرى .

كان رحيل الآنسة سوان — ولقد حرمنى من فرصة رهيبة ، فرصة ظهورها فجأة فى ممر من الممرات ، ومعرفتها واحتقارها لى ، وهى الفتاة المحظوظة التى كان برجوت صديقاً لها ، وكانت تزور الكاتدرائيات معه — قد جعلنى لا أبالى بتأمل تونسونفيل فى أول مرة يسمح لى فيها بذلك ، فى حين كان يضيف إلى هذه الضيعة ، فى نظر كل من جدى وأبى ، متعة عابرة ، وبعض اليسر ، ويجعل هذا اليوم مناسبا بصفة استثنائية للتنزهة فى هذه الناحية ، كما يتيح غياب السحب الفرصة للقيام برحلة إلى البلاد الجبلية . كنت أود أن يكونوا قد أخطأوا فى حساباتهم ، وأتمنى أن تحدث المعجزة وتظهر الآنسة سوان ووالدها بالقرب منا ، بحيث لا يتسع الوقت لتجنبهما ونضطر إلى التعارف . لذلك ، عندما لمحت فجأة فوق الحشائش ، كعلامة لإمكانية وجودها ، مقطفاً منسياً وبجواره سنارة يطفو فلينها فوق المياه ، أسرعت ولفتت أنظار أبى وجدى إلى الناحية الأخرى . وبما أن سوان كان قد قال لنا إنه سيغيب رغم أنفه ، لأن بعض أقرباته كانوا فى البيت ، يمكن أن تكون السنارة ملكاً لأحد الضيوف . لم نسمع وقع أى خطوات فى الممرات . وقسم طائر لا يرى ارتفاع شجرة مشكوك فيها ، وحاول جاهداً أن يشعرنا بأن النهار قصير ، واستكشف العزلة المحيطة بنغمة ممتدة ، لكنه تلقى منها رداً جماعياً ، ورد فعل أضيف إلى الصمت والجمود إلى حد قد نقول معه إنه أوقف لتوه إلى الأبد اللحظة التى حاول أن يعجل بها . وكان النور يسقط بلا رحمة من السماء التى أصبحت ثابتة بحيث يود المرء ألا يكون منتبهاً . حتى المياه الراكدة التى تؤرق الحشرات نومها باستمرار ، تحلم بلاشك بدوامة خيالية ، كتلك التى زادت من الاضطراب الذى تملكنى عندما رأيتها تجر الفلين ، فيما يبدو ، بأقصى سرعة ، فوق المساحات الصامتة العاكسة للسماء . كانت قطعة الفلين ، وهى فى وضع رأسى تقريباً ، تبدو مستعدة للغوص .

وتساءلت، بدون أن آخذ في الاعتبار الرغبة فى معرفة الآنسة سوان والخوف من تلك المعرفة ، عما إذا كان يجب أن أخبرها أن السنارة « غمزت »، عندما اضطررت أن ألحق وأنا أعدو بأبي وجدى ، اللذان كانا ينادياني ، ويدهشان لأنني لم أتبعهما فى الطريق الضيق الصاعد إلى الحقول الذى سلكاه.وجدت الطريق يطن برائحة الزعرور .
وكان السياج يكون شيئاً أشبه بسلسلة من المصليات المختفية تحت زهورها المنثورة المكدسة فى شكل مذبح . وكانت الشمس تضع تحتها ، على الأرض ، مربعات من النور ، تبدو كأنها عبرت إحدى الزجاجيات تواً . وكان عطرها يفوح وينتشر ناعماً، مبهم الشكل ، حتى أننى تخيلت أننى أمام هيكل العذراء. كانت كل وردة من الورود ، التى تزينت أيضاً ، تمسك وهى شاردة باقة أسديتها المتألقة ، وهى عروق دقيقة مشعة ، مشتعلة الطراز ، تشبه تلك التى تفرغ درابزين المنبر فى الكنيسة أو معينات الزجاجيات ، وتكشف عن لحم أبيض كلحم زهرة شجرة الفراولة. وقد تبدو أزهار النسرين ريفية ساذجة ، إذا قورنت بهذه الزهور ، وقد تصعد أيضاً ، بعد بضعة أسابيع ، إلى نفس الطريق الريفى ، فى عز الشمس ، فى ثوبها الحريرى المحمر الذى تحله النسمة .

ومهما طال وقوفى أمام زهور الزعرور، واستنشقت رائحتها الثابتة التى لا ترى ، آتى بها أمام فكرى الذى لا يعرف ماذا يفعل بها ، وأفقدها ، وأعثر عليها ثانية ، واتحد مع الإيقاع الذى يلقى بها هنا وهناك ، بحبور فنى ، على فترات غير متوقعة كبعض الفواصل الموسيقية. كانت تقدم لى إلى مالا نهاية نفس السحر بفيض لا ينضب معينه، لكنه لا يتيح لى فرصة التعمق ،شأنه شأن تلك الألحان التى تعزف مائة مرة متتالية ، ولا نتقدم فى معرفة سرها . أدرت ظهرى للزعرور لحظة ، لأقترب منه بعد ذلك بقوى أكثر نضرة. ولا حقت حتى المنحدر الوعر الصاعد إلى الحقول ، وراء السياج، بعض الأزهار البرية الضالة، وزهور الترنجان الكسولة التى ظلت فى المؤخرة ، وكانت تزخرفه هنا وهناك كحافة لوحة جدارية نثرت فيها الوحدة النباتية التى سيكتب لها النصر .كانت هذه الزهور القليلة ، المتباعدة كالمنازل المتفرقة التى تعلن عن قرية قريبة، تعلن لى عن المساحة الشاسعة التى يتدفق فيها القمح ،وتتموج السحب. كان قلبى يدق لرؤية زهرة خشخاش واحدة وهى ترفع شعلتها الحمراء فى طرف وترها وتسلمها لصفعات الرياح ، فوق طوقها الدهنى الأسود ، كما يدق قلب المسافر الذى يلمح على أرض منخفضة أول مركب جانحة يصلحها جنفاط ، ويصيح قائلا ، قبل أن يراها : « البحر ! » .

عدت إلى زهور الزعرور ، وكأننى أمام واحدة من تلك الأعمال الرائعة التى نظن أننا سنحسن النظر إليها إذا توقفنا عن النظر إليها لحظة . وعبثاً حاولت أن أجعل من يدى شاشة لكى لا أرى سواها. فلقد ظل الإحساس الذى أيقظته فى غامضاً مبهماً ، وعبثاً حاول أن يخلص نفسه وينضم إليها . لم يساعدنى الزعرور على تفسير ذلك الاحساس ، ولم يكن فى استطاعتى أن أطلب من زهور غير زهوره إشباعه . عندئذ ، بعث فى جدى تلك الفرحة التى نشعر بها عندما نرى عملا لرسامنا المفضل مختلفاً عن أعماله الأخرى التى نعرفها ، أو نقف أمام لوحة لم نر منها إلا رسماً مبدئياً بالقلم الرصاص ، أو ترتدى المقطوعة الموسيقية التى سمعناها تعزف مائة مرة على البيانو فقط ملابس الأوركسترا ، منحنى إياها عندما نادانى ، وأشار إلى سياج تونسونفيل وقال : « أنت يا من تحب الزعرور ، انظر إلى هذه الزهرية الوردية ، يالجمالها ! » وكانت زهرة وردية بالفعل ، أجمل من الزهور البيضاء . كانت قد ارتدت هى أيضاً حلة العيد — عيد من تلك الأعياد الحقيقية المتمثلة فى الأعياد الدينية ، ما دامت النزوة العابرة لا تطابق بينها وبين يوم لم يخصص لها كما تفعل الأعياد الاجتماعية ، يوم ليس فيه شىء يجعله يوم عطلة أساساً — ، بل حلة أغنى منها ، لأن الزهور ثبتت فى الغصن ، بعضها فوق البعض الآخر ، بحيث لا تترك مكانا خالياً من الزخرف ، كأنها شرابات تزين عصا « روكوكو » ، فضلا عن أنها كانت « ملونة » ، ومن نوعية راقية بالتالى ، وفقاً لمفهوم كومبريه للجمال ، هذا إذا احتكمنا إلى جدول الأسعار فى « محل » الميدان ، أو عند كامو ، حيث كان البسكويت الوردى أغلى أنواع البسكويت. وكنت أنا نفسى أحب الجبن بالكريمة الوردية ، الجبن الذى يسمح لى بدهك الفراولة فيه . وكانت هذه الأزهار قد اختارت بالذات لوناً من ألوان الأشياء التى تؤكل أو الزينة الحنون التى تجمل ثوباً يلبس فى حفل كبير . وتبدو هذه الألوان جميلة وواضحة ما أمكن لعيون الأطفال ، لأنها لا تقدم لهم سبب تفوقها على غيرها . ولهذا ، تحتفظ دائماً فى نظرهم بشىء أكثر حيوية وطبيعية من الألوان الأخرى حتى بعد أن يدركوا أنها تعد تهمهم بشىء ، وأن الخياطة لم تختزها . وطبعاً ، أحسست فوراً ، كما حدث لى أمام الزهور البيضاء ولكن بمزيد من الإعجاب أن تعبير الأزهار عن نية الاحتفال لم يكن مصطنعاً ، وناتجاً عن حيلة من صنع البشر ، بل عبرت عنه الطبيعة تلقائياً بسذاجة تاجرة قروية تعمل لمذبح الكنيسة ، عندما حملت الشجيرة بزهور ذات لون ريفى حنون . وفى أعلى الأغصان ، مثل أشجار الورد الصغيرة التى توضع فى أوانى يخفيها ورق « الدانتيل » ، وتشع سهامها النارية الرفيعة فوق الهيكل ، فى الأعياد الكبرى ، انتشر ألف برعم صغير فاتح اللون . وكانت البراعم ، عندما

تتفتح ، تظهر ورداً أحمراً دموياً فيما يشبه قاع كأس من الرخام الوردى ، وتكشف أكثر من الزهور عن جوهر زهرة الزعرور الخاص ، جوهر لا يقاوم ، يتخذ اللون الوردى فقط فى كل مكان تظهر فيه وتوشك على الإزدهار . كانت الشجيرة الكاثوليكية الجميلة داخلة فى السياج ، لكنها كانت مختلفة عنه اختلاف الفتاة التى تلبس ثياب العيد بين أناس فى ثياب المنزل ، ومستعدة تماماً للشهر المريمى ، وتبدو سلفاً كجزء منه ، وتلمع وهى تبتسم فى زينتها الوردية النضرة .

ظهر خلف السياج ، داخل المتنزه ، ممر يحف به الياسمين ، والبانسيه ، ورعى الحمام الذى يفتح بينه المنثور كيسه النضر بلونه الوردى المعطر ، الباهت كقطعة جلد قديمة من قرطبة ، بينما بسط خرطوم رى طويل مطلى باللون الأخضر دوائره فوق الحصى ، ورفع مروحة رأسية منشورية مكونة من قطراته الصغيرة المتعددة الألوان ى الأماكن التى ثقب فيها ، فوق الزهور التى يبلل أريجها . وفجأة ، توقفت ، ولم أستطع الحركة ، كما يحدث عندما لا تخاطب الرؤية أنظارنا فقط ، بل تتطلب إدراكاً أعمق ، وتتحكم فى وجودنا كله . كانت هناك صبية شقراء ، تكاد تكون حمراء الشعر ، تبدو كأنها عائدة من النزهة ، وتمسك يدها معزقة بستانى ، نظرت إلينا ، ورفعت وجهها الذى نثرت فيه بقع وردية . كان عيناها السوداوان يلمعان ، وبما أننى لم أكن أعرف آنذاك ، ولم أعرف بعد ذلك ، كيف أحول أى انطباع قوى إلى عناصره الموضوعية ، وبما أن قدرتى على الملاحظة لم تكن كافية ، كما يقال ، لاستخلاص فكرة لونهما ، ظلت ذكرى بريقهما تقدم نفسها لى ، فترة طويلة ، كلما فكرت فيها مرة أخرى ، على أنها ذكرى لون أزرق صارخ ما دامت الفتاة شقراء : ولولا أن عيناها كانتا بهذا السواد — ويلفت هذا النظر كثيراً عندما يراها المرء لأول مرة — ، لما أصبحت عاشقاً لعينيها الزرقاوين بصفة خاصة .

وجهت إليها أولا تلك النظرة التى لا تكتفى بأن تكون لسان حال العينين ، بل تطل من نافذتها كل الحواس القلقة المتحجرة ، النظرة التى تود أن تلمس ، وتأسر ، وتقود الجسد الذى تنظر إليه والروح أيضاً . ثم وجهت إليها نظرة ثانية ، لفرط خوفى من أن يبعدنى أبى وجدى ، بين لحظة وأخرى ، عندما يلمحان الفتاة ، ويقولان لى أن أسبقهما بقليل . وكانت هذه النظرة الثانية نظرة متوسلة لا شعورياً ، تحاول أن تجبرها على الانتباه إلى ومعرفتى ! وجهت حدقتى عينيها إلى الأمام وجانباً لتتعرف على أبى وجدى ، ولا شك أن الفكرة التى عادتنا بها قالت إننا سخفاء ، لأنها أدارت ظهرها

بازدراء ولا مبالاة ، ووقفت وقفة جانبية لتعفى وجهها من الدخول فى حقلهما البصرى.
واصل الاثنان السير ولم يرياها ، وتخطياني ، فى الأثناء التى تركت فيها عينيها تجريان فى اتجاهى ، بدون أن يكون فيهما تعبير خاص ، أو يبدو أنها رأتنى ، لكن كان فيهما ثبات وابتسامة خفية لا يمكن أن أفسرها ، وفقاً للمفاهيم التى لقنت لى عن حسن التربية ، إلا بأنهما دليل على الاحتقار المهين . وفى الوقت نفسه ، رسمت يدها حركة بذيئة لا يعطيها قاموس الأدب الذى أحمله فى نفسى إلا معنى واحداً ، إذا وجهت علناً إلى شخص لا نعرفه : معنى النية الوقحة .

— « هيا يا جلبرت ، تعالى ؛ ماذا تفعلين ؟ »

هكذا صاحت بصوت حاد آمر سيدة ترتدى ثوباً أبيضاً لم أرها ، ويبعد عنها قليلا سيد يرتدى ملابس قطنية لا أعرفه ، ثبت على عينين تخرجان من وجهه . فتوقفت الفتاة فجأة عن الابتسام ، وأخذت معزقتها ، وابتعدت بدون أن تلتفت ناحيتى ، بطريقة مطيعة ، غامضة ، ماكرة .

هكذا مر بالقرب منى هذا الإسم : جلبرت ، كفأل قد يمكننى يوماً من العثور على تلك التى جعل منها شخصاً حقيقياً ، ولم تكن ، قبل ذلك بلحظة ، إلا صورة مشكوك فيها . هكذا مر ، عندما تم النطق به ، فوق الياسمين والمنثور ، حاداً ونضراً كقطرات مياه الرشاشة الخضراء ، وشبع ، ولون منطقة الهواء النقى التى مر بها — وعزلها بسر حياة من إختارها ، للسعداء الذين يعيشون ويسافرون معها . وبسط ، تحت شجرة الزعرور الوردية ، فى مستوى كتفى ، خلاصة الألفة ، ولكم هى أليمة بالنسبة لى ، بينهم وبينها ، بينهم وبين ما أجهله عن حياتها التى لن أدخل فيها أبداً .

واللحظة (بينما كنا نبتعد ، وكان جدى يهمس قائلا : « يا لسوان المسكين ! أى دور يلعب ! تجعله يرحل ، لكى تبقى بمفردها مع عشيقها شارلوس ، لأنه هو بلا شك ! لقد عرفته ! وهذه الصغيرة التى يزجون بها فى هذه الفضيحة ! ») سكن الإحساس الذى خلفته فى اللهجة الاستبدادية التى تحدثت بها والدة جلبرت إلى ابنتها ، ولم ترد عليها هذه الأخيرة ، وأثبتت أنها مجبرة على الطاعة ، وليست فوق كل شىء ، سكن عذابى قليلا ، ورد لى بعض الأمل ، وقلل حبى . لكن ، سرعان مازاد هذا الحب من جديد فى نفسى ، كرد فعل أراد به قلبى المهان أن يرتفع إلى مستوى جلبرت أو ينزل بها إلى مستواه . أحببتها . وندمت على أن الوقت لم يسمح لى بإهانتها ، والإساءة إليها ، وإجبارها

على أن تتذكرنى ، وعلى عدم تفكيرى فى كل هذا . رأيتها جميلة لدرجة أننى وددت أن أعود أدراجى ، وأصرخ وأقول لها وأنا أهز كتفى : « كم أنت قبيحة ! ومضحكة ! كم أشمئز منك ! » ومع ذلك ، ابتعدت ، حاملا معى إلى الأبد ، كنموذج أول لسعادة لا يمكن أن يبلغها أطفال مثلى ، نتيجة لبعض القوانين الطبيعية التى يستحيل الخروج عليها ، صورة فتاة حمراء الشعر ، نثرت على وجهها بقع وردية ، تمسك معزقة وتضحك وهى توجه إلى نظرات جانبية ماكرة خالية من التعبير . وكان السحر الذى عطر به اسمها هذا المكان تحت الزهور الوردية ، عندما سمعناه معاً أنا وهى ، قد أخذ يغزو ، ويكسو ، ويعطر كل ما يقترب منه ، أجدادها الذين سعد أهلى بمعرفتهم ، ومهنة الصراف السامية ، وحى الشانزليزيه الأليم الذى تسكنه فى باريس .

قال جدى ، عندما عدنا إلى المنزل : « وددت أن تكونى معنا ، ياليونى ، منذ قليل ! ولو أن ذلك كان ، لما عرفت تونسونفيل . ولو أننى تجرأت ، لقطعت لك غصناً من ذلك الزعرور الوردى الذى تحبينه كثيراً ! » هكذا حدث جدى العمة ليونى عن نزهتنا ، إما لتسليتها ، إما لأنه لم يفقد تماماً الأمل فى إخراجها من الدار . وكانت فيما مضى تحب هذه الضيعة كثيراً . وكانت زيارات سوان آخر زيارات قبلتها ، فى الأثناء التى أخذت فيها تغلق بابها فى وجه الجميع . ولما كان يحضر للسؤال عنها (وكانت الشخص الوحيد ، بين أفراد أسرتنا ، الذى ظل سوان يطلب رؤيته) ، كانت ترسل من يقول له إنها متعبة ، كما تفعل الآن ، وإنها ستستقبله فى المرة القادمة . وفى ذلك المساء ، قالت : « نعم ، سأذهب بالعربة حتى باب المتنزه يوماً ، إذا كان الجو جميلا » . وكانت صادقة فى قولها هذا ، لأنها تود أن ترى سوان وتونسونفيل مرة أخرى . لكن رغبتها فى ذلك كانت تكفى ما بقى لها من قوى ، أما تحقيقها فقد يتجاوزها . أحياناً ، كان الجو الجميل يرد إليها شيئاً من القوة ، فكانت تنهض ، وترتدى ملابسها ، لكن التعب كان يحل قبل أن تصل إلى الغرفة الأخرى ، فتطلب الذهاب إلى فراشها . كانت قد بدأت — لكن فى وقت مبكر أكثر مما يحدث عادة — ذلك التنازل الهائل الذى تتسم به الشيخوخة التى تستعد للموت ، وتلتحف بشرنقتها ، ويمكن أن نلاحظها فى آخر أيام من يطول بهم العمر ، حتى بين العشاق القدامى الذين هاموا ببعضهم بعضاً ، والأصدقاء الذى تربط بينهم روابط متينة ، ويتوقفون ، ابتداء من سنة معينة ، عن الخروج أو السفر لرؤية بعضهم بعضاً ، ومراسلة بعضهم بعضاً ، ويعرفون أن الاتصال بينهم فى هذه الدنيا سوف ينقطع . ولا شك أن عمتى كانت تعلم حق العلم أنها لن ترى

سوان ولن تغادر البيت أبداً ، لكن ، كان ييسر اعتزالها النهائي ، بلاشك ، نفس السبب الذى كان يجب أن يجعله أكثر إيلاماً لها ، من وجهة نظرها ، أقصد أن إدراكها لضعف قواها يوماً بعد يوم كان يفرض عليها هذا الاعتزال . وعندما كانت تجعل من أى عمل ، وأى حركة ، شيئاً متعباً ، إن لم يكن عذاباً ، كانت تعطى لانعدام الفعل ، والعزلة ، والصمت ، حلاوة الراحة التعويضية المباركة .

لم تذهب عمتى لرؤية سياج الزعرور الوردى ، لكنى كنت أسأل والدى فى كل لحظة عما إذا كانت ستذهب ، لأنها كانت تذهب كثيراً إلى تونسونفيل » ، فيما مضى ، محاولا بذلك حملهما على الحديث عن آباء الآنسة سوان وأجدادها ، الذين كنت أتصورهم عظماء كالآلهة . وكان هذا الاسم،سوان، يصبح أسطورياً فى نظرى ؛ وعندما كنت أتحدث إلى والدى ، كانت تضنينى الحاجة إلى سماعهم ينطقون به ، ولا أجرؤ أنا على النطق به ، لكنى كنت أجذبهم إلى موضوعات قريبة من جلبرت وأسرتها ، تخصها ، ولا أشعر إزاءها أننى منفى بعيداً عنها . كنت أجبر والدى فجأة ، وأنا أتظاهر ، على سبيل المثال ، بأننى اعتقد أن فى أسرتنا من شغل وظيفة جدى من قبل ، أو أن سياج الزعرور الوردى الذى تريد العمة ليونى أن تراه يوجد فى أرض الحكومة ، أجبره على تصحيح قولى ، وعلى أن يقول لى ، كأنه يقول من تلقاء نفسه ، ورغماً عنى ، « لا ، كان والد سوان يشغل هذه الوظيفة ، وهذا السياج جزء من متنزه سوان » . عندئذ ، كنت اضطر إلى التقاط أنفاسى ، لأن هذا الإسم كان يثقل على لدرجة الخنق ، إذ يحط فى المكان الذى ظل مكتوباً فيه ، فى نفسى . وفى اللحظة التى كنت أسمعه فيها ، كان يخيل إلى أنه أكثر امتلاء من أى اسم آخر ، لأنه مثقل بعدد المرات التى نطقت به فيها ، بينى وبين نفسى . وكان يبعث فى متعة أخجل ولا أجرؤ على طلبها من والدى ، لأنها بالغة ، ولا شك أنها تطلبت منهما كثيراً من العناء ، بلا مقابل ، ما داما لا يعتبرانها متعة . لذا ، حولت الحديث ، بدافع التقدير والشك أيضاً . وكنت أجد فى هذا الإسم ، سوان ، كل الإغراء الغريب الذى أضعه فيه ، حالما ينطقون به . وكان يخيل إلى عندئذ ،فجأة ، أن والدى لابد أن يحسا به ، ويتبنيا وجهة نظرى ، وأنهما يريان أيضاً أحلامى ، ويتفقان معها ، ويغفرانها لى . وكنت أشقى ، كما لوكنت قدهزمتها وأفسدتها .

فى تلك السنة ، حدد والدى يوم عودتنا إلى باريس قبل الموعد المعتاد بقليل . ويوم السفر ، صففوا لى شعرى لكى تلتقط لى صورة ، وألبسونى بعناية قبعة لم أضعها من

قبل على رأسى ، ومعطفا مبطناً بالمخمل . وبعد أن بحثت عنى أمى فى كل مكان ، وجدتنى أبكى فى الطريق المنحدر الضيق المجاور لتونسونفيل ، وأودع الزعرور ، وأحيط الغصون وأشواكها بذراعى . وكما تفعل أميرة إحدى المآسى ، التى تثقل عليها الزينات العابثة ، تنكرت لليد المزعجة التى وضعت الأربطة فى شعرى ، وعنيت بجمعه فوق جبينى ، ونزعت قصاصات الورق التى لفوا بها شعرى لتجعيده ، ودستها بقدمى هى والقبعة الجديدة . لم تتأثر أمى بدموعى ، لكنها لم تتمالك نفسها ، وصرخت عندما رأت القبعة المثقوبة والمعطف الذى أتلفته . لم أسمعها ، وقلت وأنا أبكى : « أى زهورى الصغيرة المسكينة ، أنت لا تريدين تكديرى ، وإجبارى على السفر . أنت لم تحزنينى أبداً وسأحبك دائماً من أجل هذا» ، ومسحت دموعى ، ووعدت زهور الزعرور بألا أقلد الحياة المجنونة التى يحياها الآخرون ، عندما أكبر ، وبأن أذهب إلى الريف ، فى أيام الربيع ، حتى لوكنت فى باريس ، لأرى أول زهور الزعرور ، بدلا من القيام ببعض الزيارات أو الاستماع إلى بعض السخافات .

كنا لا نبتعد عن الحقول قط ، بعد أن نصل إليها ، طوال النزهة التى تقوم بها ناحية ميزجليز . وكانت تطوف بها باستمرار ، كأنها شخص يتجول ولا يرى ، ريح تمثل فى نظرى كومبريه الخاصة . ففى كل عام ، كنت لا أشعر أننى فى كومبريه حقاً ، يوم وصولنا إليها ، إلا إذا صعدت للقائها وهى تجرى فى عباءات الرعاة ، وجريت وراءها .

كانت الريح تظل بجانبنا ، ناحية ميزجليز ، فى ذلك السهل المحدب الذى لا تلتقى فيه بأى أرض مرتفعة ، على بعد عدة فراسخ . وكنت أعرف أن الآنسة سوان تختلف كثيراً إلى لاوون لقضاء بضعة أيام فيها . ورغم أن هذا المكان كان بعيداً ، كان غياب أى عائق يعوض بعد المسافة . وكنت عندما أرى ، فى الأيام الحارة بعد الظهر ، هبة ريح واحدة قادمة من أقصى الأفق ، وهى تميل القمح ، مهما كان بعيداً ، وتنتشر كالموجة فوق المساحات الشاسعة ، وتعود لترقد ، هامسة دافئة ، بين العشب والبرسيم ، تحت قدمى ، وكان السهل المشترك يبدو وكأنه يقرب بيننا ، ويجمع بيننا ، أفكر فى أن هبة الريح هذه مرت بجوارها ، وأنها رسالة منها تهمس لى الريح بها ولا أستطيع تفسيرها ، وأقبلها عند مرورها . كانت توجد على اليسار قرية تسمى شامبيو ، وكنا نرى على اليمين ، وراء القمح ، برجى أجراس سان أندريه دى

شون ، وهما برجان ريفيان ، منقوشان ومشوقان ، بهما قشور ، وتشابكت فيهما خلايا كقرص العسل ، مصفران ومحجبان كسنبلتي قمح .

وعلى مسافات متساوية ، وسط زينة أوراقها التي لا تضاهى ، ولا يمكن الخلط بينها وبين أوراق شجرة فاكهة أخرى ، كانت أشجار التفاح تفتح بتلاتها العريضة الشبيهة بالساتان الأبيض ، أو تعلق باقات براعمها المحمرة الخجولة . ولاحظت لأول مرة ، ناحية ميزجليز ، الظل المستدير الذى ترسمه أشجار التفاح على الأرض المشمسة ، وذلك الحرير الذهبى الذى لا يدرك إلا باللمس ، وتنسجه الشمس الغاربة بميل تحت الأوراق . وكنت أرى أبى يوقفه بعصاه ، ولا يجعله ينحرف أبداً .

وكان القمر الأبيض يمر أحياناً كالسحاب ، فى سماء بعد الظهيرة ، عابرا وخاليا من البريق ، كممثلة لم يحن وقت أدائها لدورها بعد ، وتنظر لحظة إلى زملائها ، وهى بملابسها العادية فى الصالة ، وتنزوى ، ولا تريد أن يلتفت إليها أحد . كنت أحب العثور على صورة القمر فى اللوحات والكتب . لكن هذه الأعمال الفنية كانت مختلفة تماما — على الأقل فى السنوات الأولى ، قبل أن يعود بلوك عينى وفكرى على أشكال أدق من الانسجام — عن تلك التى قد يبدو لى فيها القمر جميلا اليوم . على سبيل المثال ، كانت هذه الأعمال الفنية رواية لسانتين ، أو منظراً طبيعياً لجلير ، يرسم فيه القمر بوضوح منجلا فضياً فى السماء ، أى أنها كانت أعمالا ساذجة وناقصة كانطباعاتى ، تثير أخوات جدتى عندما كن يرين حبى لها . فلقد كن يعتقدن أنه يجب أن توضع أمام الأطفال — ويثبتون حبهم لها — الأعمال التى قد يعجب المرء نهائياً ، عند بلوغة سن النضج ولا شك أنهن كن يتصورن أن المزايا الجمالية أشياء مادية لا يمكن إلا أن تراها العين المفتوحة ، بدون أن يحتاج المرء إلى امعان التفكير فى نظير لها ، فى نفسه .

كان مسيو فانتوى يسكن ناحية ميزجليز ، فى مونجوفان ، بيتاً يقع على شاطىء بركة كبيرة ويستند إلى منحدر كثير الدغال . لذا ، كان الناس يقابلون ابنته كثيراً على الطريق ، وهى تقود « كارتة » بمنتهى السرعة . وابتداء من سنة معينة ، لم ير الناس الإبنة بمفردها ، وإنما بصحبة صديقة تكبرها سناً ، سيئة السمعة فى المنطقة ، استقرت يوماً بصفة نهائية فى مونجوفان . وقيل : « لاشك أن فانتوى المسكين قد أعماه الحب ، مادام لا يدرك ما يقال ، ويسمح لابنته ، وهو الذى يستنكر أى كلمة خارجة ، بالحياة تحت سقف واحد مع امرأة كهذه . بل يقول إنها امرأة راقية ، كبيرة القلب ، كان لديها استعداد خارق لعزف الموسيقى ، لكنها لم تنمه . وليتأكد أنها لا تشغل بالها بالموسيقى

عندما تكون مع ابنته » . كان مسيو فانتوى يقول ذلك . ونلاحظ بالفعل إلى أى مدى يعجب والدى شخص ما بالصفات المعنوية التى يتمتع بها شخص آخر تربطه بابنهم أو ابنتهم علاقة جسدية . وحب الحسد ، الذى يحط الناس من شأنه بغير حق ، يجبر أى شخص على أن يظهر إلى أقصى حد ما فيه من طيبة واستسلام ، مما يجعله يتألق ، حتى فى عينى من يحيطون به مباشرة . وكان الدكتور برسبييه ، الذى يسمح له صوته الجهورى وحاجباه الكثيفان بأداء دور الخائن ، وإن كان شكله لا يصلح لذلك ، بدون أن يخاطر بحال من الأحوال بالسمعة الراسخة التى لا يستحقها ، أى أنه إنسان طيب خشن ، يعرف كيف يجعل الخورى والجميع يضحكون حتى تدمع عيونهم ، عندما يقول بلهجة جافة : «آه ! يبدو أن الآنسة فانتوى تعزف الموسيقى مع صديقتها . ويبدو أنكم مندهشون لذلك . أنا لا أفهم . الأب فانتوى هو الذى قال لى هذا أمس ، مرة أخرى على أية حال ، من حق هذه الفتاة أن تحب الموسيقى . فأنا لا أوافق على معارضة مواهب الأبناء الفنية . وفانتوى أيضاً ، لا يوافق على ذلك فيما يبدو . هو أيضاً يعزف الموسيقى مع صديقة ابنته . يالها من موسيقى ، تلك التى تعزف فى هذا البيت ! لم تضحكون ؟ يبالغ هؤلاء الناس فى عزف الموسيقى . وقابلت أخيراً الأب فانتوى بالقرب من المقابر ، وكان يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه » .

وربما كان يصعب على الذين رأوا ، كما رأينا فى الفترة الأخيرة ، أن مسيو فانتوى يتجنب الذين يعرفهم ، ويدير ظهره عندما يراهم ، ويصاب بالشيخوخة فى بضعة شهور ، وينغمس فى الحزن ، ويعجز عن بذل أى جهد لا يهدف إلى إسعاد ابنته مباشرة ، ويقضى أياماً كاملة أمام مقبرة زوجته ، ألا يفهموا أنه فى سبيله إلى الموت حزناً ، ويفترضوا أنه لا يدرك الشائعات : ربما كان يعرفها ، بل يصدقها . ولا يوجد شخص ، مهما كان فاضلا ، لا يجعله تعقيد الظروف يعيش يوماً فى ألفة مع الرذيلة التى يدينها صراحة ، ولا يتعرف عليها تماماً تحت ثوب الوقائع الخاصة الذى تتنكر فيه لتتصل به وتعذبه : كلمات غريبة ، ومواقف لا تقبل التفسير ، يتخذها ذات مساء شخص يحبه لأسباب كثيرة ، بالإضافة إلى ذلك ، لكن ، بالنسبة لرجل مثل فانتوى ، كان الاستسلام لموقف من هذه المواقف التى نخطىء ونظن أنها وقف على عالم البوهيميين ، يتضمن عذاباً أكثر بكثير من عذاب أى شخص آخر . وتطرأ هذه المواقف فى كل مرة تحتاج فيها الرذيلة إلى الاحتفاظ لنفسها بالمكانة والأمان اللازمين لها . والطبيعة ذاتها تجعل الرذيلة تتفتح عند الطفل ، لمجرد خلطها بين خواص الأب والأم أحياناً ، فى لون عينيه مثلا . لكن احتمال معرفة فانتوى لسلوك ابنته لم يكن ليقلل من عبادته لها ، فالوقائع لا تنفذ إلى العالم الذى تعيش فيه معتقداتنا ، ولا توجد هذه المعتقدات ، أو تقضى عليها .

فهى تستطيع أن تخضعها للتكذيب المستمر ، لكن بدون أن تضعفها . وسيل المصائب والأمراض المتتالية الذى لا ينقطع فى أسرة ما ، لن يجعلها تشك فى رحمة الله أو موهبة طبيبها الخاص . وعندما كان فانتوى يفكر فى ابنته ، وفى نفسه ، وفى سمعتهما ، من وجهة نظر الناس ، عندما كان يحاول أن يحدد موقعه وموقعها من المرتبة التى كانا يحتلانها فى تقدير الآخرين عامة ، كان يصدر هذا الحكم الاجتماعى كما كان يمكن أن يصدره ألد أعدائه ممن يسكنون كومبريه بالضبط ، ويرى نفسه مع إبنة فى أسفل السافلين . واتسم سلوكه مؤخراً ، نتيجة لذلك ، بذلك التواضع وذلك الاحترام الذى يشعر بهما المرء تجاه الذين يوجدون فى مرتبة أعلى ويراهم هو من أسفل (وإن كانوا من قبل فى مرتبة أدنى منه بكثير ، والميل إلى محاولة الارتقاء إلى مستواهم وهو نتيجة تكاد تكون آلية لكافة أنواع الانحطاط) . كنا نسير ذات يوم مع سوان فى أحد شوارع كومبريه ، ووجد مسيوفانتوى نفسه فجأة أمامنا ، وهو خارج من شارع آخر ، ولم يتسع الوقت لكى يتجنبنا . ولايرى رجل المجتمع المتكبر المحسن ، عندما تتحلل كل آرائه الأخلاقية المسبقة عن فضيحة الآخرين إلا سبباً للعطف عليهم ، ويدغدغ التعبير عن هذا العطف كبرياء من يبديه ، كلما أحس بقيمته عند من يبدى له . لذا ، تحدث سوان طويلا إلى مسيو فانتوى ، وكان لا يوجه الكلام إليه من قبل ، وطلب منه ، قبل أن نفترق ، أن يرسل ابنته يوماً لتلعب فى تونسونفيل . ولو أن هذه الدعوة وجهت إليه قبل ذلك بعامين ، لأثارت غضبه . لكنها الآن تملؤه بالشعور بالامتنان ، لدرجة أنه ظن أنه مضطر إلى رفضها ، ليكى لا يكون متطفلا . كانت حفاوة سوان بابنته تبدو له ، فى حد ذاتها ، سنداً مشرفاً وممتعاً لدرجة أنه رأى من الأفضل ألا يستخدمه ، ليشعر بمتعة الاحتفاظ به ، وهى أفلاطونية بحتة . وقال لنا :

— «ياله من رجل لطيف ! ياله من رجل لطيف ! من سوء الحظ أنه عقد هذه الزيجة التى لا تليق به» عندما ابتعد سوان عنا ، بنفس التبجيل المتحمس الذى يجعل البورجوازيات الجميلات الذكيات يحترمن الدوقات ، حتى لوكن قبيحات حمقاوات ، ويسحرن بهن .

وعندئذ ، لأن أصدق الناس فيهم شىء من النفاق ، ولأنهم يكشفون وهم يتحدثون إلى شخص ما عن رأيهم فيه ، ويعبرون عن هذا الرأى حالما يذهب ، ابدى والدى كما أبدى مسيو فانتوى أسفهما على عقد سوان لهذه الزيجة ، باسم مبادئ وتقاليد (لأنهما يذكرانها بالاشتراك معه ، باعتبارهما أناساً على شاكلته) تظاهرا بعدم مخالفة أحد لها فى مونجوفان . لم يرسل مسيو فانتوى ابنته عند سوان . وكان هذا الأخير أول من ندم على ذلك ، لأنه كان يتذكر ، فى كل مرة يفارق فيها مسيو فانتوى ، أنه يريد من فترة أن يسأله عن شخص يحمل نفس الإسم ، هو أحد أقاربه ، فيما ظن .

وفى هذه المرة ، كان قد اعتزم ألا ينسى ما يريد قوله لمسيو فانتوى ، عندما يرسل ابنته إلى تونسونفيل .

وبما أن النزهة ناحية ميزجليز كانت أقصر النزهتين اللتان نقوم بهما حول كومبريه ، كنا نبقيها للوقت الذى يكون فيه الجو مشكوكاً فيه ، لأن الجو ناحية ميزجليز كان ممطراً إلى حد ما . ولم يغب عن أنظارنا أبداً طرف غابات روسانفيل التى يمكن أن نحتمى بكثافتها .

وكثيراً ما كانت الشمس تختبئ خلف سحابة تشوه شكلها البيضاوى ، وتصبغ هى حافتها باللون الأصفر . كان البريق ، لا النور ، يخطف من الريف ، حيث تبدو الحياة معلقة ، بينما ترسم قرية روسانفيل الصغيرة فى السماء بروز أضلاعها البيضاء ، بدقة وإتقان بالغين . وكان الهواء القليل يرفع غراباً يسقط بعيداً ، وكانت الغابات البعيدة تبدو أكثر زرقة فى السماء المبيضة ، ومرسومة بتلك الألوان المتدرجة التى تزين دعامات السواكف فى المنازل القديمة .

وفى مرات أخرى ، كان يسقط المطر الذى هددنا به تمثال الراهب الذى وضعه النظاراتى فى فترينة محله . كانت قطرات الماء تطير كلها فى وقت واحد ، كالطيور المهاجرة ، وتسقط من السماء فى صفوف متلاحقة متلاصقة . كانت لا تفترق ، ولاتسير على غير هدى فى رحلتها السريعة . كانت كل واحدة منها تبقى فى مكانها وتجذب إليها القطرة التى تليها ، وكانت السماء تظلم لسقوطها أكثر مما تظلم عندما ترحل الخطاطيف. عندئذ ، كنا نلجأ إلى الغابة . وعندما تنتهى رحلة القطرات فيما يبدو ، تصل قطرات أخرى أبطأ وأضعف منها . لكننا كنا نخرج من ملجئنا ، لأن القطرات تسعد بالأوراق — وكانت الأرض قد جفت تقريباً — وتظل أكثر من واحدة منها تتلكأ ، وتلعب على عروق ورقة ، وتتعلق بطرفها ، وترتاح ، وتلمع فى السماء ، وفجأة ، تدع نفسها تنزلق من أعلى الغصن ، وتسقط على أنفنا .

وكثيراً ما كنا نحتمى أيضاً من المطر بتماثيل القديسين والبطاركة الموجودة فى سقف مدخل سان أندريه ديشون . كم كانت هذه الكنيسة فرنسية الطابع ! فوق الباب ، كل القديسين ، والملوك الفرسان الذين يمسكون بزهرة الزنبق فى أيديهم ، ومشاهد الأفراح والمآتم ، وصور كل هذا كما يمكن أن تصوره فرانسواز . وكان المثال قد روى أيضاً بعض النكات عن أرسطو وفيرجيل ، بنفس الطريقة التى تتحدث بها فرانسواز فى المطبخ طواعية عن القديس لويس ، كأنها قد عرفته شخصياً . وعادة ما كانت تفعل ذلك لكى تخجل جدى وجدتى اللذان يقلان عنه عدالة ، إذا ما قورنا به . وكان المرء يشعر أن مفهوم فنان العصور الوسطى وفلاحة العصور الوسطى (الذى بقى حتى القرن

التاسع عشر) للتاريخ القديم أو التاريخ المسيحى ، وهو مفهوم يتميز بقدر متساو من السذاجة وعدم الدقة ، مستمد لا من الكتب ، وإنما من روايات قديمة وحديثة فى آن واحد ، شفهية ، ومشوهة ، وحية ، ولم تنقطع ، لا يمكن التعرف عليها بسهولة .

وكانت هناك شخصية أخرى من كومبريه ، افترض الفنان وجودها وتنبأ به ، وتعرفت عليها فى نحت الكنيسة القوطى ، وأقصد بها الفتى تيودور الذى يعمل عند كامو . كانت فرانسواز تشعر أنه من بلدها وعصرها بحيث كانت تطلب من تيودور أن يساعدها ، عندما تمرض عمتى لدرجة تعجز معها عن تقليبها فى الفراش بمفردها أو نقلها إلى مقعدها بدلا من أن تجعل الخادمة تصعد لكى تنظر إليها عمتى « بعين الرضا » ، كان هذا الفتى الذى اشتهر بفساده عن وجه حق ، ممتلئاً بالروح التى زينت سان أندريه ديشون ، وبصفة خاصة بمشاعر الاحترام التى ترى فرانسواز أنها واجبة نحو « المرضى المساكين » ، و « سيدتها المسكينة » ، إلى حد يجعله يرفع رأس عمتى من فوق وسادتها ، بوجه برئ متحمس كوجه الملائكة المنحوتة فى الحجر التى تتزاحم والشموع فى أيديها حول العذراء الخائرة القوى ، وكأن الوجوه الرمادية العارية المنحوتة فى الحجر ، والشبيهة بالخشب فى الشتاء ، لم تكن سوى إشراقة شمس ، واحتياطى مستعد للازهرار فى الحياة فى وجوه شعبية لا تحصى ، وجوه محترمة وماكرة كوجه تيودور ، لونها حمرة التفاحة الناضجة .

وكانت قديسة ممتلئة الوجه ، لم تلصق على الحجر كالملائكة الصغيرة ، وإنما انفصلت عن المدخل ، أكبر حجماً من حجم الإنسان . كانت تقف على قاعدة تبدو كالمنضدة ، وتعفيها من وضع قدميها على الأرض للرطبة . كان صدرها المتماسك يرفع ثوبها كعنقود ناضج فى كيس من اللباد ، كان جبينها ضيقاً ، وأنفها قصيراً متمرداً ، ومقلتاها غائرتين ، وشكلها صحيحاً شجاعاً عديم الإحساس كشكل فلاحات المنطقة . وثبتت هذا الشبه ، الذى بعث فى التمثال رقة لم أبحث عنها فيه ، فتاة فى الحقول جاءت تبحث عن ملجأ مثلنا ؛ وكان وجودها كوجود أوراق العشب التى نبتت بجوار الأوراق المنحوتة ، يشهد على صدق العمل للفنى ، بمواجهته بالطبيعة . وأمامنا ، بعيداً ، الأرض الملعونة أو الموعودة ، روسانفيل التى لم أدخل بين جدرانها أبداً ، روسانفيل التى كانت تظل خاضعة لرماح العاصفة التى تصفع بميل منازل سكانها ، وكأن العقاب قد كتب عليها كقرية من قرى التوراة ، بعد أن يكون المطر قد توقف عن السقوط بالنسبة لنا . وأحياناً ، كان الله يغفر لها ، ويتزل عليها السيقان الذهبية المهدبة لشمسه التى عادت إلى الظهور ، سيقان اختلفت أطوالها ، كأنها أشعة معرض للقربان المقدس .

أحياناً ، كان الجو يسوء تماماً ، ويتحتم علينا أن نعود ونظل محبوسين فى المنزل . وكانت تلمع ، هنا وهناك ، بعيداً ، فى الحقول التى تجعلها الظلمة الرطبة شبيهة بالبحر ، بيوت متفرقة معلقة فى جانب تل غارق فى الليل والماء ، كأنها مراكب صغيرة طوت قلاعها وظلت واقفة لا تتحرك فى عرض البحر طوال الليل . لكن ، ما أهمية المطر ، وما أهمية العاصفة ؟ ! فحالة الجو السيئة فى الصيف ليست سوى نزوة سطحية عابرة للجو الجميل الثابت الكامن تحتها ، وهو مختلف تماماً عن الجو الجميل الذى لا يستقر فى الشتاء . فتراه ، بعكس هذا الأخير ، يستقر على الأرض التى تجمد عليها فى شكل أوراق كثيفة ، يمكن أن يسقط عليها المطر قطراته بدون أن يؤثر فى مقاومة فرحتها الدائمة ، ويرفع طوال الفصل كله ، فوق جدران المنازل والحدائق ، بل وفى شوارع القرية ، راياته الحريرية البنفسجية أو البيضاء . كنت وأنا جالس فى الصالون الصغير ، انتظر ساعة العشاء وأنا أقرأ ، أسمع قطرات الماء تسقط من أشجار الكستناء فى حديقتنا ، لكنى كنت أعلم أن السيل سيلمع أوراقها فقط ، وأنها تعد بأن تبقى هنا ، كضمان للصيف ، طوال الليلة الممطرة ، وتضمن استمرار الجو الجميل ، وأن أوراقاً عديدة صغيرة على شكل قلب ستموج غداً فوق سياج تونسونفيل الأبيض ، مهما أمطرت السماء . وبدون أن أشعر بالحزن أيضاً ، كنت أسمع فى عمق الحديقة هديل آخر قصف للرعد فى أشجار الليلك .

وعندما كان يتضح أن حالة الجو سيئة ، منذ الصباح ، كان والدى يصرفان النظر عن النزهة ، ولا أخرج بالتالى . لكنى اعتدت بعد ذلك الذهاب ناحية ميزجليز لافينوز فى تلك الأيام ، والسير وحدى ، فى فصل الخريف الذى اضطررنا فيه إلى المجيء إلى كومبريه من أجل تركة العمة ليونى ، لأنها ماتت أخيراً ، وحققت النصر فى آن واحد للذين كانوا يزعمون أن الرجيم الذى تتبعه يضعفها وسيقتلها فى النهاية ، والآخرين الذين أكدوا دائماً أنها تعانى ، لامن مرض وهمى ، وإنما من مرض عضوى ، وأن من يشكون فى ذلك سيضطرون إلى التسليم به عندما يقضى عليها ، وأن شخصاً واحداً فقط سيشعر بألم بالغ لموتها . فى الخمسة عشر يوماً التى مرضت فيها عمتى أخيراً ، لم تفارقها فرانسواز لحظة واحدة ، ولم تخلع ملابسها ، ولم تدع أحداً يعنى بها ، ولم تفارق جسدها إلا عندما ووری التراب . عندئذ ، فهمنا أن هذا النوع من الخوف للذى عاشت فيه فرانسواز ، الخوف من كلام عمتى الجاف ، وشكوكها وغضبها نمى فيها إحساس اعتقدنا أنه إحساس بالكراهية ، بينما كان فى الواقع حباً وتبجيلا . رحلت سيدتها الحقيقية ، ورحلت معها

قراراتها التي يستحيل التنبؤ بها ، وحيلها التي يصعب إحباطها ، ورحل قلبها الطيب الذى تسهل إمالته، رحلت مليكتها الغامضة القديرة . ولم نكن نساوى إلا القليل بالقياس إليها . لكم كان بعيداً الزمان الذى حظينا فيه ، فى نظر فرانسواز ، بنفس الاحترام الذى تحظى به عمتى ، عندما بدأنا نأتى إلى كومبريه لقضاء الأجازة . وفى ذلك الخريف ، كان والدى مشغولين تماماً باتمام الإجراءات ، والحديث مع كتاب العدل والمزارعين ، ولم يكن لديهما وقت يخرجان فيه ، فضلا عن أن الجو كان يعاكسهما . لذلك ، اعتادا أن يتركانى أذهب إلى النزهة بدونهما ناحية ميزجليز ، وأنا ملتحف بغطاء كبير يحمينى من المطر ، أضعه بارتياح على كتفى ، لاسيما أننى كنت أشعر أن خطوطه ومربعاته تثير استنكار فرانسواز . وكان من المستحيل أن يدخل أحد فى ذهنها انعدام العلاقة بين لون الملابس والحداد . فضلا عن أن حزننا على موت عمتى لم يعجبها إلا قليلا ، لأننا لم نقم وليمة جنائزية كبرى ، ولم نعمد إلى نبرة صوت خاصة ونحن نتحدث عنها ، لأننى كنت أدندن أحياناً . وأنا متأكد أننى ، لو وجدت فى كتاب — وكنت فى ذلك شبيهاً بفرانسواز — هذا المفهوم للحداد ، فى « ملحمة رولان » مثلا أو صورة سان أندريه ديشون ، لتعاطفت معه . لكن ، حالما كانت فرانسواز تقف بجوارى ، كان الشيطان يدفعنى إلى أن أتمنى أن تثور ، وأتذرع بأقل حجة لكى أقول لها أننى حزين على عمتى لأنها كانت امرأة طيبة ، رغم عيوبها ، لا لأنها عمتى قط ، وإن كان يمكن أن تكون عمتى وتبدو لى بغيضة ولا يثير موتها أى حزن فى ، وهذه عبارات كانت ستبدو لى حمقاء لو وجدتها فى كتاب .

وإذا اعتذرت فرانسواز ، وقد امتلأت كأحد الشعراء بموجة من الأفكار المبهمة عن الحزن وذكريات الأسرة ، لأنها تعرف كيف ترد على نظرياتى ، وقالت : « لا أحسن التعبير عن نفسى » ، انتصرت لهذا الاعتراف بحكمة ساخرة خشنة تليق بالدكتور برسبييه . وإذا أضافت : « لقد كانت على أية حال من الأقارب ، واحترام الأقارب واجب علينا دائماً » ، كنت أهز كتفى وأقول لنفسى : « ماذا دهانى حتى أتناقش مع إنسانة أمية ترتكب مثل هذه الأخطاء » ؟ وهكذا كنت أتبنى ، للحكم على فرانسواز ، وجهة النظر الحقيرة التى يتبناها أولئك الذين يستطيعون أداء دور من يحتقرونهم أشد الاحتقار ، بتفكير محايد ، عندما يمثلون مشهداً مبتذلا من مشاهد الحياة .

كانت نزهتى فى ذلك الخريف محببة إلى نفسى لأننى أقوم بها بعد ساعات طوال قضيتها مع الكتاب . كنت أخرج ، بعد أن أضع الغطاء على كتفى ، بعد أن أتعبتنى القراءة طوال فترة الصباح فى القاعة . وكان جسدى ، الذى أجبر على أن يظل بلا حراك

فترة طويلة ، لكنه شحن وهو فى مكانه بالحياة والسرعة المتراكمين ، يحتاج بعد ذلك إلى تفريغهما فى كافة الاتجاهات ، كالنحلة التى يطلق لها العنان . وكان كل من جدران المنازل ، وسياج تونسونفيل ، وأشجار غابة روسانفيل ، والشجيرات التى يستند إليها مونجوفان ، يتلقون ضربات عصا أو مظلة ، ويسمعون صرخات فرحة لم تكن ، سواء تعاق الأمر بهذه أم تعلق بتلك ، سوى أفكاراً غامضة تثير نفسى ، ولم تبلغ الراحة فى النور ، لأنها فضلت على الإيضاح الصعب البطئ ، متعة الانحراف السهل نحو مخرج مباشر . وهكذا ، لا تعمل أغلب الترجمات المزعومة لما نحس به إلا تخليصاً منه ، باخراجه منا فى شكل غير مميز لا يعلمنا كيف نصرفه . وعندما أحاول أن أحصى ما أدين به لناحية ميزجليز ، والاكتشافات المتواضعة التى كانت إطاراً عابراً لها أو أوحت بها حتماً ، أذكر أنه استرعى انتباهى لأول مرة ، فى ذلك الخريف ، خلال واحدة من هذه النزهات ، بالقرب من المنحدر ذى الأشواك الذى يحمى مونجوفان ، عدم التوافق بين انطباعاتنا والتعبير المعتاد عنها . وبعد ساعة من الرياح والمطر اللذان كافحتهما بفرح ، وصلت إلى شاطئ بركة مونجوفان ، أمام كوخ صغير مغطى بالقرميد يضع فيه بستانى مسيو فانتوى أدواته ، عندما عاودت الشمس الظهور ؛ وكان ذهبها الذى غسله السيل يلمع جديداً فى السماء ، وفوق الأشجار ، وجدار الكوخ وسقفه الذى لا يزال مبتلا وتتنزه دجاجة أعلاه . كانت الرياح التى تهب تجذب بطريقة أفقية الحشائش البرية التى نبتت بجوار الجدار وريش الدجاجة. وكانت الحشائش وكان الريش يسلمون أنفسهم لهبوبها الذى يحركهم كيفما يشاء حتى أقصى طول لهم ، كأنهم أشياء جامدة خفيفة . وكان سقف القرميد يرسم فى البركة التى جعلتها الشمس تلمع كالمرآة ، بقعا وردية لم تسترع انتباهى قبل ذلك أبداً . وإذ رأيت على صفحة المياه وواجهة الجدار ابتسامة شاحبة ترد على ابتسامة السماء ، صحت بكل حماس وأنا أشهر مظلتى المطوية : « طظ ! طظ ! طظ ! » لكنى أحسست فى الوقت نفسه أن من واجبى ألا أكتنى بهذه الكلمات المعتمة ، وأن أحاول أن تكون رؤيتى أكثر وضوحاً .

وفى تلك اللحظة أيضاً — بفضل فلاح كان يمر ، ويبدو منحرف المزاج إلى حدما ، وازداد مزاجه انحرافاً عندما أوشك أن يتلقى مظلتى فى وجهه ، ورد بفتور على قولى : « الجو جميل ، أليس كذلك ؟ والمشى أجمل » — عرفت أن نفس الانفعالات لا تولد فى وقت واحد ، بترتيب وضع سلفا عند كل الناس ، وفيما بعد ، فى كل مرة كانت القراءة لفترة طويلة إلى حدما تجعلنى أميل إلى الحديث ، كان الزميل الذى أتحرق شوقاً

إلى مخاطبته قد استسلم لتوه لمتعة الحديث ، ويريد الآن أن يترك وشأنه ، ويقرأ . وإذا فكرت لتوى فى والدى بحب ، واتخذت قرارات يمكن أن تسعدهما سعادة بالغة ، يكونا قد استغلا نفس اللحظة لمعرفة هفوة نسيتها ، ويلومونني بشدة عليها فى الدقيقة التى انطلق فيها نحوهما لتقبيلهما .

وأحياناً ، كان يضاف إلى الحماس الذى تبعثه فى الوحدة، حماس آخر لم أعرف كيف أفرق بينه وبين الأول بوضوح ، حماس ناشىء عن رغبتى فى أن تظهر أمامى فجأة فلاحة أستطيع أن أحتضنها . وكانت المتعة التى تصاحبه تولد فجأة ، بدون أن يتسع لى الوقت لإرجاعها إلى سببها بالضبط ، بين أفكار متباينة للغاية ، ولا تبدو إلا كدرجة عليا من المتعة التى تبعثها فى تلك الأفكار . وكنت أعطى مزيداً من القيمة لكل ما كان فى ذهنى فى تلك اللحظة ، ظل سقف القرميد الوردى ، والحشائش البرية، وقرية روسانفيل حيث كنت أريد الذهاب من زمن طويل ، وأشجار غابتها ، وبرج أجراس كنيستها . وكان الانفعال الجديد يزيد من رغبتى فيها فقط ، فيما يبدو ، لأننى كنت أظن أن هذه الأشياء هى التى تثيره ، وأنه لا يريد إلا حملى إليها بأقصى سرعة ، عندما يبعث فى شراعى نسمة قوية ، مجهولة ، مناسبة . وإذا كانت رغبتى فى ظهور امرأة تضيف إلى سحر الطبيعة فى نظرى شيئاً أكثر إثارة للنفس ، فان سحر الطبيعة كان يوسع بدوره ما قد يكون فى سحر المرأة من ضيق بالغ . كان يخيل إلى أن جمال الأشجار هو جمالها ، وأن قبلتها ستسلم لى روح هذه الآفاق ، وقرية روسانفيل ، والكتب التى قرأتها هذا العام . وإذا كان خيالى يسترد قواه لاتصاله بحسى الجسدى ، وإذا كان حسى ينتشر فى كل مجالات خيالى ، فان رغبتى كانت بلا حدود . ويرجع ذلك أيضاً إلى أن — كما يحدث فى اللحظات التى نحلم فيها وسط الطبيعة ، ونؤمن فيها ، لأن تأثير العادة معلق ، ومفهومنا المجرد للأشياء قد وضع جانباً ، إيماناً عميقاً بالابتكار ، والحياة الفردية للمكان الذى نوجد فيه — المارة التى تناديها رغبتى ليست ، فيما أرى ، نسخة عادية من النموذج العام للمرأة ، وإنما نتاج ضرورى وطبيعى لهذه الأرض.فى تلك الفترة، كان كل شىء سواء ، الأرض والكائنات ، يبدو لى أقيم ، وأهم ، وحيا حقاً أكثر مما يبدو للبالغين . كنت لا أفصل المخلوقات عن الأرض . كنت راغباً فى فلاحة من ميزجليز أو روسانفيل ، أو صيادة من بلبيك، كما كنت راغباً فى ميزجليز أو بلبيك . ولو أننى غيرت كما أشاء ، ظروف المتعة التى يمكن أن تبعثها فى لبدت لى أقل صدقاً ولما آمنت بها . أن أعرف فى باريس صيادة من بلبيك أو فلاحة من ميز جليز ، كان

معناه أن أتلقى قواقع لم أرها على الشاطىء، أو شجرة فوجير لم أجدها فى الغابة ، كان معناه أن أحذف من المتعة التى ستمنحها لى المرأة كل المتع التى أحاطها بها خيالى . لكن ، أن أهيم هكذا على وجهى فى غابات روسانفيل ، بلا فلاحة أحتضنها ، كان معناه جهلى بالكنز المختبىء فى هذه الغابات ، وجمالها العميق . كانت هذه المرأة التى لا أراها إلا غارقة فى أوراق الشجر ، فى نظرى ، أشبه بنبات محلى من نوع أرقى من الأنواع الأخرى فقط ، وتسمح بنيتها بالإقتراب أكثر من مذاق الوطن العميق، كان من السهل أن أومن بذلك (وبأن القبلات التى ستوصلنى بها إلى تلك المتعة ستكون أيضاً من نوع خاص ، وما كنت لأحس بها لو جاءت من امرأة غيرها) ، لا سيما أننى كنت — وظللت لفترة طويلة — فى السن التى يتجرد فيها المرء من متعة امتلاك النسوة المختلفات اللاتى تذوقها معهن ، ولا يحولها إلى فكرة عامة تجعله يعتبرهن ، من الآن فصاعدا ، ادواتاً قابلة للتبادل لمتعة لا تتغير أبداً . هذه المتعة غير موجودة ، وهى منفصلة ، منفردة ، أو واضحة فى الذهن ، كهدف نسعى إليه ونحن نقترب من المرأة ، وسبب للاضطراب المسبق الذى نشعر به . ولانكاد نفكر فيها باعتبارها متعة ستكون لنا ، بل نقول بالأحرى أنها سحر نفسها ، لأننا لا نفكر فى ذاتها ، بل نفكر فى شىء واحد : الخروج من ذاتنا . ولأننا ننتظرها بابهام ، ولأنها متأصلة ومختبئة فينا ، تبلغ الذروة بالمتع الأخرى التى تبعثها فينا النظرات الحلوة ، وقبلات المرأة التى بجانبنا ، فى اللحظة التى تولد فيها ، بحيث تبدو لنا خاصة كنوع من فورة امتناننا لطيبة قلب رفيقتنا وإيثارها المؤثر لنا ، الذى نقيسه بالنعم والسعادة التى تغمرنا بها .

وأسفاه ؟ عبثا توسلت إلى برج روسانفيل ، وطلبت منه أن يحضر لى طفلا من قريته ، باعتباره الصديق الوحيد الذى إئتمنته على رغباتى الأولى ، عندما كنت لا أرى ، فى أعلا منزلنا فى كومبريه ، فى حجرة المكتب الصغيرة التى شاعت فيها رائحة السوسن ، إلا برجه وسط زجاج النافذة المنفرجة ، بينما كنت ، يحدونى تردد المسافر البطولى الذى يقوم باستكشاف أو اليائس الذى تخور قواه وينتحر ، أشق فى نفسى طريقاً مجهولا ظننته زائلا ، حتى اللحظة التى أضيف فيها أثر طبيعى كأثر القوقعة إلى أوراق الوشنة البرية التى مالت حتى وصلت إلى . عبثاً توسلت إلى البرج الآن . عبثاً كنت أجذبه ، وأنا أمسك بالمدى فى مجالى البصرى ، بنظراتى التى تريد أن تعود منه بامرأة . كنت أستطيع الذهاب حتى مدخل سان أندريه ديشون . ولم أجد عنده أبداً الفلاحة التى كنت سألتقى بها حتماً ، لو كنت مع جدى ، ويستحيل أن أتجاذب معها أطراف الحديث.

وثبتت نظرى إلى مالا نهاية على جذع شجرة بعيدة، ستظهر وراءها فجأة وتأتى إلى . لكن الأفق الذى كنت أسبر أغواره ظل فارغاً . وسجى الليل . وتعلق انتباهى بلا أمل بهذه الأرض العاقر ، هذه الأرض المجهدة ، كأنه يريد أن يمتص المخلوقات التى يمكن أن تخفيها . كنت أضرب أشجار غابة روسانفيل وأنا مدفوع بالغيظ ، لا الفرح ، ولم تخرج من بينها كائنات حية ، بل بدت كأنها رسمت على لوحة بانورامية . لم أستطع الاستسلام للعودة إلى المنزل قبل تقبيلى المرأة التى رغبت فيها إلى هذا الحد . ومع ذلك ، كنت مضطراً إلى السير فى الطريق المؤدى إلى كومبريه ، وأنا أعترف لنفسى بأن احتمال لقائى بها بالصدفة فى الطريق يقل تدريجياً . وهل أجرؤ على الحديث معها إذا وجدتها فى الطريق؟ وخيل إلى أنها قد تعتبرنى مجنوناً . وزال اعتقادى أن كائنات أخرى تشاركنى الرغبات التى تولد فى أثناء هذه النزهات ، رغبات لم تتحقق ، ولم تعد تبدو لى إلا كاختراع ذاتى بحت ، ووهمى ، لمزاجى . لم يعد هناك رباط بينها وبين الطبيعة ، بينها وبين الواقع ، الذى فقد منذ هذه اللحظة ، كل ما فيه من سحر ومعنى ، ولم يعد سوى إطاراً تقليدياً لحياتى شأنه شأن عربة القطار التى يترك المسافر على مقعدها الرواية التى يقرأها ليقتل الوقت .

وعن إحساس غامض تملكنى أيضاً بالقرب من مونجوفان ، بعد ذلك ببضع سنوات ، نشأت الفكرة التى كونتها عن الصادية . ولسوف يتضح بعد ذلك ، ولأسباب مختلفة تماماً ، أن ذكرى هذا الإحساس لعبت دوراً هاماً فى حياتى . حدث ذلك فى يوم حار للغاية . كان والدى قد اضطرا إلى الغياب طول النهار ، وقالا لى أنه يمكن أن أعود إلى البيت متأخراً ما شئت . وبما أننى كنت قد ذهبت حتى بركة مونجوفان ، حيث أردت أن أرى مرة أخرى ظلال سقف القرميد ، تمددت فى الظل ، ونمت بين شجيرات المنحدر المطل على المنزل ، حيث انتظرت أبى فيما مضى ، يوم أن ذهب لزيارة مسيو فانتوى . وكان الليل قد حل تقريباً عندما استيقظت . وأردت أن أنهض ، لكنى رأيت أمامى الآنسة فانتوى (بالقدر الذى استطعت أن أعرف به أنها هى ، لأننى لم أرها كثيراً فى كومبريه ، وعندما كانت طفلة فقط ، فى حين أصبحت الآن شابة) التى عادت لتوها ، بلا شك ، رأيتها على بعد بضعة سنتيمترات منى ، فى تلك الغرفة التى استقبل فيها والدها والدى ، وحولتها هى إلى صالون صغير : كانت النافذة مواربة ، وكان المصباح مضاء ؛ ورأيت كل حركاتها بدون أن ترانى ، وكان رحيلى سيجعل الشجيرات تطقطق ، وتسمعنى بالتالى ، وتظن أننى اختبأت هنا لمراقبتها .

كانت ترتدى ملابس الحداد ، لأن والدها مات من فترة قصيرة . ولم نكن قد ذهبنا لزيارتها ، لأن والدتى لم ترغب فى ذلك ، نظراً لصفة وحيدة تحد من آثار طيبتها ، الا وهى الحياء ، لكنها رثت لحالها رثاء عميقاً . كانت أمى تذكر آخر ايام مسيو فانتوى الحزينة ، التى قضاها أولا فى العناية بابنته كالأم أو الخادمة، ثم الآلام التى سببها له تلك الابنة . وترى مرة أخرى وجه العجوز المعذب فى آخر أيام حياته ، وتعلم انه صرف النظر نهائياً عن تبييض ما انجزه من أعمال فى السنوات الأخيرة ، وهى مقطوعات بائسة لمدرس بيانو عجوز ، وعازف قديم فى القرية . كنا نتصور أن لا قيمة لها فى حد ذاتها ، لكننا لا نقلل من شأنها ، لأن عدداً كبيراً منها كان غايته فى الحياة ، قبل أن يضحى به من أجل ابنته ، وكان أغلب هذه الأعمال غير مدون ، واحتفظ فانتوى به فى ذاكرته فقط ، وكان البعض الآخر مدوناً فى أوراق مبعثرة لا تقرأ ، ستظل مجهولة . وفكرت أمى فى التنازل الآخر ، وتفوق قسوته قسوة ذلك التنازل الذى أجبر عليه مسيو فانتوى ، تنازله عن التفكير فى مستقبل سعيد، شريف لابنته. وعندما كانت تذكر الشقاء البالغ الذى عاشه مدرس البيانو ، الذى أعطى دروساً فى الموسيقى لعماتى فيما مضى ، كانت تشعر بحزن حقيقى ، وتفكر وهى خائفة فى الحزن الذى تشعر به الآنسة فانتوى الآن ، بلا شك ، إذ يختلط بندمها على قتل أبيها ، تقريباً . كانت أمى تقول : « مسكين مسيو فانتوى ، لقد عاش ومات من أجل ابنته ، ولم يتلق أجراً ، فهل يتلقاه بعد موته ، وكيف ؟ لا يمكن أن يأتيه إلا منها » .

كانت الآنسة فانتوى قد وضعت فى طرف الصالون ، على المدفأة ، صورة صغيرة لأبيها . ذهبت وأتت بها بسرعة عندما سمعت صوت سيارة قادمة على الطريق . واستلقت فوق أريكة ، وجذبت إليها منضدة صغيرة وضعت عليها الصورة ، كما وضع مسيو فانتوى فيما مضى إلى جواره المقطوعة الموسيقية التى كان يريد أن يعزفها لوالدى. ودخلت صديقتها بعد قليل ، واستقبلتها الآنسة فانتوى بدون أن تنهض ، وهى تضع يديها خلف رأسها ، وتراجعت إلى الطرف الآخر من الأريكة لتفسح لها مكاناً . لكن ، سرعان ما أحست أنها ، إذ تفعل ، تبدو كأنها تفرض عليها وضعاً قد يضايقها ، ورأت أن صديقتها قد تفضل الجلوس بعيداً عنها على كرسى ، وأنها متطفلة ، وقلق قلبها الرقيق لذلك. فعادت وتمددت على الأريكة ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تتثاءب لتثبت أن النعاس كان الداعى الوحيد لتمددها على هذا النحو . ورغم الألفة الخشنة المسيطرة التى بينها وبين صديقتها ، تعرفت على حركات والدها المتحفظة المجاملة، وتدقيقه المفاجئ .

ووقفت بعد قليل ، وتظاهرت بأنها تريد أن تغلق النافذة ، ولم تتوصل إلى ذلك . فقالت لها صديقتها :

— « اتركى كل النوافذ مفتوحة ، فأنا أشعر بالحر » .

وردت عليها الآنسة فانتوى بقولها :

— « سيكون ذلك مزعجاً ، سيرانا الناس » !

لكنها أحدست بلاشك أن صديقتها ستظن أنها لم تقل هذه الكلمات إلا لكى تستفزها وترد عليها بكلمات آخرى تريد بالفعل ان تسمعها ، ونترك لها مبادرة النطق بها ، بدافع الاحتشام . لذا ، اتخذت نظرتها التى لا استطيع أن آتبينها ، بلا شك ، ذلك التعبير الذى كان يعجب جدتى كثيراً ، عندما قالت بلهجة حادة :

—« وعندما أقول يرانا الناس ، أقصد يروننا ونحن نقرأ . إنه لأمر مزعج ، أن يكون المرء نهبة للعيون ، مهما كانت تفاهة ما يفعله» .

وبكرم غريزى وأدب لا إرادى ، كتمت الكلمات التى سبق أن فكرت فيها ورأت أنها ضرورية لتحقيق رغبتها تحقيقاً كاملا . فى كل لحظة ، كانت العذراء الخجولة المتوسلة التى فى أعماقها تتضرع إلى إنسان فظ منتصر وتحمله على التراجع . وقالت صديقتها بسخرية :

—« نعم يحتمل أن يرانا أحد فى هذه الساعة ، فى هذه المنطقة الريفية الآهلة بالسكان». وأضافت : « وما العيب فى ذلك ؟ (وظنت أن عليها أن ترفق غمزة عين خبيثة حنون بهذه الكلمات التى ألقتها وكأنها نص تعرف أنه يعجب الآنسة فانتوى ، بنبرة حاولت جاهدة أن تجعلها ساخرة) ، حتى لو رآنا أحد ، فسيكون ذلك أفضل » .

ارتجفت الآنسة فانتوى ونهضت . وكان قلبها الحساس يجهل الكلمات التى تتلاءم تلقائياً مع المشهد الذى تطالب به حواسها . كانت تبحث ، فى مكان بعيد ما أمكن ، عن طبيعتها المعنوية الحقيقية ، عن لغة الفتاة الفاسدة التى تريد أن تكونها ، لكن الكلمات التى كانت تعتقد أن تلك الفتاة قد تنطق بها فى صدق ، كانت تبدو لها كاذبة على لسانها . والقليل الذى كانت تسمح لنفسها بقوله كان يقال بلهجة مفتعلة تشل بها عاداتها الخجولة

رغبتها الحريئة المترددة ، وتقطعه عبارات مثل : « ألا تشعرين بالبرد ، ألا تشعرين بالحر ، ألا تريدين أن تكونى بمفردك وتقرئى ؟ » وانتهى بها الأمر إلى أن تقول :

— «يخيل إلى أن أفكار الآنسة شهوانية للغاية هذا المساء »؟

ولا شك أنها كانت تستعيد بقولها هذا عبارة سبق أن جرت على لسان صديقتها .

أحست الآنسة فانتوى أن صديقتها طبعت قبلة على صدرها ، عند تقويرة ثوبها الكريب ، فصدرت عنها صرخة خافتة ، وأفلتت من صاحبتها ، ولا حقت كل منهما الأخرى وهى تقفز ، وتترك أكمام ثوبها الواسعة تطير كالأجنحة ، وأخذت الاثنتان تهمهمان كطائرين عاشقين، وفى نهاية المطاف ، ارتمت الآنسة فانتوى على الأريكة ، وغطاها جسد صديقتها. لكن هذه الأخيرة كانت تدير ظهرها للمائدة الصغيرة التى وضعت عليها صورة مدرس الموسيقى السابق . وأدركت الآنسة فانتوى أن صديقتها لن تراها ، إلا إذا لفتت نظرها إليها . فقالت لها، كأنها لم تلاحظ ذلك من قبل :

— «أوه ! صورة أبى تنظر إلينا ! لا أدرى من استطاع أن يضعها هنا ، مع إننى قلت مائة مرة إن هذا ليس مكانها» !

وعلى ما أذكر ، هذه الكلمات هى التى قالها مسيو فانتوى لأبى عن المقطوعة الموسيقية. ولا شك ان الفتاتين كانتا تستخدمان هذه الصورة عادة لانتهاك الحرمات، لأن صديقة الآنسة فانتوى ردت بكلمات كانت بلاشك جزءاً من ردودهما الطقوسية :

—« دعيها حيث هى ، لم يعد صاحبها هناً ليضايقنا ! أتظنين أن هذا القرد القبيح كان يبكى ، ويود أن يلبسك معطفك، لو رآك هنا ، والنافذة مفتوحة » ؟

ردت الآنسة فانتوى بكلمات عتاب رقيقة : « دعينا من هذا ، دعينا من هذا ! » تنم عن طبيعتها الطيبة ، ولم تملها عليها ثورتها على الحديث عن أبيها بهذه الطريقة (بطبيعة الحال : كانت قد اعتادت كتمان هذا الاحساس فى نفسها — بأى منطق معكوس ؟— فى مثل هذه اللحظات) ، قالتها لأنها بمثابة فرملة تضعها بنفسها أمام المتعة التى تحاول صديقتها أن تمنحها لها : لكى لا تبدو أنانية . ثم إن هدوءها الباسم وهى ترد على هذا السباب ، وهذا العتاب المنافق الحنون ، كان يبدو لطبيعتها الصريحة الطيبة كشكل فاضح ، ولطيف ظاهرياً ، للفسق الذى تحاول أن تتشبه به ، لكنها لم تستطع مقاومة جاذبية المتعة التى تشعر بها إذا عاملها برقة شخص يقسو إلى هذا الحد على ميت لا حول له

ولاقوة . فقفزت الآنسة فانتوى،وجلست على حجر صديقتها ، وأعطتها جبينها لتطبع عليه قبلة عفيفة كما لوكانت ابنتها ؛ وأحست الاثنتان عندئذ بلذة بلوغهما بالقسوة أبعد المدى ،عندما جردتا مسيو فانتوى من أبوته ، حتى وهو فى القبر . أخذت صديقتها رأسها بين يديها ، وطبعت على جبينها قبلة ، بذلك الانقياد اللين الذى كان ييسر كل من حبها الشديد للآنسة فانتوى ، ورغبتها فى إدخال شىء من التسلية فى حياة هذه الفتاة اليتيمة . ولكم كانت حياتها حزينة الآن ! وقالت وهى تأخذ الصورة :

— « هل تعرفين ما أريد أن أفعله بهذا الشىء البغيض » ؟

وهمست فى أذن الآنسة فانتوى بشىء لم أتمكن من سماعه .

— « اوه ! لن تجروئى على فعل ذلك » ؟

— « لن أجروء على البصق عليه ؟ على هذا ؟ » قالت الصديقة هذا بلهجة خشنة مقصودة .

ولم أسمع المزيد ، لأن الآنسة فانتوى أغلقت النافذة بطريقة متعبة وخرقاء ، شريفة وحزينة . وعرفت الآن الأجر الذى تلقاه مسيو فانتوى من ابنته ، بعد مماته مقابل ألوان العذاب التى تحملها فى حياته من أجلها .

رأيت مع ذلك ، منذ ذلك الحين ، أنه لو حضر مسيو فانتوى هذا المشهد ، لما فقد إيمانه بطيبة قلب ابنته ، بل لما أخطأ تماماً فى اعتقاده هذا . كان مظهر الشر فى عادات الآنسة فانتوى ، بطبيعة الحال ، واضحاً بحيث يتعذر وجوده بهذه الدرجة من الكمال إلا عند الصاديين . ويمكن أن نرى الابنة تطلب من صديقتها أن تبصق على صورة أبيها الذى لم يعش إلا من أجلها تحت أضواء مسرح البولفار ، لا فى ضوء مصباح فى بيت ريفى حقيقى . والصادية فقط هى التى تعطى أساساً لجماليات الميلو دراما ، فى الحياة . أما فى الواقع ،ففيما عدا حالات الصادية ، قد تقصر الابنة تقصيرا قاسيا كتقصير الآنسة فانتوى فى حق ذكرى والدها المتوفى ورغباته،لكنها لن تلخصه صراحة فى فعل بهذه الرمزية البسيطة الساذجة. وقد يكون ما فى سلوكها من إجرام أكثر تسترا فى نظر الآخرين، بل وفى نظرها هى التى تفعل الشر بدون أن تعترف به لنفسها ولا شك أن الشر فى نفس الآنسة فانتوى، لم يكن بلا شوائب ، وراء المظهر، فى البداية على الأقل . فالشخص الصادى يتفنن فى الشر،وهذا مالا يقدر عليه الإنسان الشرير، لأن الشر لن يكون خارجه، وقد يبدو له طبيعيا جدا، بل قد لا يتميز عنه.

ولن تستمتع الآنسة فانتوى بتدنيس الفضيلة،وذكرى الموتى، وحب الأبناء للآباء لأنها لن تؤمن بهم . فالصاديون أمثالهم أناس عاطفيين ، فاضلين بطبيعتهم لدرجة تجعلهم ينظرون حتى إلى المتعة الحسية على أنها شيء سيء وميزة تمنح للأشرار . وإذا تنازلوا وأسلموا أنفسهم لها لحظة ، حاولوا أن يتقمصوا أدوار الشر ، وأن يجعلوا شركاءهم يتقمصونها ، وهكذا يتوهمون لحظة أنهم هربوا من روحهم القلقة الحنون، فى عالم المتعة اللا إنسانى. وأدركت إلى أى مدى كانت ترغب فى ذلك ، عندما رأيت إلى أى مدى يستحيل عليها النجاح فيه . ففى اللحظة التى أرادت فيها أن تكون مختلفة عن والدها ، ذكرتنى بطريقة مدرس البيانو العجوز فى التفكير والكلام . أكثر من صورته ، كان ما تدنسه ، وما تسخره لخدمة متعتها ويظل بينها وبين تلك المتعة ويمنعها من تذوقها مباشرة ، هو الشبه بين وجهها وعينيها الزرقاوين ووجه وعينى أمه هو الذى نقلهم إليها كجوهرة يتوارثها أفراد الأسرة ، وهذه الحركات الرقيقة التى تضع بينها وبين خطيئتها أسلوبا وعقلية لا تناسب تلك الخطيئة ، وتمنعها من أن تعرفها كشيء مختلف تماما عن واجبات المجاملة التى تهب نفسها لها عادة . لم يكن الشر الذى يوحى إليها بفكرة المتعة هو الذى يبدو محببا إليها ، بل كانت المتعة هى التى تبدو لها خبيثة . وكانت تصاحبها فى كل مرة تستسلم لها فيها ، تلك الأفكار الفاسدة التى تغيب عن روحها الفاضلة بقية الوقت وكانت ، فى النهاية ، تجد فى المتعة شيئا شيطانيا ، وتساوى بينها وبين الشر. وربما أحست الآنسة فانتوى أن صاحبتها ليست فاسدة فى أعماقها ، وأنها لم تكن صادقة عندما نطقت بهذه الشتائم. لكنها إستمتعت على الأقل عندما رأت على وجه صديقتها إبتسامات ونظرات — ربما كانت زائفة ! — تعادل بتعبيرها عن الرذيلة وانحطاطها تلك التى يمكن أن تصدر عن إنسان يتسم بالقسوة والميل إلى المتعة ، لا إنسان يتسم بالطيبة والميل إلى الألم . وكان يمكن أن تتخيل لحظة أنها تلعب حقا تلك الألعاب التى يمكن أن تلعبها مع شريكة فاسدة كصديقتها ، أبنة أحست بالفعل بهذه الأحاسيس البربرية تجاه ذكرى أبيها . ولو أنها تبينت فى نفسها ، كما تتبين فى الجميع ، اللا مبالاة بالألم الذى نسببه للآخرين ، وهو شكل القسوة الدائم المروع ، أيا كانت الأسماء الأخرى التى تعطى له ، لما رأت أن الشر حالة نادرة محيرة ، خارقة للعادة ، يرتاح المرء للهجرة إليها .

ولو كان الذهاب ناحية ميزجليز سهلا إلى حد ما ، فان الذهاب ناحية جرمونت كان شيئا آخر ، لأن النزهة كانت طويلة ، ولأننا كنا نسعى إلى التأكد من حالة الجو.

فعندما كنا ندخل فى سلسلة من الأيام الصحو ، فيما يبدو ، كانت فرانسواز تيأس لعدم سقوط قطرة ماء من اجل « المحاصيل المسكينة » ولا ترى إلا سحبا بيضاء نادرة تسبح على سطح السماء الساكنة الزرقاء، وتصرخ قائلة وهى تئن : « كأننا نرى كلاب البحر لا أكثر ولا أقل، تلعب فوقنا وترينا أفواهها !! آه! لا يفكر أحد فى سقوط المطر من أجل المزارعين المساكين ! وعندما ينبت القمح ، سيسقط المطر ولن ينقطع ، ولن يدرى على اى شىء يسقط ، كأنه يسقط فى البحر» . وعندما كان أبى يتلقى، بطريقة لا تتغير أبدا ، ردود البستانى والبارومتر المطمئنة، كنا نقول ساعة العشاء : « إذا ظل الجو على هذا الحال سنذهب غدا ناحية جرموت » . كنا نخرج بعد الإفطار مباشرة من باب الحديقة الصغير ، ونجد أنفسنا فى شارع برشون ، وهو شارع ضيق بزاوية حادة ملىء بالنجيليات التى يقضى النهار بينها زنبوران أو ثلاثة . كان ذلك الشارع غريبا مثل إسمه الذى إشتقت منه ، فيما يبدو ، خواصه الغريبة وشخصيته الخشنة ، وعبثا نحاول أن نبحث عنها فى كومبريه اليوم، حيث ترتفع المدرسة فوق تخطيط المدينة القديم ، لكن حلمى (وهكذا حال أولئك المعماريين الذين تتلمذوا على يدى فيوليه ليدوق، فهم يعيدون المبنى كله إلى ما كان عليه فى القرن الثانى عشر ، لأنهم يعتقدون أنهم سيجدون خورسا رومانيا تحت منبر يرجع إلى عصر النهضة ، وهيكلا يرجع إلى القرن السابع عشر) لا يترك حجرا من المبنى الجديد ، ويشق شارع برشون من جديد ، ويعيده إلى ما كان عليه . فضلا عن أن لديه — بالنسبة لهذا الترميم — معطيات أدق من تلك التى نجدها عادة عند المرممين : صورا إحتفظت بها ذاكرتى ، وربما كانت آخر صور توجد حاليا ، وستمحى عما قريب ، لما كانت عليه كومبريه أيام طفولتى . ولأن كومبريه نفسها هى التى رسمتها فى نفسى قبل أن تزول ، فهى مؤثرة — إذا أمكن مقارنة هذه الصور المجهولة باللوحات الشهيرة التى كانت جدتى تحب أن تعطينى صورا لها — كالصور القديمة للعشاء الأخير ، أو اللوحة التى رسمها ج . بللينى ، ونرى فيها لوحة دافنشى الرائعة أو باب سان مارك ، فى حالة لا وجود لها اليوم .

كنا نمر فى شارع لوازو أمام فندق لوازو القديم ، الذى دخلت فناءه الكبير فى القرن السابع عشر عربات الدوقة دى مونبونسييه ، ودى جرمونت ، ودى مونمورنسى عندما أتين إلى كومبريه بسبب نزاع بينهن وبين المزارعين أو موضوع يتعلق بالولاء . كنا نصل إلى الممر الذى تظهر بين أشجاره أبراج أجراس سانت هيلير . كنت أود أن أجلس فى هذا المكان ، وأقرأ طول النهار ، وأنا أسمع الأجراس ، فالجو كان جميلا

هادئا ، لدرجة أن الساعة كانت تبدو ، عندما تدق، لا كأنها تقطع سكون النهار وإنما كأنها تخلصه مما يحتويه ، وأن برج الأجراس كان يعجل — لكي يسقط القطرات الذهبية القليلة التي جمعها الحر فيه جمعا طبيعيا بطيئا — بفيض الصمت : في الوقت المناسب ، بانضباط شخص متكاسل جاد ، ما عليه إلا أن يفعل ذلك .

يكمن أكبر سحر ناحية جرمونت في وجود مجرى الفيفون بجوار المرء طول الوقت تقريبا . كنا نعبر الترعة مرة أولى ، بعد مغادرة المنزل بعشر دقائق فوق جسر يقال له الجسر العتيق . وفي اليوم التالي لوصولنا ، أي يوم عيد الفصح ، بعد الوعظ ، كنت أسرع إلى هذا المكان ، إذا كان الجو جميلا ، لأرى في فوضى الصباح ، صباح يوم العيد الكبير ، الأدوات المنزلية المبعثرة وقد بدت أقذر أمام الإستعدادات الفخمة ، وأرى الترعة تتنزه وقد إتخذت لونا أزرقا سماويا بين الأراضي التي لا تزال عارية سوداء ، ولا ترافقها إلا مجموعة من طيور الوقواق التي وصلت مبكرة ، وزهور الربيع التي جاءت قبل موعدها ، بينما يميل ساق زهرة بنفسج زرقاء الفم تحت ثقل قطرة العطر التي يحتويها قمعها . وكان الجسر العتيق يفضي إلى مدق تجر منه المراكب بالحبال . وكان المدق يبطن في الصيف بأوراق شجرة جوز زرقاء اللون ، غرس تحتها صياد يلبس قبعة من الخوص . وفي كومبريه حيث كنت أعرف شخصية الحداد ، أو صبي البقال التي تخفت تحت زي الحاجب أو رداء صبي مذبح الكنيسة ، كان هذا الصياد الشخص الوحيد الذي لم أكتشف هويته أبدا . وكان يعرف والدي بلا شك ، لأنه كان يرفع قبعته محييا كلما مررنا به . كنت أريد عندئذ أن أسأله عن إسمه ، لكنهم كانوا يشيرون إلى بالصمت لكي لا يخاف السمك . كنا نسير في المدق الذي يطل على مجرى الترعة من منحدر يرتفع عدة أقدام . وكان الشاطيء منخفضا في الجانب الآخر ، ويمتـد إلى الحقول الواسعة حتى القرية والمحطة التي تبعد عنها . ونثرت في الحقول بقايا قصر نبلاء كومبريه — الذين كانوا يحملون لقب « كونت » التي غاص نصفها في الحشائش . وكان هولاء النبلاء يتحدون في العصور الوسطى من مجرى الفيفون في هذا الجانب خط دفاع ضد هجمات سادة جرمونت وقساوسة مارتنفيل ، ولم تكن بقايا القصر سوى بضعة اجزاء من أبراج تحدب المرعى ترى بالكاد ، وبضعة شرافات كان الرماة يلقون منها الحجارة فيما مضى ، ويراقب منها الحارس نوفيون ، وكلير فونتين ، ومارتنفيل لي سيك ، وبايوليسكون ، وكلها اراضي كانت مقطوعة لسادة جرمونت ، وحصرت كومبريه بينها ، واصبحت اليوم بمستوى الحشائش ، ويسيطر عليها تلاميذ مدرسة الفرير الذين يحضرون هنا لاستذكار دروسهم

أو اللعب أثناء الفسحة — ماضى يكاد يكون قد نزل فى الأرض ، ورقد على الشاطئ كمن يتنزه ويبحث عن النسمة العليلة ، لكنه يدعونى إلى كثير من التفكير ، ويجعلنى أضيف إلى إسم كومبريه ، والمدينة الصغيرة التى تحمله اليوم مدينة مختلفة للغاية ، تستوقف أفكارى بوجهها الغابر الذى لا يفهم وتخفيه إلى منتصفه تحت البراعم الذهبية . وكانت البراعم كثيرة جدا فى هذا المكان الذى أختارته للعب فى الحشائش ، زرافات ووحدانا ، بلونها الأصفر بصفار البيض ولمعانها، لاسيا أننى كنت — هكذا خيل إلى — لعجزى عن الإنحراف إلى أية محاولة لتذوق المتعة التى تبعثها فى رؤيتها ، أ كدس تلك المتعة فى مساحتها الذهبية إلى أن تقوى ، وتستطيع أن تنتج جمالا لا جدوى منه . وحدث ذلك منذ نعومة أظفارى عندما كنت أمد يدى إليها وأنا فى المدق ، ولا أستطيع أن أنطق بأسمائها كاملة ، وهى أسماء مأخوذة عن أسماء أمراء الحكايات الفرنسية ، وربما جاءوا من آسيا من قرون عديدة واستقروا فى القرية إلى الأبد راضين بأفقها المتواضع ، محبين للشمس والشاطئ ، مخلصين لمنظر المحطة ، واحتفظوا مع ذلك ببريق شرقى شاعرى ، شأنهم شأن لوحاتنا القديمة وبساطتها الشعبية .

كنت ألهو بالنظر إلى الأباريق التى يضعها الصبية فى الفيفون لصيد الأسماك الصغيرة ، وكانت الترعة تملؤها وتحيط بها فى وقت واحد ، أى أنها كانت «حاوية» ذات جوانب شفافة كالماء المجمد، «ومحتوى» غاص فى حاوية أكبر من البللور السائل الجارى . وكانت الأباريق تذكر صورة الإنتعاش بطريقة ألذ وأكثر إثارة مما لو كانت قد وضعت على مائدة الطعام ، ولا تبينها إلا هاربة فى هذا الجناس الدائم بين الماء الذى لا قوام له ولا تستطيع اليد أن تلتقطه ، والزجاج المنعدم السيولة الذى لا يستطيع الفم أن يستسيغه وهو فيه. ووعدت النفس بالعودة إلى هذا المكان فيما بعد ومعى سنانير . ووافق الصبية على إعطائى شيئا من الخبز كانوا يحتفظون به «للتصبيرة» وألقيت كرات صغيرة منه فى الفيفون، كانت كافية فيما يبدو لإيجاد ظاهرة التشبع المفرط لأن الماء كان يتجمد حول الكرات فى الحال مكوناً عناقيد بيضاوية الشكل من الضفادع الصغيرة الجائعة ، التى ظلت فى حالة تحلل حتى هذه اللحظة ، بلا شك ، لا ترى ، وتوشك أن تتبلور .

وسرعان ما تسد مجرى الفيفون نباتات مائية ، بعضها منفرد ، كذلك النيلوفر الذى لا يدع له التيار الذى وضع فيه بطريقة خاطئة إلا قليلا من الراحة . كان كالمعدية التى تعمل آلياً ، لا يرسو على بر إلا لكى يعود إلى البر الذى جاء منه ، ويقوم بعملية العبور المزدوجة هذه إلى الأبد. وكانت ساقه الصغيرة تتمدد عندما

يدفع إلى الشاطئ ، وتطول ، وتجرى، وتبلغ أقصى حد لامتدادها حتى الشاطئ حيث يتلقفها التيار ثانية. وكانت الحبال الخضراء تنطوى على نفسها، وتعيد النبات المسكين إلى ما يمكن أن نسميه نقطة انطلاقه، لا سيما أنه كان لايبقى عندها لحظة ، بل يعود ويكرر المناورة . كنت أجد هذا النبات فى نفس الوضع دائماً، بين نزهة وأخرى، وكان يذكرنى ببعض المصابين بالإجهاد العصبى ، وكان جدى يعتبر العمة ليونى واحدة منهم ، الذين يقدمون لنا، على مر السنين ، بلا أدنى تغيير ، مشهد العادات الغريبة التى يعتقدون فى كل مرة أنهم يوشكون على التخلص منها ، ويحتفظون بها دائماً . ولأنهم وقعوا فى دوامة قلقهم وعاداتهم المستهجنة، لا تنتهى الجهود التى يتخبطون فيها بلا جدوى ليتخاصوا منها، إلا إلى ضمان تشغيل الجهاز الذى يحركها ويغذيها بطريقة حتمية غريبة .هكذا كان هذا النيلوفر ، شبيهاً بواحد من أولئك البؤساء الذى كان قلقهم الفريد المتكرر إلى ما لا نهاية، يثير فضول دانتى. وربما طلب هذا الأخير من المعذب نفسه أن يروى له باستفاضة خواص ذلك القلق وسببه ، لولا أن فيرجيل الذى ابتعد عنه بخطى واسعة أجبره على اللحاق به ، بأسرع ما يمكن ، كما حدث لى مع والدى .

لكن التيار يبطئ بعد ذلك، ويعبر ضيعة فتحها مالكها للجمهور . وكان قد حلا لهذا المالك أن يزرع زهوراً مائية، مما أوجد فى البرك الصغيرة التى تكونها الفيفون، حدائق حقيقية تملؤها زهور النيلوفر . وبما أن شاطئ الترعة كانا كثيرى الغابات فى هذا المكان، كانت ظلال الأشجار الكبيرة تعطى الماء عمقاً لونه أخضر قاتم عادة ، لكن عندما كنا نعود أحياناً فى بعض الأمسيات الصافية إثر فترة بعد ظهر عاصفة، كنت أجد أن لونه قد تحول إلى الأزرق الفاتح الصارخ المائل إلى البنفسجى، أزرق مجزع الشكل ويابانى الذوق . وكانت زهرة النيلوفر الارجوانية القلب، ذات الحواف البيضاء ، تحمر كحبة الفراولة هنا وهناك ، عند السطح . وفى مكان أبعد من هذا ، كانت الأزهار تزداد عدداً ، وتصبح أكثر شحوباً ، وتحبيباً ، وتثنياً ، وأقل نعومة . وكانت الصدفة قد رتبتها فى التفافات جميلة ، لدرجة أن العين تخال أن وروداً رغوية حلت أكاليلها تطفو وتنحرف ، كما يحدث عندما تتساقط أوراق العيد الحزينة الواحدة تلو الأخرى. وفى مكان آخر ، خصص فيما يبدو، ركن للأنواع العادية التى يظهر فيها اللونان الأبيض والوردى النقيان ، وتتميز بهما الخضر . بعد ذلك ، كانت زهور البنسيه تتزاحم ، وتكون حواشى

عائمة حقاً ، جاءت وحطت أجنحتها الباردة المائلة للزرقة ، كأنها الفراشات ، على ميل هذه الأرضية المائية الشفاف ، وهى أرضية سماوية أيضاً : فلقد كانت تعطى للزهور تربة لونها أقيم وأكثر إثارة من لون الزهور ذاتها . وسواء جعلت ، فى فترة بعد الظهر ، مشكال السعادة اليقظة ، الصامتة ، المتحركة ، يلمع تحت النيلوفر ، أو امتلأت فى المساء ، كالميناء البعيدة، بلون الغروب الوردى وحلمه ، وظل يتغير ليبقى ، حول التويجات ذات الألوان الثابتة ، على الانسجام مع أكثر ما فى الساعة من عمق وزوال وغموض ، ولا نهائية ، كانت تبدو وكأنها جعلت الزهور تتفتح فى عرض السماء .

وعندما تخرج الفيفون من هذا المتنزه ، تعاود الجريان . كم رأيت ، ووددت أن أحاكى ، عندما أصبح حراً فى العيش كما أشاء ، شخصاً يجدف ، ويترك المجداف ، ويستلقى على ظهره ، ورأسه إلى أسفل ، فى قاع مركبته ، ويدعها تسبح أينما شاءت ، ولا يستطيع أن يرى إلا السماء التى تمرق ببطء فوقه ، ويحمل على وجهه إحساساً ينبئ بالسعادة والسلام . .

كنا نجلس بين السوسن على شاطئ الترعة . وكانت سحابة لا عمل لها تتسكع طويلا فى السماء العاطلة . وأحياناً ، كان الملل يقهر سمكة الشبوط ، فتخرج من الماء ويصدر عنها شهيق قلق . حانت ساعة وجبة بعد الظهر الخفيفة . كنا ، قبل أن نرحل ، نقضى فترة طويلة نأكل خلالها الفاكهة ، والخبز ، والشيكولاتة ، على الحشائش ، حيث كانت تصل إلينا ، أفقية ضعيفة ، لكنها لا تزال معدنية كثيفة ، أصوات أجراس سانت هيلير التى لم تختلط بالهواء الذى عبرته من مدة طويلة ، وترتعش وهى تمر فوق الزهور تحت أقدامنا ، وقد ضلعها نبض خطوطها الرنانة المتتالى . .

وكنا نلتقى أحياناً ، على شاطئ المياه التى تحيط بها الغابات ، ببيت منعزل ، ضائع ، لا يرى من العالم شيئاً إلا الترعة التى تسبح فيها دعائمه . وقفت امرأة شابة لا يتنبى وجهها المتأمل وغطاء رأسها الأنيق إلى هذا البلد ، ولا شك أنها جاءت « لتدفن نفسها هنا » ، كما يقال بالعامية ، وتتذوق المتعة المرة التى تجعلها تشعر أن اسمها ، وبصفة خاصة اسم الشخص الذى لم تستطع الاحتفاظ بقلبه ، مجهول فيه ، وقفت فى إطار النافذة التى لا ترى منها مكاناً أبعد من المركب الراسية بالقرب من

الباب . كانت ترفع عينين شاردتين عندما تسمع صوت المارة ، خلف أشجار الشاطئ . وكانت متأكدة ، حتى قبل أن تلمح وجوههم ، إنهم لم يعرفوا الخائن أبداً ، ولن يعرفوه ، وأن ما من شيء فى ماضيهم احتفظ بأثر له ، وأن ما من شيء فى مستقبلهم سيتيح لهم فرصة تلقى ذلك الأثر . كان المرء يشعر أنها تركت وغادرت بمحض إرادتها أماكن كان يمكن أن تلمح فيها من تحب ، على الأقل ، وجاءت إلى هذه الأماكن التى لم تره أبداً . كنت أنظر إليها ، وهى عائدة من نزهة قامت بها فى طريق تعرف سلفاً أنه لن يمر به ، وتخرج يديها المستسلمتين من قفاز طويل عبثى الجمال .

لم نتمكن أبداً ، ونحن نتنزه ناحية جرمونت ، من الذهاب إلى المكان الذى تنبع منه الفيفون . وكنت قد فكرت فيه كثيراً ، وكان وجوده فى نظرى مجرداً مثالياً لدرجة أننى دهشت عندما قيل لى : إنه فى المقاطعة ، على مسافة بضعة كيلومترات من كومبريه ، كما دهشت يوم أن علمت أن فى العالم نقطة أخرى كانت تفتح عندها أبواب الجحيم ، فى قديم الزمان . كذلك ، لم نتمكن أبداً من الوصول إلى الحد الذى طالما تمنيت الوصول إليه ، وأقصد به جرمونت . كنت أعرف أن بعض النبلاء ، ودوق ودوقة جرمونت يسكنون هذا المكان ، وأعرف أنهم شخصيات حقيقية موجودة حالياً لكن فى كل مرة فكرت فيهم فيها ، تخيلتهم إما فى لوحة جدارية ، وهكذا كانت الكونتيسة جرمونت فى «تتويج استير» فى كنيستنا ، إما مرسومين بألوان متدرجة متغيرة ، وهكذا كان جيلبير لى موفيه فى الزجاجية . فلقد كان ينتقل من الأخضر الكرمبى إلى الأزرق البرقوقى ، حسبما إذا كنت آخذ الماء المقدس أم أصل إلى مقاعدنا ، إما فى شكل غير محسوس كما كانت صورة جنفييف دى برابون ، التى يمررها الفانوس السحرى على ستائر غرفتى أو يصعدها إلى السقف — وكانت هذه الشخصيات تلتحف دائماً بغموض الأزمنة الميروفنجيانية ، وتسبح فى النور البرتقالى المنبثق من هذا المقطع — « مونت » كما لو كانت فى غروب الشمس . وإذا كان دوق ودوقة جرمونت قد ظلا رغم ذلك ، فى نظرى ، شخصيتين حقيقيتين ، رغم غرابتهما ، فان شخصيتهما « الدوقية » كانت تتمدد إلى ما لا نهاية ، وتفقد طابعها المادى ، لتتمكن من احتواء جرمونت التى كانا دوقاً ودوقة لها ، وكل ناحية جرمونت المشمسة ، ومجرى الفيفون ونيلوفاره وأشجاره الكبيرة ، وعديد من فترات بعد الظهر الجميلة . وكنت أعرف إنهم لا يحملون لقب دوق ودوقة جرمونت فقط ، بل تحالفوا ،

منذ القرن الرابع عشر ، مع سادة كومبريه عن طريق الزواج ،[٦] بعد أن حاولوا أن يهزموهم بلا جدوى ، وأصبحوا يحملون لقب كونت دى كومبريه ، وأصبحوا بالتالى أول مواطنى كومبريه ، مع إنهم الوحيدين الذين لا يسكنون فيها . أصبحوا يحملون لقب كونت دى كومبريه ، وأصبح هذا الاسم ماثلا فى أسمائهم ، وشخصهم ، ولا شك أن كان فيهم بالفعل ذلك الحزن الغريب الورع الذى اختصت به كومبريه . أصبحوا يملكون المدينة ، ولا يملكون بيتاً خاصاً ، ويسكنون خارجها بلا شك ، فى الشارع ، بين السماء والأرض ، مثل جيلبير لى موفيه ، الذى لم أكن أرى ، فى زجاجيات صدر كنيسة سانت هيلير سوى ظهره المصبوغ باللك الأسود ، إذا رفعت رأسى وأنا ذاهب لإحضار بعض الملح من عند كامو .

حدث بعد ذلك أننى مررت أحياناً ، فى ناحية جرمونت ، أمام بعض الضياع الصغيرة المسورة الرطبة ، حيث تتصاعد أزهار قاتمة اللون . وتوقفت ، ظناً منى أنى أكتسب فكرة قيمة ، عندما خيل إلى أن أمام عينى جزء من تلك المنطقة النهرية التى تمنيت كثيراً أن أعرفها ، منذ أن وصفها أحد كتابى المفضلين . وتطابقت جرمونت معها ، ومع أرضها الخيالية التى تعبرها مجارى مائية تغلى ، عندما تغير شكلها فى ذهنى ، وسمعت الدكتور برسبييه يحدثنا عن الزهور والمياه الجميلة الحية التى توجد فى حديقة القصر . وحلمت أن مدام دى جرمونت طلبت منى الذهاب إليه ، إثر نزوة عابرة . كانت تصطاد السمك طول اليوم معى . وفى المساء ، تمسك بيدى ، وهى مارة أمام حدائق اتباعها الصغيرة ، وتشير على الجدران الواطئة ، إلى الزهور التى تسند عليها مغازلها البنفسجية والحمراء ، وتعلمنى أسماءها . كانت تطلب منى أن أحدثها عن موضوعات القصائد التى أنوى تأليفها . وكانت هذه الأحلام تنبهنى إلى أن الأوان قد آن لكى أعرف ما أنوى أن أكتبه ، ما دمت أريد أن أكون كاتباً يوماً . لكن ، طالما كنت أتساءل عن ذلك ، وأحاول أن أجد موضوعاً يمكن أن أضمنه معنى فلسفياً لا نهاية له ، كان ذهنى يتوقف عن العمل ، ولا أرى إلا الفراغ ، وأشعر أننى أفتقر إلى العبقرية ، أو أن مرضاً ذهنياً يحول دون ميلادها . وكنت أعتمد على أبى أحياناً لتسوية الأمر . فلقد كان يتمتع بسلطان وحظوة عند أصحاب المناصب الهامة ، بحيث كان يتوصل إلى مخالفتنا للقوانين التى علمتنى فرانسواز اعتبارها حتمية أكثر من قوانين الحياة والموت ، وتأجيل أعمال « بياض » منزلنا عاماً ، دوناً عن منازل الحى كله ، وحصول ابن مدام

سيزاره ، الذى يريد أن يذهب للاستشفاء ، على إذن من الوزير بأداء امتحان البكالوريا قبل موعده بشهرين ، ضمن الطلبة الذى تبدأ أسماؤهم بحرف الألف ، بدلا من أن ينتظر دور الطلبة الذى تبدأ أسماؤهم بحرف س . وإذا أصبت بمرض خطير ، أو أسرنى قطاع الطرق ، انتظرت فى هدوء الساعة الحتمية للعودة إلى الواقع ، ساعة الخلاص أو الشفاء ، ليقينى أن والدى متفاهم للغاية مع السلطات العليا ، وأنه يحظى بخطابات توصية لا تقاوم ، موجهة إلى الله ، مما يجعل من مرضى أو أسرى شيئاً مختلفاً عن الصور الخيالية العابثة التى لا تخطر منها على . وربما كان افتقارى إلى العبقرية ، وكانت الهوة السوداء التى تحفر فى ذهنى عندما أبحث عن موضوعات كتاباتى المستقبلة ، مجرد وهم لا أساس له من الصحة ، سيزول نتيجة لتدخل أبى الذى اتفق بلا شك مع الحكومة والعناية الإلهية على أن أكون أول كتاب عصرى . وفى أحيان أخرى ، بينما كان والدى يقلقان لأننى أتخلف عنهما ولا أتبعهما كانت حياتى الحالية لا تبدو لى شيئاً صناعياً اخترعه أبى وبوسعه أن يغيره كما يشاء ، بل واقعاً لم يجعل لى ، ولا حول ولا قوة لى أمامه ، لا حليف لى فيه ، ولا يخفى شيئاً وراءه . كان يخيل إلى آنذاك أننى موجود بنفس الطريقة التى يوجد بها الآخرون ، وأننى سأبلغ الشيخوخة وأموت مثلهم ، وأننى من أولئك الذين لا يملكون أى استعداد للكتابة . لذا ، أصبت باليأس ، وتخليت عن الأدب إلى الأبد ، رغم تشجيع بلوك لى . وكان هذا الإحساس المباشر الحميم بأن فكرى أصبح عدماً ، يتغلب على كلمات النفاق التى تجزل لى ، كما يتغلب تأنيب الضمير فى النفس الشريرة التى يمتدح الجميع أعمالها الطيبة .

وذات يوم ، قالت لى أمى : « ما دمت لا تكف عن الحديث عن مدام دى جرمونت وعما أن الدكتور برسبييه عالجها بنجاح من أربعة أعوام ، اعلم أنها ستأتى إلى كومبريه لتحضر زواج ابنته . وتستطيع عندئذ أن تراها فى الحفل » : وبالفعل ، كان الدكتور برسبييه أكثر من حدثنا عن مدام دى جرمونت ، بل واطلعنا على عدد من مجلة مصورة ظهرت فيه بالبذلة التى ارتدتها فى حفلة تنكرية حضرتها عند الأميرة دى ليون .

فجأة ، أثناء قداس الزواج ، سمحت لى حركة صدرت عن حاجب الكنيسة عندما غير مكانه ، بأن أرى فى إحدى المصليات سيدة شقراء ذات أنف كبير ، وعينين زرقاوين حادتين ، ورباط عنق منتفخ ، أملس ، لامع ، جديد ، من الحرير

البنفسجي ، وحبة صغيرة عند ركن أنفها. ولأنني تبينت على مساحة وجهها الحمر كما لو كانت تشعر بالحر ، أجزاء صغيرة ذابت وتكاد لا ترى ، من الشبه بالصورة التي سبق أن رأيتها ، ولأن الملامح الخاصة التي تبينتها فيها ، يمكن الإشارة إليها ، إذا حاولت أن أسميها ، بالعبارات الآتية بالذات : أنف كبير ، وعينان زرقاوان ، التي استخدمها الدكتور برسبييه عندما وصف الدوقة دي جرمونت ، قلت لنفسي : هذه السيدة تشبه مدام دي جرمونت . وكان المصلي الذي تتابع فيه القداس مصلي جيلبير لي موفيه ، حيث يرقد تحت قبوره المسطحة المذهبة المتباعدة كخلايا العسل ، من حملوا لقب كونت دي برابون فيما مضى . وأذكر ، حسب ما قيل لي : إنه كان مخصصاً لأسرة دي جرمونت ، عندما يحضر أحد أفرادها احتفالا في كومبريه. لم يكن من الممكن أن توجد اليوم في هذا المصلي — حيث يجب أن تأتي بالذات — إلا امرأة واحدة تشبه صورة مدام دي جرمونت . كانت هي إذن . كانت خيبة أملي كبيرة ، وكان مرجعها أنني لم أنتبه أبداً ، عندما كنت أفكر في مدام دي جرمونت ، إلى أنني أتخيلها بألوان اللوحة الجدارية أو الزجاجية ، في عصر آخر ، وبطريقة أخرى غير الطريقة التي أتخيل بها الأحياء . لم أنتبه أبداً إلى أن وجهها يمكن أن يكون أحمراً ، أو إلى أنها تلبس رباط عنق بنفسجي مثل مدام سيزاره. وعندما رأيت وجهها البيضاوي ، تذكرت بعض الذين رأيتهم في منزلنا لدرجة أنني بدأت أشك — وسرعان ما تبدد هذا الشك — في أن هذه السيدة ، من حيث المبدأ الذي أوجدها وبكل جزئ فيها ، هي الدوقة دي جرمونت مادياً ، وفي أن جسدها الذي يجهل الاسم الذي أعطى له ، ينتمي إلى نوع معين من النساء ، يشتمل على زوجات الأطباء والتجار أيضاً . « هذه هي إذن مدام دي جرمونت ؟ » هكذا قال الوجه المتنبه المندهش الذي تأملت به هذه الصورة ، ولم تكن لها ، بطبيعة الحال ، أية علاقة بالصور التي تحمل نفس الاسم وظهرت لي مراراً في أحلامي ، ما دمت لم أرسمها بطريقة تعسفية كالأخريات ، بل استوقفت نظري لأول مرة ، من لحظة فقط ، في الكنيسة . لم تكن لهذه الصورة طبيعة تلك الصور ، ولم تكن لتقبل أن نلونها كيفما نشاء ، كتلك الصور التي تستسلم للتشبع بلون مقطع برتقالي من كلمة ، بل كانت حقيقية لدرجة أن كل شيء فيها ، حتى هذه الحبة الصغيرة التي تشتعل بجوار الأنف ، يؤكد استبعاد قوانين الحياة لها ، كما تنم ثنايا ثوب الساحرة أو رجفة بنصرها عن وجود الممثلة الحية مادياً ، في حين كنا نشك في أن ما تراه العين مجرد عرض ضوئي .

وحاولت ، فى الوقت نفسه ، أن أطبق الفكرة الآتية على الصورة الحديثة التى لا تقبل للتغيير ، وثبتها فى رؤيتى الأنف للبارز والعينان الثاقبتان (ربما لأنهم أول من مسها وأوجد فيها أول حز ، فى اللحظة الذى لم يتسع لى الوقت فيها لكى أفكر فى أن المرأة التى ظهرت أمامى يمكن أن تكون مدام دى جرمونت) : « إنها مدام دى جرمونت. » ولم أتوصل إلا إلى قيامها بمناورة أمام الصورة ، وكأن الإثنتين اسطوانتان تفصل بينهما مسافة . لكن مدام دى جرمونت التى طالما حلمت بها ، ورأيت الآن أنها موجودة بالفعل لكن خارج نفسى ، زادت من سلطانها على خيالى الذى شل لحظة عندما اتصل بواقع مختلف جداً عما توقعه ، فأخذ يرد ويقول لى : « كان لآل جرمونت الأمجاد ، قبل شارلمان ، حق الحياة والموت على أتباعهم ، ودوقة جرمونت تنحدر من جنفييف دى برابون. وهى لا تعرف ، ولا توافق على أن تعرف أى من الأشخاص الموجودين هنا » .

وبالاستقلال النظرات البشرية الرائع ، نظرات يربطها بالوجه حبل طويل مطاط ، لم يشد لدرجة أنها تستطيع أن تروح وتغدو وحدها بعيداً عنه — بينما كانت مدام دى جرمونت تجلس فى المصلى فوق قبور موتاها ، كانت نظراتها تتسكع هنا وهناك ، وتصعد بطول الأعمدة ، بل وتتوقف عندى أنا ، كأنها شعاع من الشمس هام على وجهه فى جناح الكنيسة ، لكنه بدا لى واعياً فى اللحظة التى تلقيت فيها قبلته . أما مدام دى جرمونت نفسها ، فظلت بلا حراك ، وجلست كأم لا ترى فيما يبدو الأفعال الجريئة الماكرة ، والمحاولات المتطفلة التى يقوم بها أولادها الذين يلعبون و ينادون أناساً لا تعرفهم ، واستحال على أن أعرف ما إذا كانت توافق على شرود نظراتها أم تلومه ، فى نفسها المتفرغة .

وجدت أنه من المهم ألا ترحل قبل أن أتمكن من النظر إليها بما فيه الكفاية ، لأننى تذكرت أننى اعتبرت رؤيتها ، لسنوات عديدة ، شيئاً أرغب فيه إلى أقصى حد ، ولم أحول نظرى عنها ، كما لو كانت كل نظرة من نظراتى تستطيع أن تأتى مادياً ، وتخزن فى نفسها ذكرى أنفها البارز ، ووجنتيها المحمرتين ، وتلك الخواص التى خيل إلى أنها معلومات قيمة ، وأصيلة وفريدة عن وجهها . والآن ، بعد أن جعلتنى كل الأفكار التى علقتها بهذا الوجه أراه جميلا — وربما كان الدافع إلى ذلك هو رغبتنا الدائمة فى ألا نشعر بخيبة الأمل ، وهى شكل من أشكال الاحتفاظ بأفضل عناصرنا — وأعدت دوقة جرمونت (ما دامت هى الدوقة التى ذكرتها حتى

الآن) إلى مكان خارج عن بقية البشر ، وكانت قد اختلطت بهم لحظة لمجرد رؤيتى لجسدها ، أحسست بالضيق عندما قيل حولى : « إنها أجمل من مدام سيزاره ، ومدموازيل فانتوى . » ، وكأنه يمكن أن تقارن بهما . وعندما توقفت نظراتى على شعرها الأشقر ، وعينيها الزرقاوين ، ورباط عنقها ، وأغفلت الملامح التى قد تذكرنى بوجوه أخرى ، صحت قائلا أمام هذا الرسم المبدئى الناقص إرادياً : « يا لجمالها ! يا لسموها ! إنها حقاً سليلة ج . دى برابون ، وتنتمى إلى آل جرمونت بفخر . » وكان الاهتمام الذى أضىء به وجهها يعزله لدرجة أنه يستحيل على ، حتى اليوم ، إذا تذكرت هذا الاحتفال ، أن أرى شخصاً واحداً ممن حضروه ، باستثنائها هى والحاجب الذى رد بالإيجاب عندما سألته عما إذا كانت هذه السيدة حقاً مدام دى جرمونت . أما هى ، فأراها مرة ثانية ، لا سيما عندما مر العرض أمام الموهف الذى تضيؤه الشمس إضاءة متقطعة حارة ، كما يحدث فى الأيام التى تهب فيها الريح والعاصفة ، وتواجدت فيه مدام دى جرمونت وسط سكان كومبريه الذين تجهل حتى أسماءهم ، وتعلن مرتبتهم الأدنى عن مرتبتها الأعلى ، بقدر يتعذر معه ألا تشعر بالود الصادق نحوهم ، وتأمل ، علاوة على ذلك ، أن توحى إليهم بمزيد من الاحترام ، لفرط طيبتها وبساطتها . لذا ، لم تتمكن من توجيه تلك النظرات الإرادية المحملة بمعنى محدد التى نوجهها لمن نعرفهم ، واكتفت بترك أفكارها الشاردة تهرب باستمرار منها ، فى موجة من النور الأزرق لم تستطع احتواءها ، ولا تريد أن تضايق بها أحداً ، أو تحتقر فيما يبدو صغار القوم الذين تلتقى بهم لقاء عابراً ، وتصيبهم فى كل لحظة . وما زلت أرى ، فوق رباط عنقها البنفسجى الأملس المنتفخ ، دهشة عينيها الحلوة التى أضافت إليهما ، بدون أن تجرؤ على أن تخص بها شخصاً معيناً ، وبحيث يأخذ الجميع منها نصيبهم ، ابتسامة خجولة إلى حد ما ، ابتسامة السيدة النبيلة التى تتظاهر بالاعتذار لأتباعها وتحبهم . وسقطت هذه الابتسامة على ، ولم أغض الطرف . وعندئذ ، تذكرت تلك النظرة التى ثبتتها على الدوقة أثناء القداس ، نظرة زرقاء كشعاع شمس اخترق زجاجية جيلبير لى موفيه وقلت : « لا شك أنها مهتمة بى . » وظننتها معجبة بى ، وأنها ستظل تفكر فى ، حتى بعد أن تغادر الكنيسة ، وربما شعرت بالحزن بسببى ، مساء ، فى جرمونت . أحببتها فى الحال . وإذا كان يكفى أحياناً ، لكى نحب امرأة ، أن تنظر إلينا باحتقار كما فعلت مدموازيل سوان ، فيما أظن ، وفكرنا فى أنها لن تكون ملكاً لنا أبداً ، قد يكفى أحياناً أيضاً أن تنظر إلينا نظرة طيبة كما فعلت مدام دى جرمونت ، وأن

نفكر فى أنه ممكن أن تكون لنا . ازرقت عيناها كعناقية يستحيل قطفها ، وإن كانت أهدتها لى . والشمس التى تهددها سحابة ، لكنها تصب أشعتها بكل قوة على الميدان والموهف ، كانت تعطى لون الجيرانيوم للسجاجيد الحمراء التى بسطت فى الأرض لهذه المناسبة الجليلة ، وتقدمت عليها مدام دى جرمونت وهى تبتسم ، وتضفى على صوفها لوناً مخملياً وردياً ، وبشرة مضيئة ، ونوعاً من الحنان والرقة الحادة ، فى جو الأبهة والفرح الذى تتميز به بعض صفحات لوهنجرين ، ولوحات كارباتشيو ، وتجعلنا نفهم كيف استطاع بودلير أن يصف صوت البوق بأنه لذيذ .

كم بدا لى أكثر من ذى قبل ، منذ ذلك اليوم ، أثناء النزهات التى تمت بها ناحية جرمونت ، أن عدم استعدادى للآداب ، واضطرارى إلى صرف النظر عن أن أكون كاتباً مشهوراً ، شىء محزن . وآلمنى الأسى الذى أحسست به عندئذ ، وأنا أحلم قليلا على انفراد ، فى مكان بعيد إلى حد ما ، لدرجة أن ذهنى توقف تماماً عن التفكير فى الشعر ، والروايات ، والمستقبل الشاعرى الذى منعنى افتقارى إلى الموهبة من الاعتماد عليه ، توقف من تلقاء نفسه ، نتيجة لنوع من الشلل أمام الألم ، كى لا أشعر ولا يشعر بهذا الأسى . واستوقفنى فجأة سقف ، وانعكاس للشمس على حجر ، أو رائحة الطريق ، وهم بعيدين كل البعد عن المشاغل الأدبية ، ولا يربطهم بها أى شىء ، ومنحونى متعة خاصة ؛ استوقفونى لأنهم يخفون أيضاً ، فيما يبدو ، وراء ما أراه ، شيئاً يدعوننى إلى أخذه ، ولا أتوصل إلى اكتشافه ، رغم جهودى . وبما أننى كنت أحس أن هذا الشىء موجود فيهم ، وقفت بلا حراك ، انظر ، واستنشق وأحاول أن أذهب بفكرى أبعد من الصورة أو الرائحة ، وكنت أسعى إلى العثور عليهم مرة أخرى ، وأنا أغمض عينى ، إذا اضطررت إلى اللحاق بجدى ومواصلة السير . كنت أحاول جاهداً أن أتذكر بالضبط خط السقف ، ولون الحجر ، وخيل إلى أنهما ممتلئان ، ومستعدان للإنتفاخ ، والكشف عما يغطيانه ، بدون أن أدرك لذلك سبباً . ولم تكن انطباعات كهذه لتستطيع أن ترد لى الأمل الذى فقدته ، الأمل فى أن أكون يوماً كاتباً أو شاعراً ، لأنها كانت ترتبط دائماً بشىء خاص خالى من القيمة الذهنية ، ولا يتعلق بأى حقيقة مجردة . لكنها كانت تولد فى ، على الأقل ، متعة لا تتعقل ، والإيهام بنوع من الخصوبة ، ومن ثم ، تبعدنى عن الملل والإحساس بالعجز الذى شعرت بهما فى كل مرة بحثت فيها عن موضوع فلسفى لعمل أدبى هام . لكن واجب الوعي الذى تفرضه على هذه الانطباعات الخاصة بالشكل واللون والرائحة

ومحاولة الوقوف على ما يتخفى وراءها ، كان شاقاً ، بحيث كنت أبادر إلى تلمس الأعذار التى تمكننى من الهرب من هذا الجهد وعدم تكبد هذا العناء . لحسن الحظ ، نادانى والدى ، وشعرت أننى افتقرت حالياً إلى الهدوء اللازم لمواصلة السعى مواصلة مفيدة ، وأنه من الأفضل ألا أفكر فى الأمر إلى حين عودتى إلى المنزل ، وألا أجهد نفسى سلفاً بلا داع أو نتيجة . لذا ، لم أهتم بهذا الشىء المجهول الذى يلتف حوله شكل أو رائحة وأنا هادئ النفس ، ما دمت أعود به إلى المنزل ، تحميه الصور التى تكسوه ووجدته حياً تحتها ، شأنه شأن السمك الذى عدت به فى سلتى ، وغطيته بطبقة من الحشائش ظل بفضلها طازجاً ، يوم أن سمحوا لى بالذهاب للصيد ، وبعد عودتى إلى المنزل ، فكرت فى شىء آخر . وهكذا ، تكدس فى ذهنى (كما تتكدس فى غرفتى الزهور التى قطفتها والأشياء التى أعطيت لى) حجر يتلاعب به شعاع ،وسقف ، ورنة جرس ، ورائحة أوراق شجر ، وكثير من الصور المتباينة التى مات تحتها ، من مدة طويلة ، الواقع الذى أحسست به ، ولم أتوصل إلى اكتشافه ، لأن الإرادة عازتنى .

ومع ذلك ، تملكنى ذات يوم إحساس من هذا النوع ، ولم انصرف عنه إلا بعدتعميقه قليلا: كانت نزهتنا قد تجاوزت مدتها المعتادة بكثير . لذا ، سررنا للغاية عندما التقينا فى منتصف الطريق، بينما كانت فترة بعد الظهر تقترب من نهايتها ، بالدكتور برسبييه ، الذى مر مسرعاً فى عربة ، وعرفنا ، وجعلنا نركب معه . طلب منى أن أصعد وأجلس بجوار الحوذى ، وانطلقنا كالريح ، لأن الدكتور كان عليه أن يتوقف فى مارتنفيل لى سيك ، قبل أن يعود إلى كومبريه ، عند مريض اتفقنا على أن ننتظره أمام بابه . وفى منتصف الطريق ، أحسست فجأة بمتعة خاصة لا تشبه أى متعة أخرى ، عندما رأيت برجى أجراس مارتنفيل التى تطل عليهما الشمس الغاربة ، وغيرت مكانهما حركة عربتنا وتعرجات الطريق ، ثم برج أجراس فيوفيك ، ويفصل بينه وبينهما تل ووادى ، ويقع على هضبة بعيدة أعلى ، وإن كان يبدو قريباً جداً منهما .

وإذ رأيت ولاحظت شكل سهامهم ، وتغيير مكان خطوطهم ،وأشعة الشمس على سطحهم ، شعرت أننى لا أبلغ بانطباعى مداه ، وأن شيئاً ما يكمن وراء هذه الحركة ، وهذا النور ، شىء تحتويه الأبراج وتخفيه فى آن واحد ، فيما يبدو .

يبدو أن برجى الأجراس كانا بعيدين وأننا كنا نقترب منهما ببطء ، لدرجة أننى دهشت عندما توقفنا أمام كنيسة مارتنفيل ، بعد ذلك ببضع لحظات . ولم أدرك سبب المتعة التى أحسست بها عندما لمحتهما فى الأفق ، واتضح لى أن محاولة اكتشاف هذا السبب

شىء شاق للغاية. كنت أريد أن أحتفظ فى رأسى بهذه الخطوط التى تتحرك فى الشمس وألا أفكر فيها الآن. ولو أننى فعلت، لكان من المحتمل أن يلحق برجى الأجراس إلى الأبد بكم الأشجار، والأسقف، والروائح، والأصوات، التى ميزتها عما عداها، نظراً للمتعة الغامضة التى ولداها فى، ولم أعمقها أبداً. ونزلت لأتحدث مع والدى، ونحن ننتظر الطبيب، ثم عاودنا السير، وعدت إلى مكانى بجوار الحوذى، والتفت لأرى مرة أخرى برجى الأجراس الذى لمحتهما مرة أخيرة بعد ذلك بقليل، عند منعطف أحد الطرقات. وكان الحوذى لا يميل إلى الكلام، فيما يبدو؛ لذا، رد بالكاد على كلامى، واضطررت أن أصاحب نفسى وأحاول أن أتذكر البرجين، لعدم وجود صاحب. وسرعان ما تمزقت خطوطهما وتمزق سطحهما المشمس، كأنه قشرة وظهر لى شىء مما كان مختبئاً فيهما. وخطرت لى فكرة لم تخطر لى فى اللحظة السابقة، وتحولت إلى كلمات فى رأسى، وزادت من المتعة التى بعثها فى رؤية البرجين منذ قليل، للدرجة أننى انتشيت ولم أستطع التفكير فى شىء آخر. وفى هذه اللحظة، وبما أننا كنا قد ابتعدنا عن مارتنفيل، لمحتهما مرة أخرى عندما أدرت رأسى، وكانا فى هذه المرة سوادوين لأن الشمس قد غربت. كانت منحنيات الطريق تخفيهما عن نظرى أحياناً. ثم ظهرا مرة أخرى، وأخيراً، غابا عن الأنظار. وبدون أن أقول لنفسى إن ما كان يختبئ وراء أبراج أجراس مارتنفيل لا بد وأن يكون شيئاً شبيهاً بالجملة الجميلة، مادام قد ظهر فى شكل كلمات أمتعتنى، طلبت من الطبيب ورقة وقلم، وألفت هذه القطعة الصغيرة التى عثرت عليها فيما بعد، رغم اهتزازات العربة، لأريح ضميرى وأنه اع لحماسى، ولم أخضعها إلا لتغييرات طفيفة:

« ارتفع فى السماء برجى أجراس مارتنفيل، وحدهما، ارتفعا فوق مستوى الوادى، كما لو كانا قد ضاعا فى الأرض المنبسطة. وسرعان ما رأينا ثلاثة أبراج، إذ جاء برج أجراس فيوفيك متأخراً، ولحق بهما، واتخذ لنفسه مكاناً أمامهما بالتفاتة جريئة. ومرت الدقائق، وسرنا مسرعين. ومع ذلك، ظلت الأبراج الثلاثة بعيدة أمامنا، كأنها ثلاثة طيور حطت فى الوادى، وهى بلا حراك، وتراها العين فى الشمس. ثم ابتعد برج أجراس فيوفيك،، وصارت بينه وبينهما مسافة، وظل برجى أجراس مارتنفيل وحدهما، يضيئهما نور الغروب الذى أراه يلعب ويبتسم عند منحدراتهما. كنا قد استغرقنا وقتاً طويلا لكى نقترب منهما. لذا، أخذت أفكر فى الوقت اللازم للوصول إليهما. وفجأة انعطفت العربة، ووجدنا أنفسنا تحتهما: كانا قد ألقيا بنفسيهما

أمامها ، بطريقة مفاجئة لدرجة أننا توقفنا قبل أن نصطدم بالمدخل بلحظة واحدة فقط . واصلنا السير ، وكنا قد غادرنا مارتنفيل منذ قليل ، واختفت القرية بعد أن رافقتنا بضع ثوان ، عندما أخذ برجى أجراسها وبرج فيوفيك ، الذين ظلوا وحيدين فى الأفق ينظرون إلينا ونحن نبتعد ، ويلوحون بقممهم المشمسة ليقولوا لنا وداعاً . وأحياناً ، كان أحدهم يبتعد ، ليتمكن الاثنان الآخران من رؤيتنا لحظة أخرى . لكن الطريق غير اتجاهه ، فداروا فى الضوء كأنهم ثلاث مدارات ذهبية ، وغابوا عن نظرى ، وعندما اقتربنا من كومبريه ، بعد ذلك بقليل ، وكانت الشمس قد غربت ، لمحتهم مرة أخيرة من بعيد ، وكانوا مجرد زهور ثلاثة رسمت فى السماء فوق خط الحقول المنخفض ، مما جعلنى أفكر فى ثلاث فتيات تقول الأسطورة أنهن ضللن فى مكان حل فيه الظلام . وبينما كنا نبتعد ، رأيتهم يتحسسون طريقهم بخجل . وبعد أن تعثر ظلهم النبيل تعثراً أخرق ، رأيتهم يضمون صفوفهم ، وينزلق أحدهم وراء الآخر ، ولا يكونون فى السماء التى لا تزال وردية سوى شكلا واحداً ، أسوداً ، ساحراً ، مستسلماً ، ويغيبون فى الليل » .

لم أعاود التفكير أبداً فى هذه الصفحة ، لكنى كنت سعيداً للغاية عندما انتهيت من كتابتها ، وأنا جالس فى ركن المقعد الذى يضع فيه حوذى الطبيب عادة سلة الطيور التى اشتراها من سوق مارتنفيل ، وأحسست أنها خلصتنى تماماً من أبراج الأجراس هذه وما تخفيه وراءها ، كما لو كنت دجاجة وضعت لتوها بيضة وأخذت تغنى بصوت عال .

استطعت خلال هذه النزهات أن أحلم طوال اليوم بالمتعة التى قد أشعر بها إذا أصبحت صديقاً للدوقة جرمونت ، واصطدت السمك ، وتنزهت فى مركب فى الفيفون . ولتعطشى إلى السعادة ، لم أطلب من الحياة فى هذه اللحظات إلا أن تكون سلسلة من أيام بعد الظهر السعيدة . لكن قلبى أخذ يدق فجأة ، عندما لمحت على اليسار ونحن فى طريق العودة ، مزرعة بعيدة إلى حد ما عن مزرعتين متقاربتين جداً ، ولم يكن علينا ، لكى ندخل كومبريه من المكان الذى تقع فيه هذه المزرعة ، إلا أن نسلك ممراً من شجر البلوط تحفه من جانب مروج كل واحد منها ملك لبستان صغير ، وزرعت فيها ، على مسافات متساوية ، أشجار تفاح تنقل إليها رسم ظلالها اليابانى ، إذا أضاءتها الشمس الغاربة . كنت أعلم أننا سنكون فى منزلنا بعد نصف ساعة تقريباً ، وإننى سأرسل إلى

غرفة النوم حالما انتهى من شرب الحساء، كما يحدث فى الأيام التى نذهب فيها ناحية جرمونت ، ونتناول فيها وجبة العشاء فى ساعة متأخرة. لن تصعد أمى إذن لتقول لى « تصبح على خير » وأنا فى السرير ، وستضطر إلى البقاء فى غرفة الطعام كما لو كان عندنا ضيوف على العشاء. وكانت منطقة الحزن التى دخلت فيها لتوى مختلفة عن المنطقة التى انطلقت فيها وأنا فرح ، من لحظة ، وهكذا يفصل فى بعض السموات شريط وردى عن شريط أخضر أو أسود . يرى طائر فى اللون الوردى ، ويوشك أن يصل إلى آخره ، ويكاد يمس اللون الأسود ، ثم يدخل فيه. وكنت الآن خارج الرغبات التى أحاطت بى منذ قليل ، رغبة الذهاب إلى جرمونت ، والسفر ، والسعادة ، لدرجة أن إشباعها لن يولد فى أية متعة . ولكم كنت أتمنى أن استبدل بكل هذا إمكانية البكاء طول الليل بين ذراعى أمى ! ارتجفت ، ولم أبعد عينى القلقتين عن وجه أمى التى لن تظهر فى الغرفة هذا المساء ، حيث كنت أرى نفسى بعين الخيال ، وتمنيت الموت. كان يمكن أن يستمر هذا الحال حتى الغد ، حتى تسند أشعة الصباح — كما يفعل البستانى — قضبانها إلى الحائط الذى تكسوه زهور السلبوت وتتسلقه حتى نافذتى ، كان يمكن أن أنزل من السرير ، ثم إلى الحديقة ، بسرعة ، بدون أن أذكر أن المساء سيعود أبداً بساعة فراقى لأمى . هكذا تعلمت ، وأنا فى ناحية جرمونت ، كيف أفرق بين هذه الحالات التى تتتابع فى نفسى ، فى فترات معينة ، وتبلغ حد اقتسام كل نهار ، وتعود إحداها لتطرد الأخرى فى ساعة محددة ، كالحمى. كانت هذه الحالات متجاورة ، لكن كل منها كان منفصلا عن الآخر ، وانعدمت سبل الإتصال بينها ، حتى أننى لم أعد أفهم أو حتى أتصور فى إحداها ما رغبت فيه ، أو خفت منه ، أو أنجزته فى الأخرى .

لذا ، ظلت ناحية ميزجليز وناحية جرمونت مرتبطتين فى نظرى بكثير من الأحداث الصغيرة ، الخاصة بحياة من مختلف الحيوات التى نحياها فى خطوط متوازية ، وهى أكثر امتلاء بالأحداث وغنى بالوقائع ، وأقصد بها حياة الفكر . ولا شك أنها تنمو فينا بدون أن نشعر بها . كنا نعد من فترة طويلة ، لكن بدون أن ندرى ، اكتشاف الحقائق التى غيرت شكلها ومعناها ، وفتحت أمامنا سبلا جديدة . ولا تؤرخ هذه الأحداث إلا ابتداء من اليوم والدقيقة التى نراها فيهما ، عندئذ ، يرافق ذكراها المنظر الطبيعى الذى أحاط بظهورها ، بوجهه اللا شعورى أو الشارد ، وأزهاره التى كانت تلعب على الحشائش ، ومائه الجارى تحت الشمس . وعندما كان المار المتواضع أو الطفل الحالم يتأمل طويلا — كما يتأمل المؤرخ الواقف وسط الحشد ملكاً — هذا الركن من

الطبيعة أو ركن الحديقة هذا ، كان هذان الآخران لا يدركان أنهما سيبقيان على قيد الحياة ، بخواصهما الزائلة ، بفضل هذا المار وهذا الطفل . ومع ذلك ، حمل حماسى عطر الزعرور الذى يجمع مؤونته بطول السور ، حيث سيستبدل بالنسرين بعد قليل ، وصوت خطوات لا صدى لها فوق حصى الممر ، والفقاعة التى كونتها مياه الترعة فوق نبات مائى وتفقأ فى الحال ، وعبر بهم سنوات عديدة متتالية ، بينما انمحت الطرق حولهم ، ومات من وطؤوها بأقدامهم ، وماتت ذكراهم . وأحياناً ، تبرز قطعة من المنظر الطبيعى وصلت إلينا حتى اليوم ، وقد عزلت عن كل شىء ، حتى أنها تطفو مترددة فى ذهنى كأنها ديلوس مزدهرة ، بدون أن أتمكن من أن أقول من أى بلد ومن أى زمان — وربما من أى حلم بكل بساطة — أتت . لكن ، يجب أن أنظر إلى ناحيتى ميزجليز وجرمونت على أنهما بصفة خاصة مناجم عميقة فى تربة ذهنى ، وأراضى صلبة اعتمد عليها حتى الآن . ولأننى أومن بالأشياء والكائنات ، وأنا أمر بها ، ظلت الأشياء والكائنات التى عرفتها من خلالهما ، الأشياء والكائنات الوحيدة التى أنظر إليها نظرة جادة ، وتبعث فى الفرحة حتى الآن . والأزهار التى أراها اليوم لأول مرة لا تبدو لى حقيقية ، إما لأن الإيمان الخلاق قد نضب معينه فى ، إما لأن الحقيقة لا تتشكل إلا فى الذاكرة . فناحية ميزجليز بليلكها ، وزعرورها ، وترنجانها ، ومنثورها ، وتفاحها ، وناحية جرمونت بترعتها ، حيث أفراخ الضفادع ، ونيلوفرها ، وبراعمها الذهبية ، مثلتا فى نظرى إلى الأبد وجه البلاد التى أتمنى أن أعيش فيها ، وأطالب فيها أولا وقبل كل شىء بالذهاب للصيد ، والنزهة فى القارب ، ورؤية أطلال القلاع القوطية ، والعثور وسط القمح — هكذا كانت سانت أندريه ديشون — على كنيسة ضخمة ، ريفية ، مذهبة كالرحى . وتتصل بقلبى مباشرة زهور الزعرور وأشجار التفاح التى قد التقى بها فى الحقول ، أثناء السفر ، لأنها توجد فى نفس العمق ، فى مستوى ماضى . ومع ذلك ، ولأن شيئاً فردياً يوجد فى الأماكن ، لن تشبع رغبتى فى رؤية ناحية جرمونت ، إذا استولت على ، إذا اقتادونى إلى شاطئ ترعة يوجد فيه نيلوفر جميل كنيلوفر الفيفون ، بل أجمل منه ، وان أتمنى أن تأتى فى المساء ، عندما أعود إلى المنزل — فى تلك الساعة التى يستيقظ فيها فى نفسى ذلك القلق الذى يهاجر بعد ذلك إلى الحب ، وقد لا ينفصل عنه أبداً — أم أجمل وأذكى من أمى ، وتقول لى « تصبح على خير » . لا . كذلك ، كان ما يلزمنى لكى أنام وأنا سعيد ، وأشعر بذلك السلام الذى لا تشوبه شائبة ، ولم أنعم به أبداً مع أية عشيقة ، ما دمنا نشك فى العشيقة فى نفس اللحظة التى نؤمن بها فيها ، ولا نملك قلبها أبداً ، فى حين كنت أتلقى قلب

أمى كاملا فى قبلة ، بلا تحفظ وبسلامة نية ، وبلا أثر لفكرة لا تتعلق بى — كان مايلزمنى هو أن تكون هى ، هو أن تميل على ذلك الوجه ، حيث تحت العين عيب ، فيما يبدو ، عيب أحببته مع ذلك كما أحببت الوجه كله . كذلك ، فان ما أريد أن أراه ثانية ، هو ناحية جرمونت التى عرفتها ، والمزرعة البعيدة قليلا عن المزرعتين التاليتين المتقاربتين ، عند مدخل ممر البلوط ، هو هذه المراعى ، حيث ترسم أوارق شجر التفاح عندما تجعل الشمس منها سطحاً يعكس الضوء كالبحيرة ، هو ذلك المنظر الطبيعى الذى تضمنى فرديته أحياناً ، فى ليل أحلامى ، بقوة شبه خيالية ، ولا أستطيع أن أجده ثانية عند استيقاظى . ولأننى جمعت فى نفسى إلى الأبد انطباعات متباينة، بطريقة لا انفصام فيها ، عرضتنى ناحية ميزجليز كما عرضتنى ناحية جرمونت ، فيما بعد ، لكثير من خيبة الأمل ، بل وكثير من الأخطاء ، لمجرد أنهما جعلتا هذه الانطباعات تولد فى فى وقت واحد . كثيراً ما أردت أن أرى شخصاً معيناً مرة أخرى ، بدون أن أفطن بكل بساطة إلى أنه يذكرنى بسور من الزعرور؛ ومجرد الرغبة فى السفر جعلتنى أصدق ، وأجعل الآخرين يصدقون أن الود قد عاد . لذلك ، ولأن الناحيتين كانتا حاضرتين فيما يمكن أن يرتبط بهما اليوم من انطباعات ، فهما تعطيان لهذه الانطباعات أساساً ، وعمقاً ، وبعداً إضافياً ، وتضيفان إليهما سحراً ، ومعنى لا يدركه إلا أنا . وعندما تزأر السماء المتسقة كالوحش الكاسر فى أمسيات الصيف ويغضب الجميع من العاصفة ، أدين لناحية ميزجليز ببقائى وحيداً فى حالة وجد ، وأشم ، من خلال صوت المطر التساقط ، رائحة ليلك ثابت لا يرى .

كثيرا ما كنت أفكر حتى الصباح فى زمن كومبريه ، وأمسياتى الحزينة الخالية من النوم ، وعديد من الأيام التى رد صورتها إلى مؤخراً مذاق — وكان يمكن أن يسمى « نكهة » فى كومبريه — فنجان من الشاى . ونتيجة لتوارد الخواطر ، كنت أفكر فيما عرفته بعد أن غادرت هذه المدينة الصغيرة بعدة أعوام ، عن قصة حب عاشها سوان قبل مولدى ، بكافة تفاصيلها الدقيقة ، والحصول على هذه التفاصيل يكون أسهل أحياناً إذا كانت عن حياة أناس ماتوا من عدة قرون ، لا عن حياة أعز أصدقائنا ؛ يبدو مستحيلا — كما كان الحديث بين مدينة وأخرى يبدو مستحيلا — طالما كنا على جهل بالطريقة التى أمكن بها التحايل على هذه الاستحالة . وأصبحت هذه الذكريات التى أضيف بعضها إلى البعض الآخر تكون كتلة واحدة ؛ ومع ذلك كان يمكن أن نتبين فيها — بين أقدمها ، وأحدثها الذى ولد عن عطر أو رائحة ، والذكريات التى لم تكن سوى

ذكريات شخص آخر نقلت إلينا — شقوقاً ، إن لم تكن حقيقية ، فهى على الأقل تعريقات ، ومزيج من الألوان يكشف فى بعض الصخور وبعض أنواع المرمر عن فارق الأصل ، والعمر ، والتكوين .

وعندما كان الصبح يقترب ، يكون شكى العابر فى يقظتى قد تبدد من مدة طويلة. كنت أعرف فى أى غرفة أوجد بالفعل . فلقد أعدت بناءها حولى فى الظلمة — سواء وجهتنى الذاكرة وحدها ، أم استعنت بنور خافت لمحته ووضعت تحته ستائر النافذة — ، أعدت بناءها بأكملها ، وأثثتها كمهندس معمارى ومنجد يحفظان للابواب والنوافذ فتحاتهم الأصلية ، كنت قد أعدت المرايا إلى مكانها ، وأعدت الصوان إلى مكانه المعتاد . لكن ، لا يكاد النهار — لا انعكاس جمرة أخيرة على عمود نحاس ظننته النهار — يرسم فى للظلام ، بشىء أشبه بالطباشير ، أول خط أبيض تصحيحى ، حتى تنفصل النافذة وستائرها عن إطار الباب ، حيث حددت مكانها خطأ ، بينما يهرب بأقصى سرعة المكتب الذى كانت ذاكرتى قد وضعته هنا كيفما اتفق ، ليفسح للنافذة مكاناً ، يهرب وهو يدفع أمامه المدفأة ويبعد حائط الممر المشترك . وسيطرت ساحة صغيرة على المكان الذى كانت غرفة المكتب تحتله من لحظة واحدة فقط . ولحق المسكن الذى أعدت بناءه فى الظلام بالمساكن التى تراءت لى فى دوامة اليقظة ، بعد أن ولت هاربة أمام العلامة الشاحبة التى خطها أصبع النهار المرفوع فوق الستائر.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٣٨/١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٤٦٥ — ١٩٨٥ — ٢٠١٠

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

